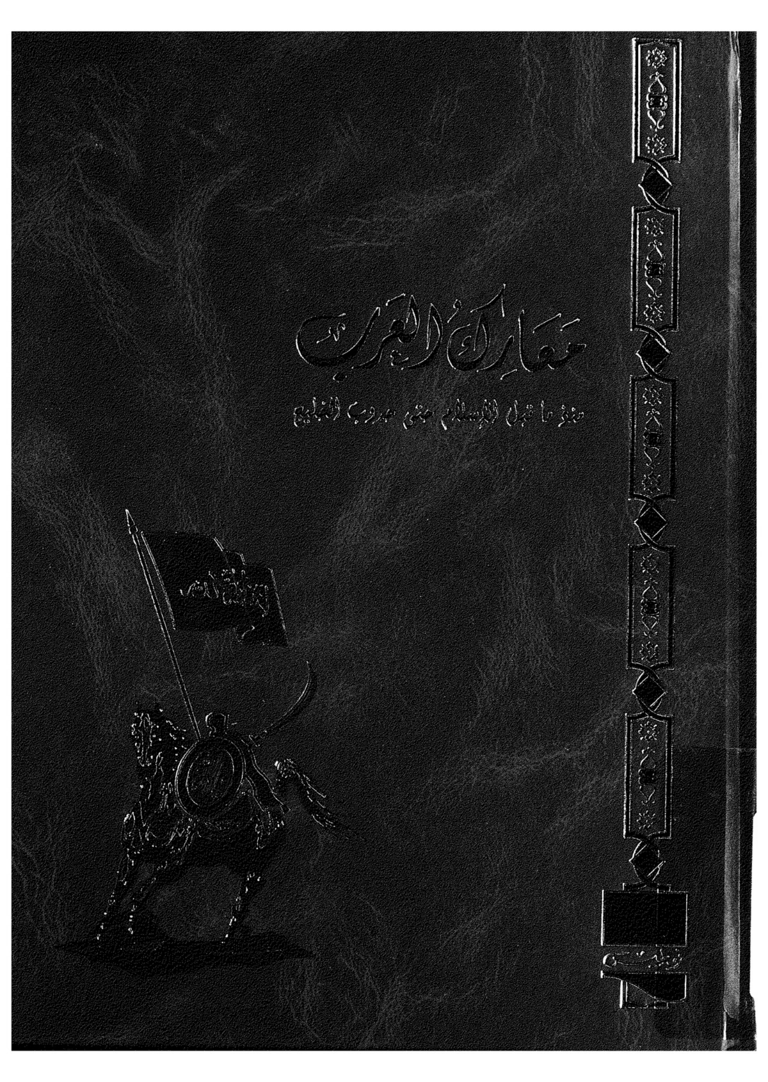


معارك العرب
منذ ما قبل الإسلام حتى حروب الخليج



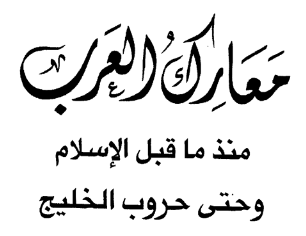
معارك العرب 9

جميع الحقوق محفوظة للناشر

اسم الموسوعة	:	معارك العرب
		منذ ما قبل الإسلام وحتى حروب الخليج
اسم الكتاب	:	دور القوّة والفتوحات والثورة العبّاسيّة
المؤلّف	:	العميد الركن الدكتور سامي ريحانا
قياس الكتاب	:	20x28 سم
عدد الصفحات	:	216
عدد صفحات الموسوعة	:	5920
مكان النشر	:	بيروت - لبنان
دار النشر والتوزيع	:	دار نوبليس
تلفاكس	:	961 1 58 34 75
هاتف	:	961 (1) 58 11 21 - 961 (3) 58 11 21
بريد إلكتروني	:	NOBILIS_INTERNATIONAL@hotmail.com
الطبعة الأولى	:	2007

العميد الركن سامي ريحانا

دكتور في التاريخ



المجلّد (9)

دور القوّة والفتوحات والثورة العبّاسيّة

NOBILIS

2007

يُمنع نسخ أو اقتباس أيّ جزء من هذه المجموعة
أو خزنه في نظام معلومات إسترجاعيّ أو نقله بأيّ شكل
أو أيّ وسيلة إلكترونيّة أو ميكانيكيّة أو بالنسخ الفوتوغرافي أو التسجيل
أو غيرها من الوسائل، من دون الحصول على إذن خطّيّ مُسبق من الناشر.

المقدّمة

في الجزء السابق عالجنا موضوع الظروف والعوامل التي ساهمت في انتقال الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان، أي إلى الفرع السفياني من قريش. كما تطرقنا إلى الثورات التي رافقت هذا الانتقال، وخاصة خلال خلافة معاوية وابنه يزيد. ثم انتقلنا إلى الكلام عن ثورات الخوارج خلال مختلف العهود، من ثورتهم ضد الإمام علي، أو الخليفة الراشدي الرابع، وصولاً إلى تحرّكاتهم خلال العصور العباسية.

ولاحظنا أن الفتوحات الكبرى التي حفل بها عهدا أبي بكر الصدّيق وعمر بن الخطاب توقفت مع الفتنة الكبرى التي ألمّت بالإسلام، والتي راح ضحيتها الخليفتان الراشديان الثالث والرابع، والتي توالت فصولها مع خلافة معاوية. فقد انتقل المسلمون من الحروب ضد الإمبراطوريات والشعوب الخارجية إلى الصراعات الداخلية التي نزلت بصفوفهم، والتي ذهب ضحيتها العديد من رجالات الإسلام، ومنهم صحابيون وقادة كبار.

وهكذا بدأ العصر الأموي بالصراع ما بين المسلمين أنفسهم، لأن قسماً كبيراً منهم رفض انتقال الخلافة من الفرع الهاشمي إلى الفرع السفياني، كما رفض قسم آخر مفهوم الوراثة التي عمل معاوية جاهداً لتطبيقها مؤمّناً الخلافة بعده لابنه يزيد، رغم أنه كان غير مؤهل لها بسبب طريقة عيشه وتصرفاته الشخصية التي أثارت انتقادات كثيرة في شأنها.

ومما لا شكّ فيه أن معاوية بن أبي سفيان كان من رجالات السياسة الذين عُرفوا بالحلم والمقدرة في إدارة أمور المسلمين، وهو القائل:

«لو أنّ بيني وبين الناس شعرة لما انقطعت، فإن شدّوا أرخيت، وإن أرخوا شددت».

إضافة إلى مقدرته وحلمه، بذل معاوية جهوداً مكثّفة وأموالاً طائلة في سبيل تأمين الخلافة لابنه يزيد الذي بويع بها في عهد والده. لكن ثلاثة لم يبايعوه، هم الحسين بن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير بن العوام، وترك له أبوه وصية في شأنهم ذكرناها في الجزء السابق من هذه الموسوعة.

ورغم انشغاله بتثبيت حكمه وتأمين خلافته، قام معاوية بإنجازات كبرى على صعيد الجهاد في سبيل الدين. فقد حارب الخوارج وقضى على الثورات التي قامت في وجهه وأرسل سرايا عديدة إلى العراق والحجاز في خلافة الإمام علي. كما جرت غارة على أهل الجزيرة في عهده.

وأحسن معاوية اختيار عماله، فبعث عمراً بن العاص إلى مصر وزياداً بن أبيه إلى بلاد فارس بعد أن ألحقه بنسبه، والمغيرة بن شعبة إلى الكوفة، وبسراً بن أرطأة إلى البصرة وقيساً بن الهيثم إلى خراسان وعبد الله بن عامر إلى البصرة.

أما إنجازاته العسكرية الخارجية فقد بنى معاوية أول أسطول عربي في البحر المتوسط، وقام بغزو السند، وأرسل حملة قوية حاصرت القسطنطينية للمرة الأولى بقيادة ابنه يزيد. وكانت هذه الحملة ضمن إطار تحضير يزيد للخلافة. وغزا العرب المسلمون في أيام معاوية أفريقيا من دون أن يتمكنوا من فتحها في شكل دائم.

وفي عهد معاوية غزا المسلمون بلاد الروم مرّات عدة وفتحوا جزيرتي أرواد ورودس ضمن إطار الصوائف والشواتي التي نشطت في أثناء خلافته. كما امتدت الفتوحات الإسلامية حتى بلغت المحيط

الأطلسي غرباً، وهراة وكابل وبخارى شرقاً.

وأقام معاوية مناطق ثابتة كقواعد للإنطلاق منها في الغزوات ضدّ الروم دعيت «الثغور». وجرى في عهده أيضاً غزو خراسان وبعض جبال الترك.

وهكذا نرى أن الثورات والتحركات المعارضة في بداية الحكم الأموي لم تمنع معاوية عن القيام بإنجازات عسكرية توّجت عهده كأول خليفة أموي.

سنعمد في هذا الجزء إلى دراسة مختلف المعارك والوقائع التي جرت خلال العصر الأموي، بدءاً بإنجازات معاوية بن أبي سفيان وتباعاً وفق التسلسل الزمني.

---

(١) جرجي زيدان، المؤلفات الكاملة، دار نوبليس، بيروت جزء ٣١، ص١٠٢.

القسم الأول

دور القوّة والفتوحات

الفصل الأول
العمليات العسكرية من معاوية إلى عبد الملك ابن مروان

لم يكن معاوية رجل إدارة وحسب، إنما كان قائداً عسكرياً فذاً، بدأ بالأعمال العسكرية منذ كان والياً على الشام. فقد اتسعت رقعة الدولة العربية في عهده حتى وصلت أطرافها في الشرق إلى بخارى وكابل، وفي الغرب إلى المحيط الأطلسي.

وفي عهده تطوّر الأسطول الذي حقق بواسطته والي الشام معاوية أول نصر عسكري بحري في معركة ذات الصواري الشهيرة في السنة السادسة والثلاثين للهجرة. كما نشطت الحملات البرية ضد الإمبراطورية البيزنطية. لكنه اضطر إلى مهادنة البيزنطيين خلال الأزمة التي وقعت بينه وبين الإمام علي (رض)، فعقد هدنة مع الإمبراطور قسطانز الثاني السنة (٣٦ هـ/٦٥٧ م) خوفاً من اغتنام هذا الأخير فرصة انشغال معاوية بالفتنة الكبرى والانقضاض على بلاد الشام.

وبعد تثبيت خلافته اهتم معاوية بكل الجبهات العسكرية، شرقاً وغرباً وشمالاً. ففي الشرق سيّر حملات عديدة بلغت خراسان وحدود الهند، وغرباً، اهتم بأفريقيا وأخذ يوجّه الحملات المتعاقبة التي كانت تنطلق من الفسطاط وبرقة وتغزو معاقل الروم في شمال أفريقيا[١]. وفي الشمال تابع معاوية في استراتيجية الصوائف والشواتي وفي حرب الثغور التي توجت بأول حملة ضد عاصمة الروم

(١) هذا الموضوع عولج بالتفصيل في الجزء السابع من هذه الموسوعة.

القسطنطينية، والتي وصلت إليها وجرى حصارها والاستيلاء على أحد المواقع المهمة في جنوب غرب القسطنطينية، رغم فشل الجيش العربي في اختراق دفاعاتها نظراً لمنعتها ومتانة أسوارها[1].

سنتكلّم في هذا الفصل عن الإنجازات العسكرية في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان.

١ - غزو السند:

في السنة الثالثة والأربعين استعمل معاوية عبد الله بن سوار العبدي على ثغر السند، فغزا القيقان وأصاب مغنماً، ووفد على معاوية وأهدى له خيلاً قيقانية. لكنه رجع وغزا القيقان مجدداً، فاستنجدوا بالترك حيث جرى قتال عنيف بين الجانبين استشهد عبد الله في نهايته[2].

وفي السنة الرابعة والأربعين للهجرة غزا المهلب بن أبي صفرة ثغر السند، فوصل إلى «بنّة»[3] والأهواز، حيث اصطدم بالعدو وجرى قتال عنيف. كما لقي المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارساً من الترك فقتلهم جميعهم.[4]

٢ - غزو جبال الغور:

في السنة السابعة والأربعين للهجرة سار الحكم بن عمرو إلى جبال الغور، فغزا من بها وأخذهم بالسيف عنوة وفتحها بالقوة حيث أصاب منها مغانم كثيرة وسبايا عديدين. لكنه، وأثناء عودته من هذه الغزوة، توفي في مرو.[5]

٣ - غزوة القسطنطينية

في السنة التاسعة والأربعين للهجرة سيّر معاوية جيشاً كبيراً إلى بلاد الروم لغزوها بلغ

---

(١) هذا الموضوع سيفصل لاحقاً في هذا الجزء من الموسوعة.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ٣، ص٢٩٦.

(٣) بنّة: مدينة بكابل.

(٤) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص٣٠٢.

(٥) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ٣، ص٢٠٤.

القسطنطينية وحاصرها من دون أن يتمكن من فتحها.[1]

٤ – عمليات في شمال أفريقيا

وفي السنة الخمسين للهجرة ولّى معاوية عقبة بن نافع ثغر أفريقيا، فبنى القيروان. وسيّر إليه معاوية عشرة آلاف فارس، فدخل أفريقيا وانضمت إليه جموع من البربر كانت قد اعتنقت الدين الإسلامي.

غزا عقبة شمال أفريقيا حتى بلغ المحيط الأطلسي.[2]

٥ – غزوة الروم وفتح جزيرة أرواد

وفي السنة الرابعة والخمسين أرسلت صائفة إلى بلاد الروم بقيادة معن بن يزيد السلميّ.

وفي نفس السنة فتح المسلمون بقيادة جنادة بن أبي أمية جزيرة أرواد القريبة من القسطنطينية وأقاموا فيها سبع سنين حتى وفاة معاوية، فأمرهم يزيد بالعودة منها فعادوا[3].

٦ – غزو خراسان وسجستان

وفي السنة الحادية والستين للهجرة استعمل الخليفة يزيد بن معاوية سلماً بن زياد على خراسان وسجستان، فسار سلم إلى خراسان وعبر النهر غازياً في ألفي فارس.

وكان عمال خراسان قبله يغزون صيفاً، فإذا دخل الشتاء رجعوا إلى مرو الشاهجان. فإذا انصرف المسلمون كان ملوك خراسان يجتمعون بإحدى مدن خوارزم فيتعاقدون على أن لا يغزو بعضهم بعضاً، ويتشاورون في أمورهم[4]. فلما قدم سلمٌ غزا خراسان شتاءً، وأرسل المهلب بن أبي صفرة في ستة آلاف مقاتل لغزو مدينة «فشتا» فحاصرها. فطلب أهلها أن يصالحهم على أن

---

(١) انظر تفاصيل هذه الحملة في الجزء الثامن من هذه الموسوعة.

(٢) المعارك في شمال أفريقيا لن تفصّل في هذا الجزء كونها ذكرت مفصلة في الجزء السابع من هذه الموسوعة تحت عنوان «العرب في المغرب والأندلس».

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص٣٤٤.

(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص٣٤٥.

يفدوا أنفسهم، فأجابهم إلى ذلك وصالحهم على نيف وعشرين ألف ألف (مليون).[1]

ثم غزا سلم سمرقند، ووجه جيشاً إلى خجندة، لكنه هزم. أما سمرقند فقد صالح أهلها على مال كثير.

وأما سجستان فقد سار إليها يزيد بن زياد في جيش كبير، حيث جرى قتال عنيف هزم فيه المسلمون وقتل منهم عدد كبير.

٧ - بيعة مروان بن الحكم ومعركة مرج راهط

في السنة الرابعة والستين، وبعد وفاة الخليفة معاوية بن يزيد، بويع بالخلافة مروان بن الحكم بصفته كبير قريش. وكان مروان يريد مبايعة ابن الزبير إلى أن أقنعه عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير بتوليها بنفسه. وكان أهل الشام قد بايعوا الضحاك ابن قيس الذي رغب أيضاً بمبايعة ابن الزبير.

كتب ابن كثير عن ظروف مبايعة مروان:[2]

«وكان سبب ذلك أن حصين بن نمير لما رجع من أرض الحجاز وارتحل عبيد الله ابن زياد من البصرة إلى الشام، وانتقلت بنو أمية من المدينة إلى الشام، اجتمعوا إلى مروان بن الحكم بعد موت معاوية بن يزيد. وقد كان معاوية بن يزيد قد عزم على أن يبايع لابن الزبير بدمشق، وقد بايع أهلها الضحاك بن قيس عل أن يصلح بينهم ويقيم لهم أمرهم حتى يجتمع الناس على إمام. والضحاك يريد أن يبايع لابن الزبير، وقد بايع لابن الزبير النعمان بن بشير بحمص، وبايع له زفر بن عبد الله الكلابي بقنسرين، وبايع له نائل بن قيس بفلسطين، وأخرج منها روح بن زنباع الجذامي. فلم يزل عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير بمروان بن الحكم يحسّنون له أن يتولّى حتى ثنوه عن رأيه وحذروه من دخول سلطان ابن

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص٤٤٥.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ٨، ص٢٤٨-٢٤٩.

الزبير وملكه إلى الشام. وقالوا له: أنت شيخ قريش وسيدها، فأنت أحق بهذا الأمر، فرجع عن البيعة لابن الزبير، وخاف ابن زياد الهلاك إن تولى غير بني أمية. فعند ذلك التف هؤلاء كلهم مع قومه بني أمية ومع أهل اليمن على مروان، فوافقهم عل ما أرادوا وجعل يقول ما فات شيء.

وكتب حسان بن مالك بن بحدل الكلبي إلى الضحاك بن قيس يثنيه عن المبايعة لابن الزبير، ويعرفه أيادي بني أمية عنده وإحسانهم إليه، ويذكر فضلهم وشرفهم. وقد بايع حسان بن مالك أهل الأردن لبني أمية، وهو يدعو إلى ابن أخته خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان. وبعث إلى الضحاك كتاباً بذلك، وأمره أن يقرأ كتاب على أهل دمشق يوم الجمعة على المنبر. وبعث بالكتاب مع رجل يقال له ناغضة بن كريب الطابجي، وقيل هو من بني كلب وقال له: إن لم يقرأه هو على الناس فاقرأه أنت.

فأعطاه الكتاب فسار إلى الضحاك فأمره بقراءة الكتاب فلم يقبل، فقام ناغضة فقرأه على الناس فصدّقه جماعة من أمراء الناس، وكذّبه آخرون. وثارت فتنة عظيمة بين الناس، فقام خالد بن يزيد بن معاوية وهو شاب حدَّث على درجتين من المنبر فسكن الناس. ونزل الضحاك فصلّى بالناس الجمعة. وأمر الضحاك بن قيس بأولئك الذين صدّقوا ناغضة أن يسجنوا، فثارت قبائلهم فأخرجوهم من السجن. واضطرب أهل دمشق في ابن الزبير وبني أمية، وكان اجتماع الناس لذلك ووقوفهم بعد صلاة الجمعة بباب جيرون «فسمي هذا اليوم يوم جيرون».

قال المدائني: وقد أراد الناس الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أن يتولى عليهم فأبى، وهلك في تلك الليالي. ثم إن الضحاك بن قيس صعد منبر المسجد الجامع فخطبهم به، ونال من يزيد بن معاوية. فقام إليه شاب من بني كلب فضربه بعصا كانت معه، والناس جلوس متقلدي سيوفهم، فقام بعضهم إلى بعض فاقتتلوا في المسجد قتالاً شديداً. فقيس ومن لفّ لفيفها يدعون إلى ابن الزبير وينصرون الضحاك بن قيس، وبنو كلب يدعون إلى بني أمية، إلى البيعة لخالد بن يزيد بن معاوية، ويتعصبون ليزيد وأهل

بيته. فنهض الضحاك بن قيس فدخل دار الإمارة وأغلق الباب ولم يخرج إلى الناس إلاّ يوم السبت لصلاة الفجر.

ثم أرسل إلى بني أمية فجمعهم إليه فدخلوا عليه وفيهم مروان بن الحكم، وعمرو ابن سعيد بن العاص، وخالد وعبد الله ابنا يزيد بن معاوية. قال المدائني: فاعتذر إليهم مما كان منه، واتفق معهم أن يركب معهم إلى حسان بن مالك الكلبي فيتفقوا على رجل يرتضونه من بني أمية للإمارة، فركبوا جميعاً إليه.

فبينما هم يسيرون إلى الجابية لقصد حسان، إذ جاء معن بن ثور بن الأخنس في قومه قيس، فقال له: إنك دعوتنا إلى بيعة ابن الزبير فأجبناك، وأنت الآن ذاهب إلى هذا الأعرابي ليستخلف ابن أخته خالد بن يزيد بن معاوية. فقال له الضحاك: وما الرأي؟ قال: الرأي أن نظهر ما كنا نُسِرّ، وأن ندعو إلى طاعة ابن الزبير ونقاتل عليها من أباها. فمال الضحاك بمن معه فرجع إلى دمشق، فأقام بها بمن معه من الجيش من قيس ومن لف لفيفها. وبعث إلى أمراء الأجناد وبايع الناس لابن الزبير، وكتب بذلك إلى ابن الزبير يعلمه بذلك، فذكره ابن الزبير لأهل مكة وشكره على صنيعه، وكتب إليه بنيابة الشام، وقيل بل بايع لنفسه بالخلافة فالله أعلم أي ذلك كان».

وهكذا بايع بنو أمية مروان بن الحكم لثلاث خَلَوْن من ذي القعدة السنة أربع وستين للهجرة، فأصبح الصراع واقعاً بينه وبين الضحاك.

أ - وقعة مرج راهط:

كتب ابن الأثير مفصلاً ظروف ومجرى معركة مرج راهط:(١)

«ثم إن مروان لما بايعه الناس سار من الجابية إلى مرج راهط وبه الضحاك بن قيس ومعه ألف فارس. وكان قد استمد الضحاك النعمان بن بشير وهو على حمص فأمده بشرحبيل بن ذي الكلاع، واستمد أيضاً زفر بن الحرث، وهو على قنسرين، فأمده بأهل قنسرين، وأمده بأهل فلسطين فاجتمعوا

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٤٨٠-٤٨١.

عنده. واجتمع على مروان كلب، وغسان، والسكاسك، والسكون، وجعل على ميمنته عمرو بن سعيد، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد. وكان يزيد بن أبي الغمس الغساني مختفياً بدمشق لم يشهد الجابية فغلب على دمشق وأخرج عامل الضحاك بن قيس. وغلب على الخزائن وبيت المال وبايع لمروان وأمده بالأموال والرجال والسلاح، فكان أول فتح على بني أمية. وتحارب مروان والضحاك بمرج راهط عشرين ليلة واقتتلوا قتالاً شديداً فقتل الضحاك. قتله دحية بن عبد الله وقتل معه ثمانون رجلاً من أشراف أهل الشام. وقتل أهل الشام مقتلة عظيمة، وقتلت قيس مقتلة لم يقتل مثلها في موطن قط. وكان فيمن قتل هانئ بن قبيصة النميري سيد قومه كان مع الضحاك قتله وازع بن ذؤالة الكلبي».

وكان مروان قد جعل على ميمنته عبيد الله بن زياد، وعلى ميسرته عمراً بن سعيد بن العاص. أما الضحاك فقد أمده النعمان بن بشير بأهل حمص وعليهم شرحبيل بن ذي الكلاع. وركب إليه زفر بن الحارث الكلابي في أهل قنسرين فأصبح في ثلاثين ألفاً.

وجعل الضحاك على ميمنته زياداً بن عمرو العقيلي، وعلى ميسرته زكريا بن شمر الهلالي.

وبعد أن تقاتل الجمعان مدة عشرين يوماً، أشار عبيد الله على مروان بأن يدعوهم إلى الموادعة كخديعة، فنودي في الناس بذلك. ثم غدر أصحاب مروان فمالوا يقاتلونهم قتالاً شديداً، وصبر الضحاك صبراً بليغاً إلى أن قتل في المعركة.

وبعد المعركة نادى مروان: «لا تتبعوا مدبراً».[1]

وكانت وقعة مرج راهط في المحرم السنة خمس وستين.

ولما انهزم الناس في المرج لحقوا بأجنادهم، فذهب أهل حمص إلى بلدهم وعليهم النعمان بن بشير قبل أن يقتله عمرو بن الجلي الكلاعي. ولما بلغت الهزيمة زفراً بن الحارث بقنسرين هرب منها إلى

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٢٥١.

قرقيسيا. وهرب ناتل بن قيس الجذامي من فلسطين إلى مكة حيث التحق بابن الزبير.[١]

ب - الدروس والعبر:

١ - كانت البيعة بالخلافة قد تحققت لعبد الله بن الزبير عندما عمل عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير على إقناع مروان بن الحكم بطلبها لنفسها بصفته كبير بني أمية، وخوفاً من تحكم ابن الزبير بمقاليد الخلافة وعزلهما من قبله.

وهكذا غيّر واليان مجرى التاريخ الأموي حفاظاً على مصالحهما الخاصة، فبايع بنو أمية مروان بن الحكم وبقيت الخلافة فيهم، لكنها انتقلت إلى الفرع المرواني.

٢ - أحسن كل من القائدين المتحاربين في مرج راهط تطبيق استراتيجية حشد القوى، كل منهما من المؤيدين له في الأمصار. وبعد أن نشب قتال طيلة عشرين يوم، استغل مروان الخدعة مدعياً وقف القتال. ثم غدر بالضحاك فشن عليه هجوماً صاعقاً أنهى المعركة لمصلحته.

٨ - عصيان الجراجمة في جبل لبنان

في السنة التاسعة والستين للهجرة ثار الجراجمة في جبل اللكام[٢] وامتدت ثورتهم إلى جبل لبنان فأرسل عبد الملك جيشاً لقتالهم وقتال من أعانهم من البيزنطيين.

كتب ابن الأثير عن هذه الحملة ما يلي:[٣]

«خرج أيضاً قائد من قواد الضواحي في جبل اللكام، واتبعه خلق كثير من الجراجمة، والأنباط، وأباق عبيد المسلمين، وغيرهم، ثم سار إلى لبنان. فلما فرغ عبد الملك من عمرو أرسل إلى هذا

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص٤٨١.

(٢) جبل اللكام: جبل على الحدود السورية التركية.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٣، ص٩٥-١٠٣.

الخارج عليه، فبذل له كل جمعة ألف دينار، فركن إلى ذلك ولم يفسد في البلاد. ثم وضع عليه عبد الملك سحيم بن المهاجر، فتلطف حتى وصل إليه متنكراً، فأظهر له ممالأته، وذم عبد الملك وشتمه، ووعده أن يدله على عوراته وما هو خير له من الصلح، فوثق إليه. ثم إن سحيماً عطف عليه وعلى أصحابه وهم غارّون غافلون بجيش مع موالي عبد الملك، وبني أمية، وجند من ثقات جنده وشجعانهم كان أعدهم بمكان خفيّ قريب. وأمر فنودي: من أتانا من العبيد (يعني الذين كانوا معه) فهو حر ويثبت في الديوان، فانقضّ إليه كثير منهم، فكانوا ممن قاتل معه فقتل الخارج، ومن أعانه من الروم. وقتل نفر من الجراجمة والأنباط، ونادى المنادي بالأمان فيمن بقي منهم، فتفرقوا في قراهم، وسد الخلل، وعاد إلى عبد الملك، ووفى للعبيد».

- الدروس والعبر:

امتدّت ثورة الجراجمة من جبل اللكام إلى جبل لبنان فشارك فيها جراجمته. ولما كان عبد الملك بن مروان منصرفاً إلى إخضاع الثورات التي قامت ضده، أرضى هؤلاء بأن دفع ألف دينار أسبوعياً لقائدهم.

وما يلفت المراقب في هذا الخبر أن الخليفة القوي عبد الملك بذل أموالاً للجراجمة لإنهاء تمردهم، وذلك بانتظار الفرصة المناسبة لإعادة إخضاعهم لسلطته. وقد تحققت هذه الفرصة عندما تم الاتفاق بينه وبين الإمبراطور البيزنطي يوستنيانوس الأخرم على إنهاء تمرد الجراجمة. وقد رفض جراجمة جبل لبنان يومذاك الانصياع إلى أوامر الإمبراطور وتمردوا عليه فلقبوا بـ «المردة».

٩ - القتال بين قيس وتغلب

في السنة السبعين للهجرة استحكم الشر بين قيس وتغلب فجرى قتال بينهما فصّله ابن الأثير كما يلي:[١]

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه.

أ - يوم ماكسين:[1]

كان على قيس عُمير بن الحبّاب، وعلى تغلب شُعيث، فغزا عمير بني تغلب بماكسين فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكانت أول وقعة لهم. فقتل من بني تغلب خمسمائة رجل.

ب - يوم الثرثار الأول:[2]

استمدت تغلب أنصارها وحشدت حشودها فأتاها النّمِر بن قاسط والمشجّر بن الحرث الشيباني وعبيد الله بن زياد بن ظبيان. واستنجدت قيس تميماً وأسداً فلم ينجدها أحد منهما.

التقى الجمعان على الثرثار، وكان قائد تغلب زياداً بن هوبر.

واقتتل الجمعان قتالاً شديداً، فانهزمت قيس وقتل منها مقتلة عظيمة منهم ثلاثون امرأة.

ج - يوم الثرثار الثاني:

ثم إن قيساً تجمعت واستمدت أنصارها، فجاءها زفر بن الحرث من قرقيسيا. والتقى الجمعان بالثرثار فاقتتلا أشدّ قتال فانهزمت بنو عامر وكانت على مجنبة قيس، وصبرت سُليم وقيس حتى انهزمت تغلب ومن معها وقتل كثيرون من أشرافها.

د - يوم الغُدَيْن:[3]

أغارت قيس بقيادة عُمير بن الحباب على الغرين، وهي قرية على الخابور، فقتلت من بها من بني تغلب.

هـ - يوم السُّكَير:[4]

السُّكير قرية على الخابور تدعى سُكير العباس، اجتمعت عليها قيس وتغلب واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزمت تغلب.

و - يوم المعارك:[5]

اجتمعت تغلب في المعارك بين الحضر والعتيق، والتقت قيساً فاقتتلوا أشد قتال، فانهزمت تغلب.

---

(١) ماكسين: بلد بالخابور.
(٢) الثرثار: نهر ينبع من شرقي مدينة سنجار.
(٣) الغُدين: بين قرقيسيا وماكسين.
(٤) السكير: تصغير السكر.
(٥) المعارك: في الموصل.

ز - يوم الشرعبية:[1]

ثم التقوا بالشرعبية فكان بينهم قتال شديد انتصرت خلاله تغلب.

ح - يوم البُليخ:[2]

اقتتلت تغلب وقيس على البليخ فانهزمت تغلب وكثر القتل فيها، وبقرت بطون النساء.

ط - يوم الحَشَّاك:[3]

جمعت تغلب حاضرتها وباديتها وسارت إلى الحشاك حيث التقت بقيس، فاقتتل الجمعان قتالاً شديداً حتى جنّ الليل، ثم تفرقوا. ثم اقتتلوا في اليوم الثاني إلى الليل.

وصف ابن الأثير قتال اليوم الثالث الذي انهزمت فيه قيس، فكتب:[4]

«وأصبحت تغلب في اليوم الثالث فتعاقدوا أن لا يفروا. فلما رأى عُمَيْر جدّهم وأن نساءهم معهم قال لقيس: «يا قوم أرى لكم أن تنصرفوا عن هؤلاء فإنهم مستقتلون، فإذا اطمأنوا وساروا إلى سرحهم وجَّهْنا إلى كلّ قوم منهم من يغير عليهم». فقال له عبد العزيز بن حاتم بن النعمان الباهلي: «قتلت فرسان قيس أمس وأول أمس ثم ملى سَحْرَك وجَبُنْتَ»، ويقال: إن عُيَيْنَة بن أسماء بن خارجة الفَزاري قال له ذلك، وكان أتاه منجداً، فغضب عُمَيْر وقال: «كأني بك وقد حمي الوغى أوّل فار». فنزل عُمير وجعل يقاتل راجلاً.

وانهزم زُفَر يومئذ، وهو اليوم الثالث، فلحق بقَرقيسيا. وذلك أنه بلغه أن عبد الملك بن مروان قد عزم على الحركة إليه بقرقيسيا فبادر للتأهب، وقيل: إنه ادّعى ذلك حين فرّ اعتذاراً. وانهزمت قيس، وركبت تغلب ومن معها أكتافهم، وهم يقولون: أَمَا تعلمون أن تغلب تغلِبُ. وشد على عُمَيْر جميلُ بن قيس من بني كَعْب بن زُهير فقتله، وقيل: بل تقاوى على عمير

---

(١) الشرعبية: من بلاد تغلب.

(٢) البليخ: نهر بين حرّان والرقة.

(٣) الحشاك: تل قريب من الشرعبية. .

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٩٨-٩٩.

غلامان من بني تغلب فرمياه بالحجارة وقد أعيياه فأثخناه، وكرّ عليه ابن هوبر فقتله. وأصابت ابن هوبر يومئذ جراح، فلما انقضت الحرب أوصى بني تغلب بأن يَولّوا أمرهم مراد بن عَلْقَمة الزُّهيريّ. وقيل: خرج ابن هوبر في اليوم الثاني من أيامهم هذه الثلاثة وأوصى أنهم يولّون أمرهم مراداً ومات من ليلته. وكان مراد رئيسهم في اليوم الثالث، فعبأهم على راياتهم، وأمر كل بني تغلب أن يجعلوا نساءهم خلفهم، فلما أبصرهم عمير قال ما تقدم ذِكْره».

وكثر القتل في بني سليم وغني قيس.

ي - يوم الكحيل:[1]

وجهت قيس خيلاً إلى أحد بطون تغلب، ويدعى «بنو فدوكس»، فقتلوا رجالهم واستباحوا أموالهم ونساءهم. كما أرسل زفر بن الحارث من قيس ابنه الهذيل في جيش إلى بني كعب بن زهير فقتل العديد منهم. ثم قصد زفر بني تغلب، وقد اجتمعوا في العقيق من أرض الموصل، فاقتتل الجانبان قتالاً شديداً فانهزمت تغلب وقتل كثيرون منهم وبقرت بطون نساء منهم وغرق في دجلة أكثر ممن قتل بالسيف، وأسر منهم زفر مائتين فقتلهم جميعاً.

ك - يوم البشر:

جمع الجحاف بن حكيم السليمي ثلاثمائة مقاتل من سُليم وسار ليلاً حتى أصبح على ماء لبني جُشَم بن بكر من تغلب، فوجد عليه جماعة كبيرة منهم، فقتل فيهم مقتلة عظيمة. وأسرف الجحاف في القتل وبقر بطون الحبالى من النساء.

اشتكى الأخطل إلى عبد الملك، فهرب الجحاف إلى بلاد الروم، ثم أمنّه عبد الملك فقدم إليه، فألزمه دفع ديات من قتل.

وقيل إن الجحاف كان قد هزم إحدى صوائف المسلمين عندما كان في بلاد الروم.[2]

---

(١) الكحيل: أرض بالموصل إلى جانب دجلة الغربي.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص١٠٣.

ل - الدروس والعبر:

في السنة السبعين للهجرة بدأت حرب بين قيس وتغلب فاقتتلتا في وقائع عديدة دعيت بأيام مكسين والثرثار والمشاق والكحيل والبشر وغيرها، كما كانت الوقائع تدعى أيام الجاهلية بـ «الأيام».

ونحن نرى أن في هذا القتال عودٌ إلى أيام الجاهلية وإلى مفاهيم العصبية القبلية التي كان النبي ﷺ قد عمل على استبدالها بعصبية الدين، فحلّ مفهوم الجهاد في سبيل الدين مكان الصراعات القبلية الضيقة.

إنما، ورغم هذا التغيير، رافقت الخلافات القبائل العربية التي اعتنقت الإسلام في مسيرتها الطويلة، وكان لها تأثير سلبي على نتائج بعض المعارك. فالصراع القيسي اليمني لم يختفِ تماماً من التاريخ العربي خلال العصور الإسلامية، بل انتقل مع القبائل إلى مختلف الأصقاع التي سيطرت عليها الجيوش العربية وصولاً إلى الأندلس حيث جرت صراعات بين الجانبين. كما وصل لبنان حيث رافق الصراع القيسي - اليمني مسيرة أمراء الجبل، وانتهى في معركة عين داره التي انتصر فيها الحزب القيسي بقيادة الأمير حيدر الشهابي سنة ١٧١١م.

في قتال يوم الحشاك، ولما رأى رئيس قيس أن تغلب مصمّمة على الانتصار إذ أن مقاتليها اصطحبوا معهم نساءهم إلى ميدان المعركة، نصح قبيلته بتأجيل القتال إلى يوم آخر. إلاّ أنهم لم يقبلوا نصيحته فخسروا المعركة التي خاضتها قيس بعزم وتصميم مطبِّقة مبدأ الحرب الثالث أي الحصيل الأقصى للوسائل أفضل تطبيق.

١٠ - غزو بلاد الترك

كان رتبيل ملك الترك قد صالح المسلمين بعد غزوهم بلاده، وكان يؤدي لهم الخراج. فلما ولّى الحجاج عبيد الله بن أبي بكرة سجستان أمره في السنة التاسعة والسبعين للهجرة بغزو بلاد رتبيل واستباحتها وهدم قلاعها وتقييد رجالها. (٢)

---

(١) في الطبري وابن كثير، جمهور.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص٣٢.

كتب الطبري عن تفاصيل الحملة على بلاد الترك:[1]

«فبعث الحجّاج إلى عُبيد الله بن أبي بكْرة أنْ ناجزْه بمن معك من المسلمين فلا ترجع حتى تستبيحَ أرضه، وتهدِم قِلاعَه، وتقتُل مُقاتلته، وتَسبيَ ذُرِّيته. فخرج بمن معه من المسلمين من أهل الكوفة وأهل البصرة، وكان على أهل الكوفة شُرَيح بن هانئ الحارثيّ ثم الضبابي، وكان من أصحاب علي. وكان عُبيد الله على أهل البصرة، وهو أمير الجماعة، فمضى حتى وَغَل في بلاد رُتْبيل، فأصاب من البقر والغنم والأموال ما شاء وهدَّم قلاعاً وحُصوناً. وغلب على أرض من أرضهم كثيرة، وأصحاب رُتْبيل من الترك يخلون لهم عن أرض بعد أرض، حتى أمعنوا في بلادهم ودَنوا من مدينتهم، وكانوا منها ثمانية عشر فرسخاً، فأخذوا على المسلمين العقابَ والشِّعاب، وخلّوهم والرَّساتيق، فسُقط في أيدي المسلمين، وظنوا أنْ قد هلكوا.

فبعث ابن أبي بَكْرة إلى شُرَيح بن هانئ: إنّي مصالح القوم على أن أعطِيَهم مالاً، ويخلّوا بيني وبين الخروج، فأرسل إليهم فصالحهم على سبعمائة ألف درهم. فلقيه شُريح فقال: إنك لا تصالح على شيء إلاّ حَسبه السلطان عليكم في أعطياتِكم، قال: لو مُنعنا العطاء ما حَيينا كان أهوَن علينا من هلاكنا. قال شُريح: والله لقد بلغتُ سِنّا، وقد هلكتْ لِدَاتي، ما تأتي إليَّ ساعة من ليل أو نهار فأظنّها تمضي حتى أموت. ولقد كنت أطلب الشهادة منذ زمان، ولئن فاتتني اليومَ ما أخالني مُدْرِكها حتى أموت. وقال: يا أهل الإسلام تعاونوا على عدوّكم. فقال له ابنُ أبي بَكْرة: إنك شيخ قد خَرِفْتَ. فقال شريح: إنما حسبك أن يقال: بُستان ابن أبي بكْرة وحَمام ابن أبي بكْرة، يا أهل الإسلام، من أراد منكم الشهادة فإليَّ. فاتبعه ناس من المتطوّعة غير كثير، وفرسان الناس وأهل الحِفاظ، فقاتلوا حتى أصيبوا إلاّ قليلاً.

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص٦١٤-٦١٥.

فقاتل حتى قُتِل في ناس من أصحابه، ونجا من نجا، فخرجوا من بلاد رُتْبيل.»

١١ – غزوة المهلب ما وراء النهر

في السنة الثمانين للهجرة اجتاز المهلب بن أبي صفرة نهر بلخ إلى كش، وعلى مقدمته أبو الأدهم الزماني في ثلاثة آلاف مقاتل، فيما كان المهلب في خمسة آلاف غيرهم.(١)

أرسل المهلب ابنه يزيداً لغزو ملك «الختل»، واسمه الشبل، فصالحه يزيد على فدية حملت إليه.

كما أرسل المهلب ابنه حبيباً في أربعة آلاف إلى إحدى القرى التابعة لملك الختل فقتل من فيها وأحرقها فسميت «المحترقة».(٢)

وبقي المهلب سنتين في كش وصالح أهلها على فدية أخذها منهم.

الدروس والعبر:

- اعتمد الحجاج بن يوسف في العراق سياسة تسيير الحملات إلى بلاد الترك بهدف إبعاد المقاتلين من أهل الكوفة والبصرة عن مدينتيهم خوفاً من قيامهم بثورات ضده وضد الحكم الأموي وذلك بسبب عدم ثقته بهم.

إلاّ أن هذه البعثات والحملات تعدّت هذا المفهوم فأعطى بعضها نتائج عسكرية إيجابية دفعت بملك الترك رتبيل إلى دفع الجزية للمسلمين.

- ففي عهد الخليفة عبد الملك بن مروان كانت أوضاع الدولة الأموية قد استقرّت داخلياً وتسلّم ولاية العراق الحجاج الذي اعتبر أحد أقوى وأبرز الولاة الذين عرفتهم هذه الدولة خلال تاريخها. وهكذا انصرف المسلمون إلى تسيير الحملات إلى الخارج لفتح البلاد المجاورة، فغزت جيوشهم بلاد الملك رتبيل وما وراء النهر وسجستان وبلاد الروم.

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٦١٦.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص١٩٢.

- خلال الحملة إلى سجستان أحسن الحجاج تطبيق استراتيجيات جمع القوى وتعبئتها وحشدها وتعزيزها بالسلاح ووسائل النقل وتعيين أحد أبرز القادة العرب لقيادتها، وهو ابن الأشعث.

وطبّق ابن الأشعث استراتيجية تنظيف المناطق التي يجتازها جيشه من العدو، وحماية المدن والحصون المفتتحة، قبل التوغل في بلاد الترك. وذلك بهدف حماية مؤخرة جيشه وعدم الوقوع في الكمائن والتعرض للمفاجآت خلال قتاله مع ملك الترك رتبيل محققاً بنجاح مبدأ الحرب الثاني أي حرية العمل.

لكن الحجاج رفض هذه الاستراتيجية كونه كان يرغب بإبعاد مقاتلي البصرة والكوفة عن بلادهم خوفاً من ثورتهم ضده، الأمر الذي حصل فعلاً. فعندما كتب إلى ابن الأشعث موبّخاً على التباطؤ في العمليات الهجومية، ثار هذا الأخير عليه وعاد بجيشه إلى العراق.

وهكذا، أخطأ الحجاج في التقدير ولم يحسن تطبيق مبادئ علم النفس العسكري.

١٢ - حملة ابن الأشعث إلى سجستان

وفي السنة الثمانين أيضاً، استأذن الحجاج عبد الملك في إرسال حملة إلى بلاد الترك للاقتصاص من ملكها رتبيل، فأذن له الخليفة. أخذ الحجاج في تجهيز الجيش، فجند عشرين ألفاً من الكوفة وعشرين ألفاً من البصرة، وعززهم بالخيل والسلاح الكامل، وعيّن قائداً لهذا الجيش عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث.[١]

نقل ابن كثير رواية عن حملة ابن الأشعث، فكتب:

«فسار ابن الأشعث بالجيوش نحو أرض رتبيل. فلما بلغ رتبيل مجيء ابن الأشعث بالجنود إليه كتب إليه رتبيل يعتذر مما أصاب المسلمين في بلاده في السنة الماضية، وأنه كان لذلك كارهاً، وأن المسلمين هم الذين ألجؤوه إلى قتالهم. وسأل من ابن الأشعث أن يصالحه وأن

(١) ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب المصري، القاهرة ١٩٩٩، جزء ٥، ص١٠٥.

يبذل للمسلمين الخراج، فلم يجبه ابن الأشعث إلى ذلك، وصمم على دخول بلاده. وجمع رتبيل جنوده وتهيّأ للحرب. وجعل ابن الأشعث، كلما دخل بلداً أو مدينة أو أخذ قلعة من بلاد رتبيل استعمل عليها نائباً من جهته يحفظها له. وجعل المشايخ على كل أرض ومكان مخوف، فاستحوذ على بلاد ومدن كثيرة من بلاد رتبيل، وغنم أموالاً كثيرة جزيلة، وسبى خلقاً كثيرة. ثم حبس الناس عن التوغل في بلاد رتبيل حتى يصلحوا ما بأيديهم من البلاد، ويتقووا بما فيها من المغلات والحواصل، ثم يتقدمون في العام المقبل إلى أعدائهم، فلا يزالون يجوزون الأراضي والأقاليم حتى يحاصروا رتبيل وجنوده في مدينتهم مدينة العظماء على الكنوز والأموال والذراري حتى يغنموها ثم يقتلون مقاتلتهم. وعزموا على ذلك، وكان هذا هو الرأي، وكتب ابن الأشعث إلى الحجاج يخبره بما وقع من الفتح وما صنع الله لهم، وبهذا الرأي الذي رآه لهم».

لما وصل كتاب ابن الأشعث إلى الحجاج كتب إليه هذا الأخير يوبخه ويأمره بمتابعة القتال، إلاّ أنه لم يفعل، بل ثار عليه[1].

١٣ - دخول الديلم قزوين

كانت قزوين تشكل أحد ثغور المسلمين من ناحية الديلم، وكان المقاتلون يحرسون المدينة ليلاً نهاراً ويبقون أبوابها مغلقة خوفاً من مهاجمتها من قبل الديلم.

إنما، وفي السنة الحادية والثمانين، حصلت حادثة جعلت الديلم يأتون المدينة غازين، لخّصها ابن الأثير، فكتب:[2]

«كانت قزوين ثغر المسلمين من ناحية الديلم، فكانت العساكر لا تبرح مرابطة بها يتحارسون ليلاً ونهاراً. فلما كانت هذه السنة كان في جماعة من رابط بها محمد بن أبي سبرة الجعفي، وكان فارساً شجاعاً عظيم

---

(١) انظر تفاصيل ثورة ابن الأشعث في الجزء الثامن من هذه الموسوعة.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص١٩٧.

الغناء في حروبه. فلما قدم قزوين رأى الناس يتحارسون فلا ينامون الليل فقال لهم: أتخافون أن يدخل عليكم العدو مدينتكم؟ قالوا: نعم. قال: لقد أنصفوكم إن فعلوا افتحوا الأبواب ولا بأس عليكم، ففتحوها.

وبلغ ذلك الديلم فساروا إليهم وبيتوهم وهجموا إلى البلد وتصايح الناس، فقال ابن أبي سبرة: أغلقوا أبواب المدينة علينا وعليهم فقد أنصفونا، وقاتلوهم؛ فأغلقوا الأبواب وقاتلوهم وأبلى ابن أبي سبرة بلاءً عظيماً، وظفر بهم المسلمون فلم يفلت من الديلم أحد واشتهر اسمه بذلك. ولم يعد الديلم بعدها يُقدِمون على مفارقة أرضهم، فصار محمد فارس ذلك الثغر المشار إليه، وكان يدمن شرب الخمر. وبقي كذلك إلى أيام عمر بن عبد العزيز، فأمر بتسييره إلى زرارة، وهي دار الفساق بالكوفة. فسيّر إليها فأغارت الديلم ونالت من المسلمين وظهر الخلل بعده، فكتبوا إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن أمير الكوفة يسألونه أن يرد عليهم ابن أبي سبرة، فكتب بذلك إلى عمر فأذن له في عوده إلى الثغر فعاد إليه وحماه».

١٤ – فتح المصيصة وقلعة نيزك:

وفي السنة الرابعة والثمانين للهجرة كانت غزوة عبد الله بن عبد الملك بن مروان لبلاد الروم فتح خلالها مدينة المصيصة.(١)

وفي نفس السنة غزا يزيد بن المهلب قلعة «نيزك» التي كان قد وضع عليها العيون، فلما بلغه خروج صاحبها عنها، سار إليها وحاصرها وفتحها، فقتل كثيرين وأسر آخرين ولحقت طائفة منهم برؤوس الجبال والأودية، فكتب بذلك إلى الحجاج.(٢)

وفي السنة نفسها غزا محمد بن مروان أرمينيا، فقتل منهم خلقاً كثيراً وأحرق بعض ضياعهم، فسميت هذه السنة «سنة الحريق».(٣)

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص٦٥٠.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٢٢٤.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص٥٩.

ملحق رقم ١
سيرة الضحّاك بن قيس

كان الضحّاك بن قيس بن خالد الأكبر بن وهب بن ثعلبة بن وائلة بن عمرو بن شيبان بن محارب بن فهر بن مالك، أبو أنيس الفهري أحد الصحابة على الصحيح. وقد سمع من النبي ﷺ وروى عنه أحاديث عدة، وروت عنه جماعة من التابعين. وهو أخو فاطمة بنت قيس وكانت أكبر منه بعشر سنين، وكان أبو عبيدة بن الجراح عمه.

وزعم بعضهم أنه لا صحبة له، وقال الواقدي: أدرك النبي ﷺ وسمع منه قبل البلوغ. وفي رواية عن الواقدي أنه قال: ولد الضحاك قبل وفاة النبي ﷺ بسنتين وكان ممن شهد فتح دمشق وسكنها وله بها دار عند حجر الذهب مما يلي نهر بردى. وكان أميراً على أهل دمشق يوم صفين مع معاوية، ولما أخذ معاوية الكوفة استنابه بها في سنة أربع وخمسين.

ثم استنابه معاوية عنده على دمشق فلم يزل عنده حتى مات معاوية وتولى ابنه يزيد، ثم ابن ابنه معاوية بن يزيد؟

وقد قال الإمام أحمد: حدّثنا عفان بن مسلم حدّثنا حماد بن سلمة أنبأنا علي بن زيد عن الحسن أن الضحاك بن قيس كتب إلى الهيثم حين مات يزيد بن معاوية: السلام عليك أما بعد فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ فتناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، فتَناً كَقِطَعِ الدُّخَانِ، يَمُوتُ فِيها قَلْبُ الرَّجُلِ كَما يَمُوتُ بَدَنُهُ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً وَيُمْسِي كَافِراً، وَيُمْسِي مُؤْمِناً وَيُصْبِحُ كَافِراً. يَبيعُ أَقْوامٌ أَخْلاقَهُمْ وَدِينَهُم بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيا قَليل»، وإن يزيد بن

معاوية قد مات وأنتم إخواننا وأشقاؤنا فلا تسبقونا حتى نحتال لأنفسنا. وقد روى الحافظ ابن عساكر من طريق ابن قتيبة عن العباس بن الفرج الرياشي عن يعقوب بن إسحاق بن ثوبة عن حماد بن زيد. قال: دخل الضحّاك بن قيس على معاوية فقال معاوية منشداً له بالطويل:

تَطَاوَلَتْ لِلضَّحَّاكِ حَتَّى رَدَدْتَهُ
إِلَى حَسَبٍ فِي قَوْمِهِ مُتَقَاصِرِ

فقال الضحّاك: قد علم قومنا أنا أحلاس الخيل، فقال: صدقت، أنتم أحلاسها ونحن فرسانها. يريد معاوية أنتم راضة وساسة، ونحن الفرسان. ورأى أن أصل الكلمة من الحلس وهو كساء يكون تحت البرذعة أي إنه لازم ظهر الفرس كما يلزم الحلس ظهر البعير والدابة. وروي أن مؤذّن دمشق قال للضحاك بن قيس: والله يا أيها الأمير إني لأحبك في الله. فقال له الضحاك: ولكنني والله أبغضك في الله. قال: ولم أصلحك الله؟ قال: لأنك تتراءى في أذانك وتأخذ على تعليمك أجراً.

قتل الضحّاك يوم مرج راهط للنصف من ذي الحجة سنة أربع وستين.

الفصل الثاني
الفتوحات في عهد الوليد بن عبد الملك

اعتبر عهد الوليد بن عبد الملك عهد القوة والفتوحات. ففيما انشغل والده بقمع الثورات التي هزّت دعائم الحكم الأموي وشغلت جيوش الدولة لسنين عدة، أصبح في إمكان الخليفة الجديد أن يوجه اهتمامه أكثر للسياسة الخارجية ويستأنف حركة الفتوحات على أوسع نطاق. وقد استطاع الوليد بالفعل أن يقطف ثمار الجهود الجبارة التي بذلها والده في سبيل استقرار الوضع وإعادة وحدة البلاد.

وفي عهد الخليفة الوليد أخذت العمليات العسكرية شكلاً منظماً على مختلف الجبهات. فعلى جبهة بلاد ما وراء النهر كان الحجاج قد عزل قائده المهلب بن أبي صفرة، ثم عزل ولديه يزيداً والفضل، وعيّن قتيبة بن مسلم الباهلي الذي قام بإنجازات كبرى على الجبهة الشرقية، فغزا الصغانيان وشومان وبخارى، وعبر نهر جيحون وقتل صاحب طخارستان الذي كان عدواً لدوداً للمسلمين.

ثم امتدت فتوحات قتيبة إلى مدن واحة خوارزم على دلتا نهر جيحون، وإلى الممالك الواقعة على نهر سيحون والمتاخمة لبلاد الترك، فغزا الشاش وفرغانة السنة ٩٥ هـ، ووصل إلى كاشغر على حدود الصين السنة ٩٦ هـ.

وفي الغرب بلغ المسلمون المحيط الأطلسي وسيطروا على شمال أفريقيا، بعد قتل الكاهنة الثائرة.[١] وولّى الوليد المغرب موسى بن نصير الذي أكمل في عهده تهدئته، وأكمل الفتوحات حتى المغرب الأقصى تمهيداً لفتح

---

(١) أنظر الكتاب رقم ٧ من هذه الموسوعة.

الأندلس التي افتتحها موسى بن نصير وقائده طارق بن زياد في عهد الوليد أيضاً.

في هذا الفصل سنتكلم عن الفتوحات في عهد الوليد على الجبهتين الشرقية والشمالية فقط، علماً أن الفتوحات على جبهة المغرب والأندلس سبق وعولجت في الجزء السابع من هذه الموسوعة.

١ - ولاية قتيبة على خراسان

في السنة السادسة والثمانين للهجرة عين الحجاج قتيبة بن مسلم الباهلي أميراً على خراسان، فكان لهذا القائد دور فاعل في الفتوحات التي جرت ما وراء النهر.

قدم قتيبة خراسان فخطب في الناس وحثّهم على الجهاد، وجعل بمرو أميراً على الحرب إياس بن عبد الله بن عمرو، وعلى الخراج عثمان السعدي.[١]

ولما وصل إلى الطالقان أتاه دهاقين بلخ وساروا معه، فاجتاز النهر وجاءه ملك الصفانيان بالهدايا ودعاه إلى بلاده، فمضى معه فسلمها إليه.

ثم سار قتيبة إلى «أخرون» و«شومان»، وهما من طخارستان، فصالحه ملكهما على فدية أداها إليه فقبلها، ثم عاد إلى مرو. واستخلف قتيبة على الجند أخاه صالحاً بن مسلم، ففتح هذا الأخير كاشان وأورشت من فرغانة، كما فتح «اخشيكت» أي فرغانة القديمة.[٢]

وفي هذه السنة، غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم.[٣]

وفي السنة السابعة والثمانين صالح قتيبة ملك شومان، وكتب إلى نيزك طرخان صاحب «باذغيس» وهدده، فصالحه نيزك على أن لا يدخل قتيبة بلاده.[٤]

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٢٤١.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٣٠.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص٦٧١.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٢٤٣-٢٤٤.

٢ - غزو مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم

وفي السنة السابعة والثمانين للهجرة غزا مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم، فقتل منهم عدداً كبيراً بسوسنة، وفتح حصوناً كثيرة، وغنم غنائم جمّة.[١]

كتب ابن كثير:[٢]

«ويقال إن الذي غزا بلاد الروم في هذه السنة هو هشام بن عبد الملك ففتح حصن بولق، وحصن الأخرم، وبحيرة الفرمسان، وحصن بولس وقميقم، وقتل من المستعربة نحواً من ألف وسبى ذراريهم».

٣ - غزوة قتيبة بيكند

وفي السنة نفسها نفّذ قتيبة حملة على بيكند نقل خبرها ابن الأثير الذي كتب:[٣]

«لما صالح قتيبة نيزك أقام إلى وقت الغزو فغزا بيكند سنة سبع وثمانين وهي أدنى مدائن بخارى إلى النهر. فلما نزل بهم استنصروا الصغد واستمدوا من حولهم، فأتوهم في جمع كثير وأخذوا الطرق على قتيبة، فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه خبر شهرين. وأبطأ خبره على الحجاج فأشفق على الجند فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد وهم يقتتلون كل يوم.

وكان لقتيبة عين من العجم يقال له تندر، فأعطاه أهل بخارى مالاً ليرد عنهم قتيبة، فأتاه فقال له سراً من الناس: إن الحجّاج قد عزل وقد أتى عامل إلى خراسان فلو رجعت بالناس كان أصلح. فأمر به فقتل خوفاً من أن يظهر الخبر فيهلك الناس. ثم أمر أصحابه بالجد في القتال فقاتلوا قتالاً شديداً فانهزم الكفار يريدون المدينة، وتبعهم المسلمون قتلاً وأسراً كيف شاءوا، وتحصّن من دخل المدينة بها. فوضع قتيبة الفعلة ليهدم سورها، فسألوه

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص٧٩.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٢٤٤-٢٤٥.

الصلح فصالحهم، واستعمل عليهم عاملاً وارتحل عنهم يريد الرجوع. فلما سار عنهم خمسة فراسخ نقضوا الصلح وقتلوا العامل ومن معه، فرجع قتيبة فنقّب سورهم فسقط فسألوه فلم يقبل. ودخلها عنوة وقتل من كان بها من المقاتلة. وكان فيمن أخذوا من المدينة رجل أعور، هو الذي استجاش الترك على المسلمين، فقال لقتيبة: أنا أفدي نفسي بخمسة آلاف حريرة قيمتها ألف ألف. فاستشار قتيبة الناس فقالوا: هذه زيادة في الغنائم وما عسى أن يبلغ كيد هذا. قال: لا والله لا يروع بك مسلم أبداً، فأمر به فقتل. وأصابوا فيها من الغنائم والسلاح وآنية الذهب والفضة ما لا يحصى ولا أصابوا بخراسان مثله فقوي المسلمون».

ورجع قتيبة إلى مرو، وقوي المسلمون، فاشتروا السلاح والخيل. وكان في الخزائن سلاح وعدة للحرب، فكتب قتيبة إلى الحجاج يستأذنه في توزيعها على المقاتلين، فأذن له، ففعل.

٤ - فتح حصن طوانة في بلاد الروم

في السنة الثامنة والثمانين للهجرة غزا مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك بلاد الروم وافتتحا بمن معهما من المسلمين حصن طوانة.(١)

وكان حصن طوانة منيعاً جداً، لذلك اقتتل الناس عنده قتالاً شديداً. ثم حمل المسلمون على الروم فهزموهم حتى أدخلوهم الحصن. ثم خرج الروم فحملوا على المسلمين فانهزم هؤلاء، ولم يبقَ أحد منهم في موقفه إلاّ العباس بن الوليد ومعه نفر فيهم ابن محيريز الجمحي. نادى العباس: «يا أهل القرآن»، فجاؤوه، فعاد المنهزمون من المسلمين وحملوا على الروم حملة قوية فهزموهم وطاردوهم حتى الحصن الذي حاصروه حتى فتحوه.(٢)

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص٦٧٦.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص٨٢.

٥ – غزوة قتيبة قرى بخارى

وفي السنة عينها غزا قتيبة بن مسلم قريتين من قرى بخارى، هما نومشكث ورامثنه، فصالحه أهلهما. ثم جرى قتال بينه وبين جيش من الترك لحق به خلال عودته إلى مرو فانتصر قتيبة في هذا القتال.

كتب الطبري عن هذه الغزوة وعن قتال الترك ما يلي:[١]

«ذكر علي بن محمد، أن المفضّل بن محمد أخبره عن أبيه ومصعب بن حيّان، عن مولى لهم أدرك ذلك، أن قتيبة غزا نومشكث في سنة ثمان وثمانين، واستخلف على مرو بشّار بن مسلم، فتلقّاه أهلها، فصالحهم، ثم صار إلى راميثنة فصالحه أهلها، فانصرف عنهم. وزحف إليه الترك، معهم السُّغْد وأهل فرغانة، فاعترضوا المسلمين في طريقهم، فلحقوا عبد الرحمن بن مسلم الباهلي وهو على الساقة، بينه وبين قتيبة وأوائل العسكر ميل، فلما قربوا منه أرسل رسولاً إلى قتيبة بخبره، وغشيه الترك فقاتلوه. وأتى الرسول قتيبة فرجع بالناس، فانتهى إلى عبد الرحمن وهو يقاتلهم، وقد كاد الترك يستعملونهم.

فلما رأى الناس قتيبة طابت أنفسهم فصبروا، وقاتلوهم إلى الظهر، وأبلى يومئذ نيزك وهو مع قتيبة. فهزم الله الترك، وفض جمعهم، ورجع قتيبة يريد مَرْو، وقطع النهر من التِّرْمذ يريد بلخ، ثم أتى مرو. وقال الباهليون: لقي الترك المسلمين عليهم كور مغانون التركي ابن أخت ملك الصين في مائتي ألف، فأظهر الله المسلمين عليهم».

وذكر ابن خلدون أن ملك الترك هو ابن أخت ملك الصين وأن اسمه «كُوربَعابور»، وأنه كان في مائتي ألف من المقاتلين.[٢] أما ابن الأثير فلم يذكر أي عدد لجيش الترك. لكن ابن كثير بدوره ذكر الرقم مائتي ألف أيضاً، كما ذكر أيضاً أن نيزك ملك الترك كان مأسوراً مع قتيبة خلال المعركة، وأن قتيبة «غنم من أموال الترك شيئاً كثيراً، وقتل منهم خلقاً وسبى وأسر».[٣]

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص٦٧٧.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٣١.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص٨٣.

٦ – غزو مسلمة لبلاد الروم

وفي السنة التاسعة والثمانين للهجرة غزا مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد بلاد الروم.

كتب ابن كثير عن هذه الغزوة:[١]

«غزا مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد بلاد الروم فقتلا خلقاً كثيراً وفتحا حصوناً كثيرة منها حصن سوريا وعمورية وهرقلة وقمودية[٢]. وغنما شيئاً كثيراً وأسرا جماً غفيراً».

وأضاف ابن الأثير أنه «لقي من الروم جمعاً فهزمهم».

٧ – غزو قتيبة بخارى وفتحها وفتح الطالقان والصغد

وفي السنة نفسها غزا قتيبة بلاد الصغد فاصطدم بجمع كبير من الأتراك حيث دارت معركة عنيفة انتصر فيها المسلمون. ثم سار إلى بخارى فالتقى بجيش كبير للترك قاتله طوال ٤٨ ساعة في مكان يقال له «خرقان» فانتصر المسلمون أيضاً.[٣]

ثم قصد قتيبة «وردان خذاه» ملك بخارى فقاتله قتالاً شديداً لم ينتصر خلاله أي من الجانبين، فعاد قتيبة إلى مرو، فأتاه كتاب من الحجاج يعنّفه فيه على التراجع ويطلب منه أن يبعث له بصورة بخارى.[٤]

نقل ابن الأثير أخبار غزوة بخارى، فكتب:[٥]

«في هذه السنة أتى قتيبة كتاب الحجاج يأمره بقصد وردان خذان فعبر النهر من زم فلقي الصغد، وأهل كش ونسف في طريق المفازة فقاتلوه فظفر بهم. ومضى إلى بخارى

---

(١) المرجع نفسه، ص٨٤.
(٢) في الطبري وابن الأثير أيضاً حصن «اذرولية».
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص٨٤.
(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص٦٧٩.
(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٢٤٩.

فنزل خرقانة السفلى عن يمين وردان فلقوه في جمع كثير فقاتلهم يومين وليلتين فظفر بهم. وغزا وردان خذاه ملك بخارى فلم يظفر بشيء فرجع إلى مرو وكتب إلى الحجاج يخبره. فكتب إليه الحجاج أن صوّرها لي فبعث إليه بصورتها، فكتب إليه الحجاج أن تُب إلى الله جلّ ثناؤه مما كان منك وائتها من مكان كذا وكذا. وكتب إليه أن كس بكش وانسف نسف ورد وردان وإياك والتحويط ودعني من ثنيات الطريق. وقيل: إنما كان فتح بخارى سنة تسعين على ما نذكره».

ويضيف ابن كثير أن قتيبة عاد وغزا في تلك السنة بلاد الترك حتى بلغ باب الأبواب من ناحية أذربيجان، وفتح حصوناً ومدائن كثيرة هنالك.(١)

أما الطبري، فإنه أكمل رواية فتح بخارى بعد ورود كتاب الحجاج إذ كتب عن ذلك:(٢)

«ذكر علي بن محمد أن أبا الذيّال أخبره عن المهلّب بن إياس؛ وأبو العلاء، عن إدريس بن حنْظلة، أن كِتاب الحجّاج لما ورد على قتيبة يأمره بالتوبة مما كان، من انصرافه عن وَرْدان خُذاه ملك بخارى قبل الظفر به والمصير إليه، ويعرّفه الموضع الذي ينبغي له أن يأتي بلده منه، خرج قتيبة إلى بخارى في سنة تسعين غازياً. فأرسل وردان خذاه إلى السّغْد والتّرْك ومَن حَولهم يستنصرونهم، فأتوهم وقد سبق إليها قتيبة فحصرهم. فلما جاءتهم أمدادهم خرجوا إليهم ليقاتلوهم، فقال الأزْد: اجعَلونا على حِدة، وخلُّوا بيننا وبين قتالهم. فقال قتيبة: تقدّموا؛ فتقدموا يقاتلونهم وقتيبة جالس، عليه رداء أصفر فوق سلاحه، فصَبروا جميعاً ملياً. ثم جال المسلمون، وركبهم المشركون فحطموهم حتى دخلوا في عسكر قتيبة وجازوه حتى ضربَ النساءُ وجوه الخيل وبكين، فكرّوا راجعين. وانطوت مُجنّبتا المسلمين على الترك، فقاتلوهم حتى ردّوهم إلى مواقفهم، فوقف الترك على نشَز، فقال قتيبة: مَن يُزيلهم لنا

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص٨٥.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص٦٨١.

عن هذا الموضع؟ فلم يُقدِم عليهم أحد، والأحياء كلّها وقوف.

فمشى قتيبة إلى بني تميم، فقال: يا بني تميم، إنكم أنتم بمنزلة الحطميّة، فيومٌ كأيّامكم، أبى لكم الفداء! قال: فأخذ وكيعٌ اللواء بيده، وقال: يا بني تميم، أتسلِمونني اليوم؟ قالوا: لا يا أبا مطرّف - وهريم بن أبي طحْمة المُجاشعيّ على خيل بني تميم ووكيع رأسهم، والناس وقوف - فأحجموا جميعاً. فقال وكيع: يا هُريمُ قَدِّم، ودفع إليه الرّاية، وقال: قدّم خيلَك فتقدّم هُريم، ودَبّ وكيع في الرجال، فانتهى هُريم إلى نهر بينه وبين العدوّ فوقف. فقال له وكيع: اقحم يا هُريم؛ قال: فنظر هُريم إلى وكيع نظر الجمل الصَّؤول وقال: أنا أقحِم خيلي هذا النهر، فأن انكشفتْ كان هلاكُها! واللهِ إنك لأحمق؛ قال: يا ابن اللّخناء، ألا أراك تردّ أمري! وحذفه بعمود كان معه. فضرب هريم فرسه فأقحمه، وقال: ما بعد هذا أشدّ من هذا، وعبر هُريم في الخيل، وانتهى وكيع إلى النهر، فدعا بخَشَب؛ فقَنْطر النهر وقال لأصحابه: مَن وطّن منكم نفسه على الموت فليَعْبُر، ومَن لا فلْيَثْبت مكانه؛ فما عبر معه إلاّ ثمانمائة راجل. فدبّ فيهم حتى إذا أعيوا أقعدهم فأراحوا حتى دنا من العدوّ، فجعل الخيل مجنّبتين، وقال لهريم: إني مُطاعن القوم، فأشغلْهم عنّا بالخيل. وقال للناس: شُدّوا فما انْثَنوا حتى خالطوهم، وحمل هُريم خيله عليهم فطاعنوهم بالرّماح، فما كفّوا عنهم حتى حدّروهم عن موقفهم. ونادى قتيبة: أما ترون العدو منهزمين! فما عَبَرَ أحد ذلك النهر حتى ولّى العدو منهزمين، فأتبعهم الناس، ونادى قتيبة: مَن جاء برأس فله مائة».

وهكذا فتح قتيبة مدينة بخارى وهزم جموع الترك الذين قدموا لنجدة ملكها.

وبعد فتح بخارى طلب «طرخون» ملك الصفد من قتيبة أن يصالحه على مال يبذله في كل عام، فأجابه قتيبة إلى ذلك وأخذ منه رهناً عليه.

نقل ابن كثير رواية عن نقض الهدنة من جانب ملك الصغد وملوك آخرين كانوا قد صالحوا قتيبة، فعاد إليهم قتيبة وهزمهم، فكتب:[١]

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص٨٥-٨٦.

«فلما سار إلى بلاده بلغه أن صاحب الصغد قال لملوك الترك: إن العرب بمنزلة اللصوص فإن أعطوا شيئاً ذهبوا، وإن قتيبة هكذا يقصد الملوك، فإن أعطوه شيئاً أخذه ورجع عنهم، وإن قتيبة ليس بملك ولا يطلب ملكاً. فبلغ قتيبة قوله فرجع إليهم، فكاتب نيزك ملك الترك ملوك ما وراء النهر منهم ملك الطالقان، وكان قد صالح قتيبة فنقض الصلح الذي كان بينه وبين قتيبة بن مسلم. واستجاش[1] عليه بالملوك كلها، فأتاه ملوك كثيرة كانوا قد عاهدوا قتيبة على الصلح فنقضوا كلهم وصاروا يداً واحدة على قتيبة. واتحدوا إلى الربيع وتعاهدوا وتعاقدوا على أن يجتمعوا فيقاتلوا كلهم، فاجتمعوا في فصل الربيع من السنة الآتية، فقتل منهم قتيبة في ذلك الحين مقتلة عظيمة جداً لم يُسمع بمثلها. وصلب منهم سماطين[2] في مسافة أربعة فراسخ في نظام واحد، وذلك مما كسر جموعهم كلهم».

٨ – فتح السند

في السنة التاسعة والثمانين استعمل الحجاج على ثغر السند ابن عمه محمداً بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل وجهزه في ستة آلاف مقاتل وأرسله لفتح بلاد السند.[3]

نقل ابن خلدون وابن الأثير تفاصيل حملة محمد على السند والقتال وصولاً إلى فتحها. وجاءت تفاصيل ابن الأثير أكثر دقة، لذلك نوردها كما جاءت في كتابه:[4]

«في هذه السنة قتل محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي (يجتمع هو والحجاج في الحكم) ذاهر بن صصة ملك السند وملك بلاده. وكان الحجاج بن يوسف استعمله على ذلك الثغر وسيّر معه ستة آلاف مقاتل، وجهزه

(١) استجاش: استنجد.
(٢) السماط: الصف.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ١٣٢.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٢٥٠-٢٥٢.

بكل ما يحتاج إليه حتى المسالّ والإبر والخيوط. فسار محمد إلى مكران فأقام بها أياماً ثم أتى قنزبور ففتحها، ثم سار إلى أرمائيل ففتحها. ثم سار إلى الديبل فقدمها يوم جمعة ووافته سفن كان حمل فيها الرجال والسلاح والأداة، فخندق حين نزل الديبل وأنزل الناس منازلهم ونصب منجنيقاً يقال له العروس كان يمد به خمسمائة رجل.

وكان بالديبل بَدّ عظيم عليه دقل،(١) وعلى الدقل راية حمراء إذا هبت الريح أطافت بالمدينة وكانت تدور. والبد صنم في بناء عظيم تحت منارة عظيمة مرتفعة وفي رأس المنارة هذا الدقل وكل ما يعبد فهو عندهم بد. فحصرها وطال حصارها فرمى الدقل بحجر العروس فكسره فتطير الكفار بذلك. ثم إن محمداً أتى وناهضهم وقد خرجوا إليه فهزمهم حتى ردهم إلى البلد. وأمر بالسلاليم فنصبت وصعد عليها الرجال، وكان أولهم صعوداً رجل من مراد من أهل الكوفة ففتحت عنوة وقاتل فيها ثلاثة أيام. وهرب عامل ذاهر عنها وأنزلها محمد أربعة آلاف من المسلمين وبنى جامعها. وسار عنها إلى البيرون، وكان أهلها بعثوا إلى الحجاج فصالحوه فلقوا محمداً بالميرة وأدخلوه مدينتهم وسار عنها.

وجعل لا يمر بمدينة إلاّ فتحها حتى عبر نهراً دون مهران فأتاه أهل سربيدس فصالحوه ووظف عليهم الخراج، وسار عنهم إلى سهبان ففتحها. ثم سار إلى نهر مهران فنزل في وسطه وبلغ خبره ذاهر فاستعد لمحاربته، وبعث جيشاً إلى سدوستان فطلب أهلها الأمان والصلح فأمنهم ووظف عليهم الخراج. ثم عبر محمد مهران مما يلي بلاد راسل الملك على جسر عقده (وذاهر مستخف به)، فلقيه محمد والمسلمون وهو على فيل وحوله الفيلة ومعه التكاكرة فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يسمع بمثله. وترجل ذاهر فقتل عند المساء ثم انهزم الكفار وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا.

فلما قتل ذاهر غلب محمد على بلاد السند وفتح مدينة راور عنوة، وكان بها امرأة

(١) الدقل: الخشبة العظيمة ترفع عليها سارية السفينة.

لذاهر فخافت أن تؤخذ فأحرقت نفسها وجواريها[1] وجميع مالها. ثم سار إلى برهمناباذ العتيقة وهي على فرسخين من المنصورة ولم تكن المنصورة يومئذ، كان موضعها غيضة وكان المنهزمون من الكفار بها فقاتلوه. ففتحها محمد عنوة وقتل بها بشراً كثيراً وخربت. وسار يريد الرور، وبغرور، فلقيه أهل ساوندرى فطلبوا الأمان فأعطاهم إياه واشترط عليهم ضيافة المسلمين، ثم أسلم أهلها بعد ذلك. ثم تقدم إلى بسمد وصالح أهلها، ووصل إلى الرور (وهي من مدائن السند على جبل) فحصرهم شهوراً فصالحوه، وسار إلى السكة ففتحها. ثم قطع نهر بياس إلى الملتان فقاتله أهلها وانهزموا فحصرهم محمد فجاءه إنسان ودله على قطع الماء الذي يدخل المدينة فقطعه فعطشوا فألقوا بأيديهم ونزلوا على حكمه، فقتل المقاتلة وسبى الذرية وسدنة البدّ وهم ستة آلاف. وأصابوا ذهباً كثيراً فجمع في بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية أذرع يلقى إليه من كوة في وسطه فسميت الملتان فرج بيت الذهب والفرج الثغر. وكان بد الملتان تهدى إليه الأموال ويحج من البلاد ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده ويزعمون أن صنمه هو أيوب النبي ﷺ».

٩ – قتيبة يستكمل الفتوحات في ما وراء النهر

ذكرنا أن قتيبة غزا بخارى السنة تسعاً وثمانين، ثم أكمل فتوحات ما وراء النهر للاقتصاص من نيزك ملك باذغيس الذي خلع طاعته وهرب إلى طخارستان، داعياً ملوك بلخ ومرو الروز والطالقان والجوزجان لمؤازرته في قتال قتيبة.

نقل ابن الأثير تفاصيل قتال قتيبة وهؤلاء وفتح مدنهم وبلادهم فكتب:[2]

«قد ذكرنا مسير قتيبة إلى نيزك وما جرى له بالطالقان وقتل من قتل بها. فلما فتح

(١) كانت عادة أهل الهند أن الرجل إذا مات يحرقون جثته وتحرق معها زوجته وجواريه، والتي ترفض أن تحرق تكون نجسة مدة حياتها.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٢٥٩-٢٦١.

الطالقان استعمل أخاه عمر بن مسلم، وقيل: إن ملكها لم يحارب قتيبة فكفّ عنه، وكان بها لصوص فقتلهم قتيبة وصلبهم. ثم سار قتيبة إلى الفارياب، فخرج إليه ملكها مقراً مذعناً فقبل منه ولم يقتل بها أحداً، واستعمل عليها رجلاً من أهله[1]. وبلغ ملك الجوزجان خبرهم فهرب إلى الجبال، وسار قتيبة إلى الجوزجان فلقيه أهلها سامعين مطيعين فقبل منهم ولم يقتل بها احداً واستعمل عليها عامر بن مالك الحماني. ثم أتى بلخ فلقيه أهلها فلم يقم بها إلاّ يوماً واحداً وسار يتبع أخاه عبد الرحمن إلى شعب خُلم[2]. ومضى نيزك إلى بُغْلان[3] وخلَّف مقاتلة على فم الشعب ومضايقه ليمنعوه، ووضع مقاتليه في قلعة حصينة من وراء الشعب. فأقام قتيبة أياماً يقاتلهم على مضيق الشعب لا يقدر على دخوله ولا يعرف طريقاً يسلكه إلى نيزك إلاّ الشعب أو مفازة لا تحتملها العساكر فبقي متحيراً. فقدم إنسان[4] فاستأمنه على أن يدله على مدخل القلعة التي من وراء الشعب. فأمّنه قتيبة وبعث معه رجالاً فانتهى بهم إلى القلعة من وراء شعب خلم، فطرقوهم وهم آمنون فقتلوهم وهرب من بقي منهم ومن كان في الشعب فدخل قتيبة الشعب فأتى القلعة. ومضى إلى سمنجان فأقام بها أياماً ثم سار إلى نيزك، وقدم أخاه عبد الرحمن. فارتحل نيزك من منزله فقطع وادي فرغانة ووجّه ثقله وأمواله إلى كابل شاه، ومضى حتى نزل الكرز وعبد الرحمن يتبعه. فنزل عبد الرحمن حذاء الكرز ونزل قتيبة بمنزل بينه وبين عبد الرحمن فرسخان، فتحصن نيزك في الكرز وليس إليه مسلك إلاّ من وجه واحد وهو صعب لا تطيقه الدواب. فحاصره قتيبة شهرين حتى قلّ ما في يد نيزك من الطعام وأصابهم الجدري وجدر جبغويه.

(١) في الطبري: «رجلاً من باهلة».
(٢) خُلْم: بلدة بنواحي بلخ.
(٣) بُغلان: بلدة بنواحي بلخ.
(٤) عيّنه الطبري أنه: الرؤب خان ملك الرؤب وسمنجان.

وخاف قتيبة الشتاء فدعا سليماً الناصح فقال: انطلق إلى نيزك واحتل لتأتيني به بغير أمان فإن احتال وأبى فأمّنه، واعلم أني إن عاينتك وليس هو معك صلبتك. قال: فاكتب إلى عبد الرحمن لا يخالفني فكتب إليه. فقدم عليه فقال له: ابعث رجالاً ليكونوا على فم الشعب فإذا خرجت أنا ونيزك فليعطفوا من ورائنا فيحولوا بيننا وبين الشعب. فبعث عبد الرحمن خيلاً فكانت هناك وحمل سليم معه أطعمة وأخبصة أوقاراً وأتى نيزك فقال له: إنك أسأت إلى قتيبة وغدرت. قال نيزك: فما الرأي؟ قال: أرى أن تأتيه فإنه ليس يبارح وقد عزم على أن يشتو مكانه هلك أو سلم. قال نيزك: فكيف آتيه على غير أمان؟ قال: ما أظنه يؤمّنك لما في نفسه عليك لأنك قد ملأته غيظاً. ولكني أرى أن لا يعلم حتى تضع يدك في يده فإني أرجو أن يستحي ويعفو. قال: إني أرى نفسي تأبى هذا وهو إن رآني قتلني. فقال سليم: ما أتيتك إلاّ لأشير عليك بهذا، ولو فعلت لرجوت أن تسلم وتعود حالك عنده فإذا أبيت فإني منصرف. وقدّم سليم الطعام الذي معه ولا عهد لهم بمثله فانتهبه أصحاب نيزك فساءه ذلك.

فقال له سليم: إني لك من الناصحين أرى أصحابك قد جهدوا وإن طال بهم الحصار لم آمنهم أن يستأمنوا بك فائت قتيبة. فقال: لا آمنه على نفسي ولا آتيه إلاّ بأمان، وإن ظني أن يقتلني وإن أمنني، ولكن الأمان أعذر إلي. فقال سليم: قد أمّنك أفتتهمني؟ قال: لا. وقال له أصحابه: اقبل قول سليم فلا يقول إلاّ حقاً. فخرج معه، ومع جبغويه، وصول طرخان خليفة جبغويه، وحبس طرخان صاحب شرطته، وشقران ابن أخي نيزك. فلما خرجوا من الشعب عطفت الخيل التي خلفها سليم فحالوا بين الأتراك أصحاب نيزك والخروج، فقال نيزك: هذا أول غدر. قال سليم: تخلف هؤلاء عنك خير لك. وأقبل سليم، ونيزك، ومن معه حتى دخلوا إلى قتيبة فحبسهم وكتب إلى الحجاج يستأذنه في قتل نيزك. واستخرج قتيبة ما كان في الكرز من متاع ومن كان فيه فقدم به على قتيبة فانتظر بهم كتاب الحجاج فأتاه كتاب الحجاج بعد أربعين يوماً يأمره بقتل نيزك. فدعا قتيبة الناس واستشارهم في قتله واختلفوا، فقال ضرار بن حصين:

إني سمعتك تقول: أعطيت الله عهداً إن أمكنك منه أن تقتله فإن لم تفعل فلا ينصرك الله عليه أبداً. فدعا نيزك فضرب رقبته بيده وأمر بقتل صول، وابن أخي نيزك؛ وقتل من أصحابه سبعمائة، وقيل: اثني عشر ألفاً. وصلب نيزك، وابن أخيه وبعث برأسه إلى الحجاج.

فلما قتل قتيبة نيزك رجع إلى مرو وأرسل ملك الجوزجان يطلب الأمان، فأمّنه على أن يأتيه فطلب رهناً ويعطى رهائن. فأعطاه قتيبة حبيب بن عبد الله بن حبيب الباهلي، وأعطى ملك الجوزجان رهائن من أهل بيته وقدم على قتيبة، ثم رجع فمات بطالقان، فقال أهل الجوزجان: إنمه سمّوه فقتلوا حبيباً وقتل قتيبة الرهائن الذين كانوا عنده».

هذه العمليات جرت في السنة الحادية والتسعين للهجرة.

١٠ - غزو شومان وكشّ ونسَف

كان ملك شومان قد طرد عامل قتيبة من بلاده في السنة الحادية والتسعين أيضاً، فأرسل قتيبة رسولاً فقتله ثم غزا بلاده في غزوة لخص دقائقها الطبري فكتب:[١]

«قيسبشتان ملك شومان، طرد عامل قتيبة ومنع الفدية التي صالح عليها قتيبة، فبعث إليه قتيبة عيّاشاً الغَنويّ ومعه رجل من نُسّاك أهل خراسان يدعوان ملك شومان إلى أن يؤدي الفدية على ما صالح عليه قتيبة. فقدما البلد، فخرجوا إليهما فرموهما، فانصرف الرجل وأقام عياش الغنويّ فقال: أما ها هنا مسلم! فخرج إليه رجل من المدينة فقال: أنا مسلم، فما تريد؟ قال: تُعينُني على جهادهم، قال: نعم، فقال له عياش: كن خلفي لتمنع لي ظهري، فقام خلفه، وكان اسم الرجل المهلب، فقاتلهم عياش، فحمل عليهم، فتفرقوا عنه. وحمل المهلب على عياش من خلفه فقتله، فوجدوا به ستين جراحة، فغمهم قتله، وقالوا: قتلنا رجلاً شجاعاً.

وبلغ قتيبة، فسار إليهم بنفسه، وأخذ طريق بلخ. فلما أتاهم قدّم أخاه عبد الرحمن، واستعمل على بلخ عمرو بن مسلم. وكان ملك شومان صديقاً لصالح بن

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٧.

مسلم، فأرسل إليه صالح رجلاً يأمره بالطاعة، ويضمن له رضا قتيبة إن رجع إلى الصلح. فأبى وقال لرسول صالح: ما تخوّفني به من قتيبة، وأنا أمنع الملوك حصناً أرمي أعلاه، وأنا أشد الناس قوساً وأشد الناس رمياً، فلا تبلغ نُشابتي نصف حصني، فما أخاف من قتيبة! فمضى قتيبة من بلخ فعبر النهر، ثم أتى شومان وقد تحصّن ملِكُها فوضع عليه المجانيق، ورمى حصنه فهشّمه. فلما خاف أن يظهر عليه، ورأى ما نزَل به، جمع ما كان له من مال وجوهر فرمى به في عين في وسط القلعة لا يدرك قعرها.

قال: ثم فتح القلعة وخرج إليهم فقاتلهم فقُتل، وأخذ قتيبة القلعة عنوة، فقتل المقاتلة وسبى الذريّة. ثم رجع إلى باب الحديد فأجاز منه إلى كشّ ونسَف، وكتب إليه الحجاج، أن كش بكش وانسِف نسَف».

ثم أرسل قتيبة أخاه عبد الرحمن إلى الصغد، فأعطى ملكها «طرخون» ما كان صالح عليه قتيبة. ثم عاد عبد الرحمن والتقى قتيبة في بخارى وعادا معاً إلى مرو.[1]

١١ - فتح سمرقند

في السنة الثالثة والتسعين صالح قتيبة خوارزمشاه ملك خوارزم على عشرة آلاف رأس ومتاع، شرط أن يساعده قتيبة على «خام جرد» التي أرسل أخاه عبد الرحمن ففتحها وقدم منها بأربعة آلاف أسير فقتلهم قتيبة وسلّم خام جرد إلى خوارزمشاه.[2]

ولما فرغ قتيبة من ذلك قرر فتح سمرقند فأرسل أخاه عبد الرحمن أمامه في عشرين ألفاً.

تابع ابن كثير أخبار العمليات التي أدت إلى فتح سمرقند على يد قتيبة واستخلاف

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٣٧.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص١٢-١٣.
ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٣٨.

أخيه عبد الله عليها وعودته إلى مرو، فكتب:[1]

«ثم بعث قتيبة أخاه عبد الرحمن بن مسلم بين يديه في عشرين ألفاً فسبقه إلى سمرقند، ولحقه قتيبة في بقية الجيوش. فلما سمعت الأتراك بقدومهم إليهم انتخبوا من بينهم كل شديد السطوة من أبناء الملوك والأمراء، وأمروهم أن يسيروا إلى قتيبة في الليل فيكبسوا جيش المسلمين. وجاءت الأخبار إلى قتيبة بذلك فجرد أخاه صالحاً في ستمائة فارس من الأبطال الذين لا يطاقون، وقال: خذوا عليهم الطريق. فساروا فوقفوا لهم في أثناء الطريق وتفرقوا ثلاث فرق. فلما اجتازوا بهم في الليل (وهم لا يشعرون بهم) نادوا عليهم فاقتتل المسلمون هم وإياهم، فلم يفلت من أولئك الأتراك إلاّ النفر اليسير. واحتزوا رؤوسهم وغنموا ما كان معهم من الأسلحة المجلاة بالذهب والأمتعة. وقال لهم بعض أولئك: تعلمون أنكم لم تقتلوا في مقامكم هذا إلاّ ابن ملك أو بطل من الأبطال المعدودين بمائة فارس أو بألف فارس، فنفلهم قتيبة جميع ما غنموه منهم من ذهب وسلاح.

واقترب قتيبة من المدينة العظمى التي بالصغد (وهي سمرقند) فنصب عليها المجانيق فرماها بها، وهو مع ذلك يقاتلهم لا يقلع عنهم، وناصحه من معه عليها من أهل بخارى وخوارزم، فقاتلوا أهل الصغد قتالاً شديداً، فأرسل إليه غورك ملك الصغد: إنما تقاتلني بإخواني وأهل بيتي، فاخرج إليّ في العرب. فغضب عند ذلك قتيبة وميّز العرب من العجم وأمر العجم باعتزالهم، وقدّم الشجعان من العرب وأعطاهم جيّد السلاح، وانتزعه من أيدي الجبناء، وزحف بالأبطال على المدينة ورماها بالمجانيق، فثلم فيها ثلمة فسدها الترك بغرار الدخن. وقام رجل منهم فوقها فجعل يشتم قتيبة فرماه رجل من المسلمين بسهم فقلع عينه حتى خرجت من قفاه. فلم يلبث أن مات قبّحه الله، فأعطى قتيبة الذي رماه عشرة آلاف.

ثم دخل الليل، فلما أصبحوا رماهم بالمجانيق فثلم أيضاً ثلمة وصعد المسلمون فوقها، وتراموا هم وأهل البلد بالنشاب،

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص٩٣-٩٤.

فقالت الترك لقتيبة: ارجع عنا يومك هذا ونحن نصالحك غداً، فرجع عنهم وصالحوه من الغد على ألفي ومائة ألف يحملونها إليه في كل عام، وعلى أن يعطوه في هذه السنة ثلاثين ألف رأس من الرقيق، ليس فيهم صغير ولا شيخ ولا عيب. وفي رواية مائة ألف من رقيق؛ وعلى أن يأخذ حلية الأصنام وما في بيوت النيران، وعلى أن يخلوا المدينة من المقاتلة حتى يبني فيها قتيبة مسجداً، ويوضع له فيه منبر يخطب عليه، ويتغدى ويخرج، فأجابوه إلى ذلك. فلما دخلها قتيبة دخلها ومعه أربعة آلاف من الأبطال (وذلك بعد أن بنى المسجد ووضع فيه المنبر) وصلى في المسجد وخطب وتغدى وأتى بالأصنام التي لهم فسلبت بين يديه، وألقيت بعضها فوق بعض، حتى صارت كالقصر العظيم. ثم أمر بتحريقها، فتصارخوا وتباكوا وقال المجوس: إن فيها أصناماً قديمة من أحرقها هلك. وجاء الملك غورك فنهى عن ذلك، وقال لقتيبة: إني لك لناصح، فقام قتيبة وأخذ في يده شعلة نار وقال: أنا أحرقها بيدي فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون. ثم قام إليها وهو يكبّر الله عز وجل، وألقى فيها النار فاحترقت، فوجد من بقايا ما كان فيها من الذهب خمسون ألف مثقال من ذهب. وكان من جملة ما أصاب قتيبة في السبي جارية من ولد يزدجرد فأهداها إلى الحجاج، فأهداها إلى الوليد فولدت له يزيد بن الوليد. ثم استدعى قتيبة بأهل سمرقند فقال لهم: إني لا أريد منكم أكثر مما صالحتكم عليه، ولكن لا بد من جند يقيمون عندكم من جهتنا. فانتقل عنها ملكها غورك خان، ثم ارتحل عنها قتيبة إلى بلاد مرو، واستخلف على سمرقند أخاه عبد الله بن مسلم».

وتوافقت روايات ابن الأثير والطبري وابن خلدون مع رواية ابن كثير لهذه التفاصيل.[1] لكن ابن الأثير تفرّد في ذكر قتال عنيف جرى قبل فتح السمرقند إذ كتب:[2]

(١) ابن خلدون، جزء ٥، ص ١٣٨-١٤٠، ابن الأثير، جزء ٤، ص٢٧٤-٢٧٥، الطبري، جزء ٤، ص١٤-١٥.
(٢) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٢٧٦.

«وقيل: إن أهل سمرقند خرجوا على المسلمين وهم يقاتلونهم يوم فتحها، وقد أمر قتيبة يومئذ بسرير فأبرز وقعد عليه. فطاعنوهم حتى جازوا قتيبة وإنه لمحتب بسيفه ما حل حبوته. وانطوت مجنبتا المسلمين على الذين هزموا القلب، فهزموهم حتى ردوهم إلى عسكرهم، وقتل من المشركين عدد كثير، ودخلوا المدينة فصالحوهم ...».

١٢ - غزو الشاش

في السنة الرابعة والتسعين فرض قتيبة على أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم عشرين ألف مقاتل وجههم إلى الشاش، فيما توجه بنفسه إلى فرغانة، فأتى خجندة فلاقاه أهلها فاقتتلوا مراراً كان النصر فيها دائماً للمسلمين.[١]

أما الجند الذين وجههم إلى الشاش فقد تمكنوا من فتحها وإحراق أكثرها، ثم اجتمعوا بقتيبة في كاشان قبل أن يعود إلى مرو.

وفي السنة التالية أرسل الحجاج جيشاً من العراق إلى قتيبة فغزا به الشاش حتى أتاه نعي الحجاج في السنة الخامسة والتسعين للهجرة.

فلما توفي الحجاج عاد قتيبة إلى مرو وتفرق الناس، فأتاه كتاب من الخليفة وفيه:[٢]

«قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجِدّك واجتهادك في جهاد أعداء المسلمين. وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذي يجب لك، فأتمّ مغازيك وانتظر ثواب ربك ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك حتى كأني أنظر إلى بلائك والثغر الذي أنت فيه».

١٣ - قتيبة يبلغ حدود الصين

في السنة السادسة والتسعين للهجرة غزا قتيبة كاشغر، وهي أدنى مدائن الصين،

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٢١.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٢٨٣.

فأرسل جيشاً مع كثير بن فلان إليها، فغنم وسبى سبياً كثيراً.

كتب ملك الصين إلى قتيبة لإرسال رجل شريف من قبله ليخبره عن دينه، فأرسل قتيبة عشرة رجال عليهم هبيرة بن مشمرج الكلابي.

نقل ابن الأثير رواية عن مواجهة هؤلاء لملك الصين نوردها هنا لما فيها من الطرافة:(١)

«فساروا وعليهم هبيرة. فلما قدموا عليهم دعاهم ملك الصين فلبسوا ثياباً بياضاً تحتها الغلائل وتطيبوا ولبسوا النعال والأردية ودخلوا عليه وعنده عظماء قومه. فجلسوا فلم يكلمهم الملك ولا أحد ممن عنده فنهضوا. فقال الملك لمن حضره: كيف رأيتم هؤلاء؟ فقالوا: رأينا قوماً ما هم إلاّ نساء ما بقي منا أحد إلاّ انتشر ما عنده. فلما كان الغد دعاهم فلبسوا الوشي والعمائم الخز والمطارف وغدوا عليه، فلما دخلوا قيل لهم: ارجعوا، وقال لأصحابه: كيف رأيتم هذه الهيئة؟ قالوا: هذه أشبه بهيئة الرجال من تلك.

فلما كان اليوم الثالث دعاهم فشدوا سلاحهم ولبسوا البيض، والمغافر وأخذوا السيوف والرماح والقسي وركبوا، فنظر إليهم ملك الصين فرأى أمثال الجبال مقبلة. فلما دنوا ركزوا رماحهم وأقبلوا مشمّرين فقيل لهم: ارجعوا، فركبوا خيولهم وأخذوا رماحهم ودفعوا خيلهم كأنهم يتطاردون. فقال الملك لأصحابه: كيف ترونهم؟ قالوا: ما رأينا مثل هؤلاء. فلما أمسى بعث إليهم أن ابعثوا إليّ زعيمكم فبعثوا إليه هبيرة بن مُشَمْرَج فقال له حين دخل عليه: قد رأيتم عظم ملكي وأنه ليس أحد يمنعكم مني وأنتم في يدي بمنزلة البيضة في كفي. وإني سائلكم عن أمر فإن لم تصدقوني قتلتكم. قال: سلْ. قال: لِمَ صنعتم بزيّكم الأول اليوم الأول والثاني والثالث ما صنعتم؟ قال: أما زيّنا اليوم الأول فلباسنا في أهلنا، وأما اليوم الثاني

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٢٨٩-٢٩٠.
روى ابن الأثير والطبري نفس الرواية، لذلك أثبتناها هنا.

فزينا إذا أممنا أمراءنا، وأما الثالث فزينا لعدونا. قال: ما أحسن ما دبرتم دهركم، فقولوا لصاحبكم ينصرف فإني قد عرفت قلة أصحابه وإلاّ بعثت إليكم من يهلككم. قالوا: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل ولسنا نكرهه ولا نخافه. وقد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية. فقال: فإنا نخرجه من يمينه ونبعث تراب أرضنا فيطؤه ونبعث إليه ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية يرضاها. فبعث إليه بهدية وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ثم أجازهم فأحسن، فقدموا على قتيبة فقبل قتيبة الجزية وختم الغلمان وردهم ووطئ التراب».

١٤ – وفاة الوليد بن عبد الملك

في النصف من جمادى الآخرة من السنة السادسة والتسعين للهجرة توفي الخليفة الوليد، فبويع سليمان بن عبد الملك بالخلافة، وقتل قتيبة في السنة نفسها.

١٥ – الدروس والعِبَر والنتائج

أ – اعتمد القائد العربي قتيبة بن مسلم الباهلي استراتيجية حشد القوى وتحفيزها للجهاد في سبيل الله، ووزّع المهمات على مرؤوسيه، فأحسن في تطبيق مبادئ الحرب الثلاثة:

– المبدأ الأول، أي نسبية الأهداف للوسائل، بحشده القوى في خراسان.

– المبدأ الثاني، أي حرية العمل، باختياره مكان وزمان الحملة بنفسه واعتماده استراتيجية الهجوم بدل الدفاع.

– المبدأ الثالث، أي الحصيل الأقصى للوسائل، بحثّه الناس على القتال وتأليبهم للجهاد وتوزيع المهمات على معاونيه تمهيداً لسيره على رأس الحملة القتالية.

وهكذا تمكن من فتح المدن والحصون وإخضاع الملوك الذين صالحوه على دفع الجزية.

ب - أما مسلمة بن عبد الملك فقد لمع اسمه، خلال حملته على بلاد الروم، كقائد عسكري بارز انتصر في غالبية المعارك التي خاضها، وغزا بلاد الروم مرات عدة محققاً إنجازات كبرى وفاتحاً الحصون والمدن.

ج - لم يؤخذ قتيبة بخدعة الأعجمي الذي ادّعى أن الحجاج عزل بهدف تثبيط عزيمة قتيبة وردّه عن محاصرة بيكند. فرغم تصديقه الخبر، وبدلاً من التراجع عن القتال، أخفى السر عن جنده وحفّزهم للقتال، فقاموا بهجوم عام انهزم خلاله المشركون.

وبعد أن صالح أهل بيكند ونقضوا الصلح، عاد إلى المدينة وشدّد الحصار عليها، وثقب سورها وفتحها عنوة وقتل عناصر حاميتها.

وبغية تحقيق تفوق المسلمين على أهل خراسان، وبدلاً من التصرف بالغنائم من الذهب والفضة بطريقة لا تخدم المصلحة العامة، قام بشراء الخيول والأسلحة بثمنها، ووزع السلاح وعدة الحرب التي كانت محفوظة في الخزائن على المقاتلين محققاً بذلك حسن تطبيق مبدأ الحرب الأول أي نسبية الأهداف للوسائل.

د - أثناء القتال أمام حصن الصوانة خرج الروم من الحصن ونفّذوا هجوماً عاماً على المسلمين فهزموهم وأعادوهم عن الحصن محققين بذلك حرية عملهم، بدلاً من البقاء داخل الحصن دون حول ولا طول.

لكن صمود إحدى وحدات المسلمين بقيادة العباس بن الوليد، وعمل هذا الأخير على دبّ الحماس والحوافز في نفوس المقاتلين وإعطائهم المثل في القتال، كلها عوامل أعادت كفة النصر إلى جانب المسلمين الذين عادوا وشنوا هجوماً معاكساً على الروم فأعادوهم إلى الحصن الذي فتحوه عنوة.

فالاندفاع والحماس والشدة والاستمرارية في الجهد من قبل عناصر الوحدة المقاتلة تؤدي غالباً إلى النجاح، وتحفّز الوحدات الصديقة الأخرى لاتّباع المثل والقيام بالجهد المطلوب منها في سبيل مصلحة الجيش العامة.

علاوة على ذلك، فإن اعتماد القيادة العسكرية استراتيجية هجومية يساعد على رفع معنويات الجند التي تعتبر عاملاً أساسياً

في تحقيق الانتصارات. لقد قيل إن «أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم».

لكن الوحدة العسكرية الكبرى تضطر أحياناً إلى اتخاذ الوضع الدفاعي لأسباب عملانية أهمها عدم تحقيقها مبدأ نسبية الأهداف للوسائل. ففي هذه الحال تخطط وتنفذ عمليات هجومية كالإغارات والهجمات المعاكسة والكمائن التي تهدف إلى رفع معنويات الجنود التي تكون عادة منخفضة خلال العمليات الدفاعية.

هـ - أثناء عودة قتيبة من غزوة قرى بخارى أحسن في تحقيق أمن مؤخرته إذ كلّف فرقة من ألف مقاتل بالسير وراء عظيم الجيش ومنع العدو من مفاجأته. وحقق خلال تراجعه حرية عمله إذ أن العدو لم يتمكن من تدمير المؤخرة قبل وصول باقي الجيش إلى مكان المعركة ونجدتها. فحرية عمل الجيش تفرض إمكانية زج جميع وحداته في المعركة قبل انتهائها.

ومن الأمثلة عن عدم تحقيق حرية العمل نذكر معركة واترلو إذ إن أحد جيوش بونابرت لم يتمكن من بلوغ ساحة القتال إلاّ بعد انتهاء المعركة لمصلحة الدوق والنغتون. لذلك لم تشارك في القتال، وبالتالي لم تكن حرية عمل الجيوش الفرنسية مؤمّنة فخسرت، ليس فقط المعركة، إنما أيضاً الحرب التي انتهت بإبعاد نابوليون إلى جزيرة القديسة هيلانة وسيطرة اتحاد الدول الأوروبية على فرنسا.

و - وخلال فتوحات قتيبة في ما وراء النهر ساهمت أخبار انتصاراته في ردع ملوك الطالقان والفارياب والجوزيان عن التصدي له. وهكذا قام هؤلاء بمصالحته تحقيقاً لقاعدة «أظهر القوة كي لا تضطر لاستعمالها». ففتح المدن والحصون دون قتال جنّب المسلمين خسائر بالأرواح وأمّن لهم حرية التحرك ومتابعة الحملة دون عوائق.

وعندما تحصّن أنصار الملك نيزك في قلعة لا يمكن بلوغها إلاّ عبر مسالك صعبة، قام أحد هؤلاء بدلالة قتيبة على طريق أوصله بسهولة إلى داخل القلعة التي ملكها، فكان فتحها يسيراً.

وهنا نعود للتأكيد على وجوب تأمين حسن ولاء جميع القاطنين في منطقة العمليات، والحؤول دون تجنيد العدو لعملاء منهم، لأن عميلاً واحداً للعدو

داخل الخطوط الصديقة قد يحقق له إنجازات عملانية عجزت وحداته العسكرية عن إنجازها. وهذه المهمة توكل في الجيوش الحديثة إلى جهاز الاستخبارات العسكرية الذي يلاحق هدفين:

- **الأول**، منع عملاء العدو من التغلغل داخل الخطوط الصديقة لنقل معلومات عن وحداتها إليه.

- **الثاني**، خرق جهاز العدو وزرع عملاء داخل صفوفه يزوّدون الصديق بأكبر قدر ممكن من المعلومات السرية عن وحدات العدو وتحركاتها.

ز - قيل إن «الحرب هي صراع إرادات». هذا ما ثبت خلال محاصرة قتيبة للملك نيزك في موقع لم يتمكن من الدخول إليه عنوة بسبب وعورة المسالك إليه. فقد صمد كل من المتحاربين، إلى أن تمكن قتيبة من خداع نيزك الذي خرج إليه مستأمناً. لكن قتيبة رفض منحه الأمان وقتله.

ح - أما ملك شومان، فإنه أخطأ في تقدير قوته ومقارنتها مع قوة عدوه قتيبة، مخالفاً بذلك مبدأ الحرب الأول أي نسبية الأهداف للوسائل، الأمر الذي أدى إلى مقتله وغزو بلاده وفتحها من قبل الجيوش العربية الإسلامية بقيادة قتيبة الذي طبق قواعد حشد القوى والشدة والاستمرارية في الهجوم، واستعمل المنجنيق لضرب الحصون التي دمرها وأخذ القلعة عنوة.

ونحن نرى أنه، وتحقيقاً لمبدأ الحرب الأول المشار إليه أعلاه، وخلال دراسة الموقف العملاني تمهيداً لتنفيذ مهمة معينة، على القائد اعتماد الموضوعية في تقدير القوات الصديقة والعدوة كي تأتي دراسته علمية وناجحة. فالقادة العسكريون يميلون عادة إلى المبالغة في تقدير إمكاناتهم مقارنة مع إمكانات خصمهم.

ط - خلال حملة قتيبة على سمرقند حاول كل من الخصمين مفاجأة غريمه ليلاً تحقيقاً لحرية عمله. لكن النصر كان إلى جانب المسلمين لأن قتيبة اكتشف مخططات الترك، فنصب لهم كميناً على المسلك الذي اعتمدوه للانتقال، ففاجأهم وانتصر عليهم.

واعتمد قتيبة خلال محاصرته سمرقند سياسة مكافأة الجنود المُجلِّين في جيشه،

فوزع على الذين نجحوا في نصب الكمين جميع ما غنموه من ذهب وسلاح. وأعطى الجندي الذي أصاب بسهمه حارس حصن الأتراك عشرة آلاف. كما عمد إلى تحفيز جنده وجعلهم يتحمّسون للقتال، وذلك بتقديم الشجعان منهم وتزويدهم بأفضل السلاح لديه تحقيقاً لسياسة «الثواب والعقاب» التي تُطبّق في جميع الجيوش.

علاوة على تحفيز الجند، طبق قتيبة، أثناء الحصار، استراتيجية القصف المتواصل والعنيف بالمنجنيق، والتضييق على المحاصرين، الأمر الذي دفعهم إلى الاستسلام.

لكل ما تقدم من إنجازات، يمكننا اعتبار قتيبة بن مسلم الباهلي من كبار القادة العرب المسلمين الذين برزوا خلال تاريخهم الطويل.

ي - خلال حملة محمد بن قاسم لفتح السند أحسن الحجاج تجهيز الجيش بجميع ما يلزمه مؤمناً بذلك استقلاليته وحرية عمله. وقد تمكن ابن قاسم فعلاً من فتح المدن والحصون والانتصار في غالبية المعارك التي خاضها في تلك البلاد.

وأحسن محمد استعمال الوسائل الموضوعة بتصرفه، فنقل الرجال والسلاح وعدة القتال، ولا سيما المنجنيقات، بواسطة السفن. وخلال حصاره للديبل ضرب الصنم الذي كان يعبده أهلها بحجر فحطمه فتشاءم أهل المدينة وخرجوا إليه فهزمهم. ثم نصب السلالم وفتح الحصن عنوة. وهذا ما أنزل الرعب في نفوس أهل البيرون الذين صالحوا المسلمين وأدخلوهم إلى مدينتهم.

ولما استخفّ الملك ذاهر بالمسلمين انتصر عليه هؤلاء، لأن عدم تقدير العدو حق قدره والاستخفاف به هو أمر يجب تجنبه في الحرب.

أما في قتاله ضد مدينة الملتان، فقد استعمل محمد جميع الوسائل المتوفرة لديه لتحقيق انتصاره، فقطع المياه عن المدينة التي عطش أهلها فنزلوا عند حكم المسلمين. فالقائد الناجح يستغل كل الإمكانات المتاحة له في سبيل معركته التي عليه أن يعتبرها معركة حياة أو موت، وذلك تحقيقاً لمبدأ الحرب الثالث أي الحصيل الأقصى للوسائل.

سيرة القائد قتيبة بن مسلم الباهلي

كتب ابن كثير عن قتيبة الآتي:[1]

«كان قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين بن ربيعة أبو حفص الباهلي، من سادات الأمراء وأخيارهم، وكان من القادة النجباء الكبراء، والشجعان وذوي الحروب والفتوحات السعيدة، والآراء الحميدة، وقد هدى الله على يديه خلقاً لا يحصيهم إلاّ الله، فأسلموا ودانوا للّه عز وجل. وفتح من البلاد والأقاليم الكبار والمدن العظام شيئاً كثيراً كما تقدم ذلك مفصّلاً مبيناً، والله سبحانه لا يضيع سعيه ولا يخيب تعبه وجهاده.

ولكن زل زلة كان فيها حتفه وضل رغم أنفه فيها، وخلع الطاعة فبادرت إليه المنْية، وفارق الجماعة فمات ميتة جاهلية. لكن سبق له من الأعمال الصالحة ما قد يكفر الله به سيئاته، ويضاعف به حسناته، والله يسامحه ويعفو عنه، ويتقبل منه ما كان يكابده من مناجزة الأعداء. وكانت وفاته بفرغانة من أقصى بلاد خراسان، في ذي الحجة من هذه السنة، وله من العمر ثمان وأربعون سنة، وكان أبوه أبو صالح مسلم فيمن قتل مع مصعب بن الزبير. وكانت ولايته على خراسان عشر سنين، واستفاد وأفاد فيها خيراً كثيراً.

ملحق رقم ٢

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص١٧٩-١٨١.

أ – قتيبة يخلع سليمان بن عبد الملك من الخلافة:

كان قتيبة بن مسلم حين بلغه ولاية سليمان بن عبد الملك للخلافة كتب إليه كتاباً يعزّيه في أخيه، ويهنئه بولايته، ويذكر فيه بلاءه وعناه وقتاله وهيبته في صدور الأعداء، وما فتح الله من البلاد والمدن والأقاليم الكبار على يديه. وإن له على مثل ما كان للوليد من قبله من الطاعة والنصيحة، إن لم يعزله عن خراسان. ونال في هذا الكتاب من يزيد بن المهلب. ثم كتب كتاباً ثانياً يذكر ما فعله من القتال والفتوحات وهيبته في صدور الملوك والأعاجم، ويذم يزيد بن المهلب أيضاً، ويقسم فيه بالله عز وجل لئن عزله وولّى يزيداً بن المهلب ليخلعن سليمان عن الخلافة. وكتب كتاباً ثالثاً فيه خلع سليمان عن الخلافة بالكلية، وبعث بها مع البريد وقال له: ادفع إليه الكتاب الأول، فإن قرأه ودفعه إلى يزيد بن المهلب فادفع إليه الثاني، فإن قرأه ودفعه إلى يزيد بن المهلب فادفع إليه الثالث. فلما قرأ سليمان الكتاب الأول (واتفق حضور يزيد عند سليمان) دفعه إلى يزيد فقرأه. فناوله البريد الكتاب الثاني فقرأه ودفعه إلى يزيد. فناوله البريد الكتاب الثالث فقرأه فإذا فيه التصريح بعزله وخلعه، فتغير وجهه، ثم ختمه وأمسكه بيده ولم يدفعه إلى يزيد، وأمر بإنزال البريد في دار الضيافة. فلما كان من الليل بعث إلى البريد فأحضره بين يديه ودفع إليه ذهباً وكتاباً فيه ولاية قتيبة على خراسان. وأرسل مع ذلك البريد بريداً آخر من جهته ليقرره عليها. فلما وصلوا بلاد خراسان بلغهم أن قتيبة قد خلع الخليفة، فدفع البريد كتاب بريد سليمان الكتاب الذي معه إلى بريد قتيبة.

ب – مقتل قتيبة

وذلك أنه جمع الجند والجيوش وعزم على خلع سليمان بن عبد الملك من الخلافة وترك طاعته، وذكر لهم همته وفتوحه وعدله فيهم، ودفعه الأموال الجزيلة إليهم. فلما فرغ من مقالته لم يجبه أحد من الناس إلى مقالته، فشرع في تأنيبهم وذمهم، قبيلة قبيلة، وطائفة طائفة. فغضبوا عند ذلك ونفروا عنه وتفرقوا، وعملوا على مخالفته،

وسعوا في قتله. وكان القائم بأعباء ذلك رجل يقال له وكيع بن أبي سود، فجمع جموعاً كثيرة، ثم ناهضه فلم يزل به حتى قتله في ذي الحجة من هذه السنة. وقتل معه أحد عشر رجلاً من إخوته وأبناء إخوته، ولم يبق منهم سوى ضرار بن مسلم. وكانت أمه الغراء بنت ضرار بن القعقاع بن معبد ابن سعد بن زرارة، فحمته أخواله، وعمرو بن مسلم كان عامل الجوزجان. وقتل قتيبة وعبد الرحمن وعبد الله وعبيد الله وصالح ويسار، وهؤلاء أبناء مسلم، وأربعة من أبنائهم فصلبهم كلهم وكيع بن أبي سود».

سيرة مسلمة بن عبد الملك

كتب ابن كثير:[١]

«ابن مروان القرشي الأموي، أبو سعيد وأبو الأصبغ الدمشقي. قال ابن عساكر: وداره بدمشق في حجلة القباب عند باب الجامع القبلي. وُلّي الموسم أيام أخيه الوليد، وغزا الروم غزوات وحاصر القسطنطينية، وولاه أخوه يزيد إمرة العراقين، ثم عزله ووُلّي أرمينية. وروى لحديث عن عمر بن عبد العزيز، وعنه عبد الملك بن أبي عثمان، وعبيد الله بن قزعة، وعيينة والد سفيان بن عيينة وابن أبي عمران، ومعاوية بن خديج، ويحيى بن يحيى الغساني.

قال الزبير بن بكار: كان مسلمة من رجال بني أمية، وكان يُلقّب بالجرادة الصفراء، وله آثار كثيرة، وحروب ونكاية في العدو من الروم وغيرهم. قلت: وقد فتح حصوناً كثيرة من بلاد الروم. ولما وُلّي أرمينية غزا الترك فبلغ باب الأبواب فهدم المدينة التي عنده، ثم أعاد بناءها بعد تسع سنين. وفي سنة ثمان وتسعين غزا القسطنطينية فحاصرها وافتتح مدينة الصقالبة، وكسر ملكهم البرجان، ثم عاد إلى محاصرة القسطنطينية. قال الأوزاعي: فأخذه وهو يغازيهم صداع عظيم في رأسه، فبعث ملك الروم إليه بقلنسوة وقال: ضعها

ملحق رقم ٣

(١) ابن كثير، المرجع نفسه، ص٣٤١.

على رأسك يذهب صداعك، فخشي أن تكون مكيدة فوضعها على رأس بهيمة فلم يرَ إلاّ خيراً، ثم وضعها على رأس بعض أصحابه فلم ير إلاّ خيراً، فوضعها على رأسه فذهب صداعه.

وقد لقي مسلمة في حصاره القسطنطينية شدة عظيمة، وجاع المسلمون عندها جوعاً شديداً. فلما وُلّي عمر بن عبد العزيز بعث إليه يأمرهم بالقفول إلى الشام، فحلف مسلمة أن لا يقلع عنهم حتى يبنوا له جامعاً كبيراً بالقسطنطينية، فبنوا بها جامعاً ومنارة، فهو بها إلى الآن يصلي فيه المسلمون الجمعة والجماعة.

وكانت لمسلمة مواقف مشهورة، ومساع مشكورة، وغزوات متتالية منثورة. وقد افتتح حصوناً وقلاعاً، وأحيا بعزمه قصوراً وبقاعاً. وكان في زمانه في الغزوات نظير خالد بن الوليد في أيامه، في كثرة مغازيه، وكثرة فتوحه، وقوة عزمه، وشدة بأسه، وجودة تصرفه في نقضه وإبرامه. وهذا مع الكرم والفصاحة.

توفي يوم الأربعاء لسبع مَضَيْنَ من المحرم سنة إحدى وعشرين ومائة، وقال بعضهم في سنة عشرين ومائة. وكانت وفاته بموضع يقال له الحانوت، وقد رثاه ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك».

ملحق رقم ٤

غزوات الصوائف والشواتي[1]

في خلافة الوليد وسليمان بن عبد الملك

السنة	قائد الغزوة	نتائجها
٨٦ هـ	مسلمة بن عبد الملك	غزا أرض الروم
٨٧ هـ	مسلمة بن عبد الملك	غزا بلاد الروم فقتل منهم عدداً كبيراً في سوسنة من ناحية المصيصة، وفتح حصوناً.
٨٨	مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك	اقتتل المسلمون والروم فانهزم الروم. ثم رجع الروم فانهزم المسلمون، فصمد العباس في نفر قليل ونادى: يا أهل القرآن، فعاد المنهزمون وحاصروا الروم وفتحوا حصن طوانة.
٨٩	مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد	افتتح مسلم حصن عمورية وهرقلة وقمونية. افتتح العباس حصن أذرولية. غزا العباس الصائفة من ناحية البذندون.
٩٠	مسلمة بن عبد الملك العباس بن الوليد	فتح الحصون الخمسة في سوريا. بلغ أرزن.
٩١	عبد العزيز بن الوليد	غزا الصائفة. وفي الجيش مسلمة بن عبد الملك. غزا مسلمة الترك من ناحية أذربيجان حتى بلغ الباب وفتح مدائن وحصوناً كثيرة.
٩٢	مسلمة بن عبد الملك قتيبة بن مسلم الباهلي	فتح حصوناً ثلاثة وجلا أهل سوسنة إلى بلاد الروم. غزا سجستان فأرسل ملك الترك رتبيل رسلاً فصالحه.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٤.

السنة	قائد الغزوة	نتائجها
٩٣	العباس بن الوليد	فتح سبسطية والمرزبانين وطرسوس.
	مروان بن الوليد	بلغ خنجرة.
	مسلمة بن عبد الملك	فتح ماسيسة وحصن الحديد وغزالة من ناحية ملطية.
٩٤	العباس بن الوليد	فتح إنطاكية.
	عبد العزيز بن الوليد	بلغ غزالة.
	الوليد بن هشام المعيطي	بلغ سرج الحمام.
	يزيد بن أبي كبشة	بلغ أرض سورية.
٩٥	العباس بن الوليد	فتح هرقلة.[١]
٩٦	توفي فيها الوليد وتسلم الخلافة سليمان بن عبد الملك.	
٩٧	جهز سليمان الجيوش إلى القسطنطينية بقيادة ابنه داود على الصائفة فافتتح حصن المرأة.	
	مسلمة بن عبد الملك	فتح حصن الوضاحية.
	عمر بن هبيرة	أشتى في بلاد الروم.
٩٨	مسلمة بن عبد الملك	سار إلى القسطنطينية بعد وفاة الإمبراطور البيزنطي.
		فتح مدينة الصقالبة.
	داود بن سليمان بن عبد الملك	فتح حصن المِراة.
٩٩	توفي سليمان بن عبد الملك وأصبح عمرو بن عبدالعزيز خليفة فاستدعى حملة مسلمة من القسطنطينية.	

(١) يعاد فتح الحصون لأن المسلمين لا يضعون فيها حامية دائمة.

الفصل الثالث
الأعمال العسكرية في عهد سليمان ويزيد بن عبد الملك

مما لا شك فيه أن عصر الوليد بن عبد الملك كان عصر القوة والفتوحات في الشرق والشمال والغرب. ففي الشرق قام قتيبة بن مسلم الباهلي بغزو ما وراء النهر ففتح المدن والحصون وأخضع الملوك. وامتدت فتوحاته إلى واحة خوارزم على دلتا نهر جيحون، وإلى بلاد الترك في الشاش وفرغانة. ووصل إلى كاشغر على حدود الصين، ولم يتوقّف إلاّ بعد وفاة الخليفة الوليد حين عاد إلى عاصمته مرو.

في هذا الوقت قام محمد بن القاسم الثقفي، على رأس حملة كبيرة بالتقدّم شرقاً ففتح المدن والحصون ووصل إلى شمال الهند بعد أن انتصر على ملك السند الذي كان يقود جيشاً كبيراً.

وفي الشمال، استأثرت الجبهة البيزنطية باهتمام خاص في السياسة الخارجية للخليفة الوليد بن عبد الملك، إذ إن الصوائف والشواتي كانت تبعث دائماً ويقودها قادة تمرسوا بفن الحرب، أبرزهم مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد، وعبد العزيز بن الوليد[1]. وقد تمكن المسلمون خلال هذه الحملات من فتح الطوانة وسلوقية ومرعش وعمورية وهرقلة، كما أخضعت إحدى الحملات جرجومة مركز الجراجمة وثم نقل سكانها إلى بلاد الشام.

وكانت أهم الحملات على القسطنطينية هي تلك التي سيّرها الخليفة سليمان بن عبد الملك بقيادة شقيقة مسلمة. وقد جرى استعداد كبير لها فجمعت الجيوش من مختلف

(١) انظر الملحق رقم ٤ من هذا الكتاب.

الأمصار حتى بلغ تعدادها نحو مائة وعشرين ألفاً. واصطحب مسلمة معه الفقهاء وسلك طريق مرعش، فافتتحت بعض الحصون في الطريق المؤدية إلى القسطنطينية. ورافقت الحملة سفن عدّة أبحرت من سوريا ومصر إلى بحر مرمرة وضربت الحصار على القسطنطينية.

كان حصار القسطنطينية شديداً، لكن المدينة صمدت بفضل مِنْعة أسوارها وغارات قبائل البلغار الموالين للإمبراطور البيزنطي والنار الإغريقية التي صبّت حِمَمها على المحاصرين، وخاصة الأسطول العربي. علاوة على ذلك، حلّ فصل الشتاء وتعرّض المهاجمون للبرد الشديد، كما حطمت عاصفة سفناً عديدة من الأسطول.

وبقي الوضع الصعب حول القسطنطينية على حاله حتى وفاة الخليفة سليمان واستخلاف عمر بن عبد العزيز السنة ٩٩هـ، الذي أعطى أوامره بعودة القوات إلى بلاد الشام، فباءت بالفشل المحاولة الثانية لفتح المدينة وإنهاء وجود الإمبراطورية البيزنطية.

وفي الغرب أكمل المسلمون سيطرتهم عل المغرب وفتحوا الأندلس بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير.

هذه الفتوحات حَفَل بها التاريخ العربي الإسلامي، خاصة خلال خلافة الوليد بن عبد الملك الذي مارس سياسة القوة تجاه الدول المجاورة. وتوالت الفتوحات، ولو بوتيرة أقل، في عهد الخلفاء الذين جاؤوا بعد الوليد وسليمان. وهذا ما سنفصّله في هذا الفصل.

١ – حصار القسطنطينية الثاني

في السنة الثامنة والتسعين قرر الخليفة سليمان بن عبد الملك توجيه جيش كبير إلى القسطنطينية لفتحها.

لخّص ابن خلدون غزوات المسلمين لبلاد الروم فكتب:[١]

«كانت الصوائف تعطلت من الشام منذ وفاة معاوية وحدوث الفِتَن، واشتدت

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٥٢-١٥٥.

الفتن أيام عبد الملك. اجتمعت الروم واستجاشوا على أهل الشام، فصالح عبد الملك صاحب قُسْطَنْطينيّة على أن يؤدي إليه كل يوم جمعة ألف دينار خشية منه على المسلمين ونظراً لهم، وذلك سنة سبعين لعشر سنين من وفاة معاوية. ثم لما قتل مُصْعَب وسكنت الفتنة بعث الجيوش سنة إحدى وسبعين في الصائفة. فدخل فافتتح قيساريّة، ثم ولّى على الجزيرة وأرمينية أخاه محمد بن مروان سنة ثلاث وسبعين، فدخل في الصائفة إلى بلاد الروم فهزمهم. ودخل عثمان بن الوليد من ناحية أرمينية في أربعة آلاف، ولقيه الروم في ستين ألفاً، فهزمهم وأثخن فيهم بالقتل والأسر. ثم غزا محمد بن مروان سنة أربع وسبعين، فبلغ انبولية وغزا في السنة بعدها في الصائفة من طريق مرعش، فدوّخ بلادهم وخرج الروم في السنة بعدها إلى العتيق، فغزاهم من ناحية مرعش ثانية. ثم غزاهم سنة ست وسبعين من ناحية مَلْطية ودخل في الصائفة سنة سبع وسبعين الوليد بن عبد الملك، فأثخن فيهم ورجع.

وجاء الروم سنة تسع وسبعين، فأصابوا من أهل أنطاكية وظفروا بهم، فبعث عبد الملك سنة إحدى وثمانين ابنه عبيد الله بالعسكر، ففتح قاليقلا. ثم غزا محمد بن مروان سنة اثنتين وثمانين أرمينية وهزمهم، فسألوه الصلح فصالحهم وولى عليهم أبا شيخ بن عبد الله فغدروه وقتلوه، فغزاهم سنة خمس وثمانين، وصاف فيها وشتّى. ثم غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم ودوّخها، ورجع وعاد إليها سنة سبع وثمانين، فأثخن فيهم بناحية المصَيْصة وفتح حصوناً كثيرة، منها حصن بُولَق والأخْزَم وبولُس وقَمْقيم. وقتل من المستعربة ألف مقاتل، وسبى أهاليهم. ثم غزا بلاد الروم سنة تسع وثمانين مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد، فافتتح مسلمة حصن سورية، وافتتح العباس اردولية ولقي جمعاً من الروم فهزمهم.

وقيل: إن مسلمة قصد عمورية فلقي بها جمعاً من الروم فهزمهم، وافتتح هرقلة وقُمولية. وغزا العباس الصائفة من ناحية البَلْذَبذُون. وغزا مسلمة بن عبد الملك الترك سنة تسع وثمانين من ناحية أذربيجان

ففتح حصوناً ومدائن هناك. ثم غزا سنة تسعين، ففتح الحصون الخمس التي بسورية. وغزا العباس حتى بلغ الأردن وسوريا.

وفي سنة إحدى وتسعين غزا عبد العزيز بن الوليد في الصائفة مع مسلمة بن عبد الملك. وكان الوليد قد ولّى مسلمة على الجزيرة وأرمينية، وعزل عمه محمد بن مروان عنها، فغزا الترك من ناحية أذربيجان حتى الباب، وفتح مدائن وحصوناً. ثم غزا سنة اثنتين وتسعين بعدها، ففتح ثلاثة حصون وجلا أهل سرسنّة إلى بلاد الروم. ثم غزا العباس بن الوليد سنة ثلاث بعدها بلاد الروم ففتح سُبَيْطِلة، وغزا مروان بن الوليد فبلغ حنجَرة. وغزا مسلمة ففتح ماشية وحصن الحديد وغزالة من ناحية مَلطية. وغزا العباس بن الوليد سنة أربع وتسعين، ففتح أنطاكية. وغزا عبد العزيز بن الوليد ففتح غزالة، وبلغ الوليد بن هشام المُعَيطيّ مروج الحمام، ويزيد بن أبي كَبْشة أرض سوريا.

وفي سنة خمس وتسعين غزا العباس الروم ففتح هرقلة. وفي سنة سبع وتسعين غزا مسلمة أرض الرضاخيّة وفتح الحصن الذي فتحه الرّصاع. وغزا عمر بن هُبَيْرة أرض الروم في البحر فشتّى بها، وبعث سليمان بن عبد الملك الجيوش إلى القسطنطينية، وبعث ابنه داود على الصائفة ففتح حصن المِراة. وفي سنة ثمان وتسعين مات ملك الروم، فجاء ألْقُون إلى سليمان فأخبره وضمن له فتح الروم. وسار سليمان إلى وَابِق وبعث الجيوش مع أخيه مسملة، ولما دنا من القسطنطينية أمر أهل المعسكر أن يحمل كل واحد مدّين من الطعام ويلقوه في معسكرهم، فصار أمثال الجبال، واتخذ البيوت من الخشب. وأمر الناس بالزراعة، وصاف وشتى وهم يأكلون من زراعتهم وطعامهم الذي استاقوه مدَّخَراً.

ثم جهد أهل القسطنطينية الحصار وسألوا الصلح على الجزية ديناراً على الرأس، فلم يقبل مسلمة. وبعث الروم إلى ألقون إن صرفت عنا المسلمين ملّكناك، فقال لمسلمة لو أحرقت هذا الزرع علم الروم أنك قصدتهم بالقتال فنأخذهم باليد، وهم الآن يظنون مع بقاء الزرع أنك تطاولهم. فأحرق الزرع فقوي الروم، وغدر القون

وأصبح محارباً، وأصاب الناس الجوع فأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق، وسليمان مقيم بوابق وحال الشتاءُ بينهم وبينه، فلم يقدر أن يمدهم حتى مات. وأغارت بِرْجان على مسلمة وهو في قلة فهزمهم وفتح مدينتهم. وغزا في هذه السنة الوليد بن هشام، فأثخن في بلاد الروم.

وغزا داود بن سليمان سنة ثمان وتسعين، ففتح حِصن المِراة مما يلي ملطية. وفي سنة تسع وتسعين بعث عمر بن عبد العزيز مسلمة وهو بأرض الروم، وأمده بالنفول بالمسلمين، وبعث إليه بالخيل والدواب وحثّ الناس على معونتهم. ثم أمر عمر بن عبد العزيز أهل طريدة بالجلاء عنها إلى ملطية وخرّبها. وكان عبدالله بن عبد الملك قد أسكنها المسلمين، وفرض على أهل الجزيرة مَسْلَحَة تكون عندهم إلى فصل الشتاء، وكانت متوغلة في أرض الروم فخربها عمر، وولى على ملطية جَعُونَة بن الحرث من بني عامر بن صَعْصَعَة. وأغزى عمر سنة مائة من الهجرة بالصائفة الوليد بن هشام المعيطي وعمر بن قيس الكِنْدِيّ».

أ - الظروف التي كانت تجتازها القسطنطينية:

كانت القسطنطينية تجتاز ظروفاً صعبة ساهمت في دفع المسلمين إلى تنفيذ مشروع الغزو. فقد سادت المدينة اضطرابات خطيرة بسبب الصراع على الحكم والثورات المتعاقبة ضد الإمبراطور، والضغوط التي كانت الشعوب المجاورة تمارسها على الدولة البيزنطية.

لقد تعاقب على العرش البيزنطي عدد من الأباطرة فشلوا في ضبط الوضع السياسي والعسكري والأمني للبلاد. وقتل يوستنيانوس الثاني الأخرم الذي عاصر عبد الملك والوليد، فخلفه فيليبوس ثم أنستاسيوس الثاني الذي كان قد نقل قيادته إلى جزيرة رودوس. وانطلق منها إلى شن غارات على ساحل بلاد الشام، كما قمع التحرّكات الإسلامية في آسيا الصغرى. لكن رودوس أعلنت العصيان عليه فانتهى الأمر بخلعه وتولية تيودوسيوس الثاني مكانه.

ثم تعرّض هذا الأخير بدوره إلى انقلاب نفذه حاكم عمورية الذي نصّب إمبراطوراً

ولقب بـ «ليون الثالث». وبعهده سيّر الخليفة الحملة الثانية لحصار القسطنطينية.

ب - إستعدادات للحملة:

نفّذت استعدادات كبرى للحملة فجرت تعبئة عامة للجيوش من مختلف الأمصار حتى بلغ عددها، حسب المؤرخين العرب، ١٢٠ ألف مقاتل بقيادة شقيق الخليفة القائد العربي الكبير مسلمة بن عبد الملك الذي خرج سنة ٩٨، ومعه جماعة من الفقهاء.

وكانت قد أرسلت صائفة في سنة ٩٧هـ، وبقيادة مسلمة وداود ابن الخليفة، مهمتها استطلاع أوضاع منطقة العمليات وفتح بعض الحصون على الطريق المؤدية إلى القسطنطينية لاستخدامها من أجل تموين الجيش وتأمين اللوجستية له.

ومن التحضيرات اللوجستية سُجّل أمر أصدره القائد مسلمة قضى بأن يحمل كل مقاتل معه على ظهر فرسه مدّين من الطعام. كما أخرجت الأعطية للجند وأنفقت فيهم الأموال الكثيرة قبل أن ينطلقوا باتجاه آسيا الصغرى.

وهكذا حُضّرت الحملة جيداً، وشاركت فيها جيوش من جميع الولايات الإسلامية. ورافق الجيوش البرية في الحملة أسطول بحري ضم سفناً عربية انطلقت من مصر وبلاد الشام ضم ١٢٠ ألف مقاتل.

ج - الحملة بحدّ ذاتها:

انطلقت الحملة من بلاد الشام وتوغلت الجيوش البرية في آسيا الصغرى وعبرت الدردنيل وعسكرت أمام أسوار المدينة. وانتقل الخليفة إلى دابق في شمال بلاد الشام لاستطلاع أخبار الحملة ومدّها بتوجيهاته.

أما الأسطول البحري العربي، فاتجه إلى بحر مرمرة وأكمل حصار القسطنطينية من جهة البحر.

لوجستياً، وبوصول جيش البر إلى جوار المدينة، جمع مسلمة الطعام الذي كان الجنود قد اصطحبوه معهم فكان كثيراً. لكنه أمر جنوده بتركه احتياطاً وبأن يأكلوا من ما يجدونه في بلاد الروم[1]. كما أعطى أوامره بزرع الأرض وانتظار الحصاد، وبإقامة

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص١٨٦.

بيوت من خشب للجند مؤكداً أنه لن يعود عن المدينة قبل أن يفتحها.

كانت وطأة الحصار شديدة على البيزنطيين الذين استبسلوا في الدفاع عن مدينتهم واستنجدوا بقبائل البلغار الذين راحت عصاباتهم تُغِير على أطراف الجيوش العربية.

وكان الطقس في تلك السنة شديد البرودة، فتألّبت الطبيعة مع الروم ضد الجيش الإسلامي. وتعرّض الأسطول لعواصف بحرية شديدة حطمت جزءاً كبيراً منه. كما استعمل البيزنطيون ضده النار الإغريقية التي راحوا يقصفون بها سفنه، فاحترق قسم كبير منها ولم يبق سوى القليل الذي لم يعد بإمكانه إعطاء أية نتيجة عسكرية ومتابعة الحصار البحري على المدينة.

وتحمل المسلمون المشقات وعجزوا عن فتح القسطنطينية للأسباب الآتية:

- منعة أسوار المدينة وصعوبة اقتحامها.
- الدفاع المستميت الذي واجههم الروم به.
- الغارات التي راح يشنها البلغار على أطراف الجيوش التي تحاصر المدينة.
- فقدان المؤن بعد أن طال أمد الحصار.
- شل الأسطول العربي وإخراجه من القتال وسيطرة الأسطول البيزنطي على البحر.
- منع البيزنطيين وصول أي مدد للجيوش المرابطة حول المدينة.
- الظروف الطبيعية والمناخية السيئة.

رغم كل هذه الظروف صبر مسلمة والجيش العربي على القتال وأبدوا ضروباً في الشجاعة والتضحية والاندفاع والاستبسال في المعركة دون أن يتمكن اليأس منهم أو يفكرون بالعودة.

د - نهاية الحصار:

كان مسلمة قد عمل برأي أحد وجهاء الروم واسمه «إليون». فلما اشتد الحصار على المدينة أرسل الروم إلى مسلمة يعرضون عليه إعطاءه ديناراً عن كل رأس فلم يقبل.[1]

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٠٤.

نقل ابن كثير وابن الأثير الرواية نفسها التي رواها ابن خلدون عن إحراق الزرع من قبل مسلمة بناءً على رأي إليون الذي وعده الروم بتمليكه عليهم. وتابع ابن كثير الرواية فكتب عن نهاية الحصار وعودة المسلمين عن المدينة:(١)

«أمر مسلمة بالطعام فأحرق. ثم انشمر إليون في السفن وأخذ ما أمكنه من أمتعة الجيش في الليل، وأصبح وهو بالبلد محارباً للمسلمين، وأظهر العداوة الأكيدة، وتحصّن بالبلد. واجتمعت عليه الروم، وضاق الحال على المسلمين حتى أكلوا كل شيء إلاّ التراب. فلم يزل ذلك دأبهم حتى جاءتهم وفاة سليمان بن عبد الملك وتولية عمر بن عبد العزيز فكرّوا راجعين إلى الشام».

هـ - نتائج الحملة:

وهكذا باءت بالفشل المحاولة العربية الإسلامية الثانية لفتح القسطنطينية والقضاء على الإمبراطورية البيزنطية رغم ما توفّر لها من المقوّمات والوسائل والشروط التي تساهم عادة في النصر؛ سواء بالاستعداد الكامل أو باختيار أبرز قائد عربي لقيادة الحملة، أو لجهة التعبئة العامة وإشراك جيوش من جميع الولايات التابعة للخلافة الأموية.

٢ - فتح جرجان وطبرستان

في السنة الثامنة والتسعين للهجرة غزا يزيد بن المهلب جرجان وطبرستان بعد أن كان قد أقنع الخليفة سليمان بن عبد الملك بضرورة فتحهما. وهكذا، ولاّه سليمان خراسان فأصبح هدفه الأول فتح جرجان، فسار إليها في مائة ألف من أهل الشام والعراق وخراسان، يضاف إليهم الموالي والمتطوّعة. ولم تكن جرجان يومئذ مدينة إنما كانت منتشرة في الجبال.

ابتدأ يزيد بمحاصرة قهستان وكان أهلها من الترك، فكانوا يخرجون فيقاتلون المسلمين فيهزمهم هؤلاء فيعودون إلى داخل مدينتهم.(٢)

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص ١٨٦-١٨٧.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٤٩.

فخرجوا في أحد الأيام واقتتلوا قتالاً شديداً فحمل محمد بن أبي سبرة على ملك الديلم وقتله.

وذات يوم خرج يزيد لاستطلاع مكان يدخل منه إلى المدينة وهو في أربعمائة من وجوه الناس وفرسانهم. هاجمهم الترك في أربعة آلاف حيث جرى قتال طوال ساعة من الزمن لم يتمكن الترك خلاله من هزيمة المسلمين رغم كثرتهم وقلة عدد هؤلاء.(١)

وبقي الوضع هكذا حتى شدّد المسلمون الحصار على قهستان وقطعوا عنها المواد الغذائية، فأرسل «صول» دهقان قهستان إلى يزيد يطلب منه أن يصالحه ويؤمّنه على نفسه وأهله وماله لقاء تسليمه المدينة وما فيها. قَبِل يزيد ودخل المدينة وصادر كل ما فيها من أموال وكنوز، وقتل أربعة عشر ألف تركي، وسبى الذراري وكتب بذلك إلى الخليفة.(٢)

ثم سار يزيد إلى جرجان التي كان أهلها قد امتنعوا عن أداء الجزية التي كان قد صالحهم علَيها سعيد بن العاص. وكانوا يجبون بين مائة ألف وثلاثمائة ألف سنوياً، قبل أن يمتنعوا ويمنعوا طريقهم على المسلمين. فلما وصل يزيد إلى جرجان استقبله أهلها بالصلح، فأجابهم إلى ذلك وفتح المدينة صلحاً واستخلف عليها رجلاً من الأزد في أربعة آلاف مقاتل.(٣)

وبعد فتح قهستان وجرجان طمع يزيد بطبرستان وعزم أن يسير إليها، فاستعمل عبد الله بن المعمر اليشكري على الساسان وقهستان وخلف معه أربعة آلاف مقاتل، ثم سار إلى بلاد طبرستان.

لخص ابن الأثير رواية دخول المسلمين إلى طبرستان والمعارك التي سبقت مصالحة صاحبها «الأصبهبذ» من قبل يزيد، فكتب:(٤)

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٠٥.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٥٧.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص١٨٨.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٠٦.

«ودخل بلاد طبرستان فأرسل إليه الأصبهبذ صاحبها يسأله الصلح وأن يخرج من طبرستان. فأبى يزيد ورجا أن يفتتحها، ووجه أخاه أبا عيينة من وجه، وابنه خالد بن يزيد من وجه، وأبا الجهم الكلبي من وجه. وقال: إذا اجتمعتم فأبو عيينة على الناس. فسار أبو عيينة وأقام يزيد معسكراً. واستجاش الأصبهبذ أهل جيلان، والديلم فالتقوا في سفح جبل فانهزم المشركون في الجبل، فاتبعهم المسلمون حتى انتهوا إلى فم الشعب. فدخله المسلمون وصعد المشركون في الجبل، واتبعهم المسلمون يرومون الصعود فرماهم العدو بالنشاب والحجارة فانهزم أبو عيينة والمسلمون يركب بعضهم بعضاً يتساقطون في الجبل حتى انتهوا إلى عسكر يزيد. وكفّ عدوهم عن اتباعهم وخافهم الإصبهبذ فكانت أهل جرجان ومقدمهم المرزبان يسألهم أن يبيتوا من عندهم من المسلمين وأن يقطعوا عن يزيد المادة والطريق فيما بينه وبين بلاد الإسلام، ويعدَهم أن يكافئهم على ذلك. فثاروا بالمسلمين فقتلوهم أجمعين وهم غارون في ليلة، وقتل عبد الله بن المعمر وجميع من معه فلم ينج منهم أحد».

وكتب أهل جرجان إلى الأصبهبذ بأخذ المضائق والطرق. عند هذا الحد كلف يزيد حياناً النبطي بالسعي إلى الصلح مع صاحب طبرستان الذي قبل بالصلح لقاء دفع سبعمائة ألف[١] وأربعمائة رجل، على كل منهم بُرنُس وطيلسان، ومع كل منهم جام فضة وكسوة وسَرَقة خزّ.[٢]

أرسل يزيد من يحمل إليه ما صالحهم عليه حيّان. ثم عاد إلى جرجان بعد أن استعمل على خراسان ابنه مخلداً، وعلى سمرقند وكش ونسف وبخارى ابنه معاوية، وعلى طخارستان حاتماً بن قبيضة بن المهلب. ودخل يزيد جرجان من دون أن يعترضه أحد.

---

(١) وقيل خمسمائة ألف، وقيل أربعمائة ألف.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٥٣.

٣ – فتح جرجان الثاني

بعد أن غدر أهل جرجان بالمسلمين فثاروا عليهم وقتلوا أربعة آلاف منهم، وبعد أن صالح يزيد دهقان قهستان، عاهد الله لئن ظفر بأهل جرجان أن لا يرفع السيف عنهم «حتى يطحن بدمائهم ويأكل من ذلك الطحين».[١]

نقل الطبري تفاصيل دقيقة عن محاصرة جرجان الحصينة وعن اكتشاف ثغرة ولج منها المسلمون إلى خلف المحاصرين فيما هاجمهم يزيد مواجهة، وانتصار المسلمين وانتقام يزيد، فكتب:[٢]

«وفي هذه السنة[٣] فتَح يزيد جُرْجان الفتح الآخر بعد غدرهم بجُنده ونقضهم العهد. قال علي، عن الرّهط الذي ذكر أنهم حدّثوه بخبر جرجان وطبرستان: ثم إن يزيد، لما صالح أهل طبرستان قصد لجرجان، فأعطى الله عهداً؛ لئن ظفِر بهم ألاّ يقلع عنهم، ولا يرفع عنهم السيف حتى يطحن بدمائهم، ويختبز من ذلك الطحين، ويأكل منه.

فلما بلغ المَرْزبان أنه قد صالح الأصبهبذ وتوجه إلى جرجان، جمع أصحابه وأتى وجاه، فتحصّن فيها، وصاحبها لا يحتاج إلى عُدّة من طعام ولا شراب. وأقبل يزيد حتى نزل عليها وهم متحصنون فيها، وحولها غِياض فليس يُعرف لها إلاّ طريق واحد. فأقام بذلك سبعة أشهر لا يقدر منهم على شيء، ولا يعرف لهم مأتى إلاّ من وجه واحد، فكانوا يخرجون في الأيام فيقاتلونه ويرجعون إلى حصنهم. فبَيْناهم على ذلك إذ خرج رجل من عجَم خراسان كان مع يزيد يتصيّد ومعه شاكريّة له.

وقال هشام ابن محمد، عن أبي مِخنَف: فخرج رجل من عسكره من طيّئ يتصيّد، فأبصر وَعِلاً يرقي في الجبل، فاتبعه، وقال لمن معه: قفوا مكانكم. ووقَل في الجبل

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٥٤.

(٢) المرجع نفسه، ص٥٤-٥٥.

(٣) السنة ٩٨هـ.

يقتصّ الأثر، فما شعر بشيء حتى هجم على عسكرهم، فرجع يريد أصحابه، فخاف ألاّ يهتدي، فجعل يُخرّق قباءه ويعقد على الشجر علامات، حتى وصل إلى أصحابه، ثم رجع إلى العسكر. ويقال: إن الذي كان يتصيد الهيّاج بن عبد الرحمن الأزديّ من أهل طوس، وكان منهوماً بالصيد. فلما رجع إلى العسكر أتى عامر بن أينم الواشجي صاحب شرطة يزيد، فمنعوه من الدخول، فصاح: إنّ عندي نصيحة.

وقال هشام عن أبي مخنف: جاء حتى رفع ذلك إلى ابن زَحْر بن قيس، فانطلق به ابنا زحر حتى أدخلاه على يزيد، فأعلمه، فضمن له بضمان الجُهنيّة (أم ولد كانت ليزيد) على شيء قد سماه.

وقال علي بن محمد في حديثه عن أصحابه: فدعا به يزيد فقال: ما عندَك؟ قال: أتريد أن تدخل وجاه بغير قتال؟ قال: نعم، قال: جَعالتي؟ قال: احْتَكِمْ، قال: أربعة آلاف؛ قال: لك ديّة، قال: عجّلوا لي أربعة آلاف، ثم أنتم بعدُ من وراء الإحسان. فأمر له بأربعة آلاف، وندَب الناس، فانتدب ألف وأربعمائة، فقال: الطريق لا يحمل هذه الجماعة لالتفاف الغياض، فاختار منهم ثلثمائة، فوجّههم، واستعمل عليهم جَهْم بن زحْر.

وقال بعضهم: استعمل عليهم ابنه خالد بن يزيد، وقال له: إن غُلبتَ على الحياة فلا تُغلبَنّ على الموت، وإياك أن أراك عندي منهزماً، وضمّ إليه جَهْم بن زَحْر. وقال يزيد للرجل الذي ندب الناس معه: متى تصل إليهم؟ قال: غداً عند العصر فيما بين الصلاتين، قال: امضوا على بركة الله؛ فإني سأجهد على مناهضتهم غداً عند صلاة الظهر. فساروا، فلما قارب انتصاف النهار من غد أمر يزيد الناس أن يُشعلوا النار في حطب كان جمعه في حصاره إياهم، فصيره آكاماً، فأضرموه ناراً؛ فلم تَزُل الشمس حتى صار حول عسكره أمثال الجبال من النيران. ونظر العدو إلى النار فهالهم ما رأوا من كثرتها فخرجوا إليهم. وأمر يزيد الناس حين زالت الشمس فصلّوا، فجمعوا بين الصلاتين، ثم زحفوا إليهم فاقتتلوا. وسار الآخرون بقيّة يومهم والغد، فهجموا على عسكر الترك قُبَيْل العصر، وهم آمنون من ذلك الوجه، ويزيد يقاتل من هذا الوجه، فما

شعروا إلاّ بالتكبير من ورائهم. فانقطعوا جميعاً إلى حصنهم، وركبهم المسلمون، فأعطوا بأيديهم، ونزلوا على حكم يزيد، فسبى ذراريهم، وقتل مقاتلتهم، وصلبهم فرسخين عن يمين الطريق ويساره، وقاد منهم اثني عشر ألفاً إلى الأندرهز - وادي جرجان. وقال: مَن طلبهم بثأر فليقتُل. فكان الرجل من المسلمين يقتل الأربعة والخمسة في الوادي، وأجرى الماء في الوادي على الدم، وعليه أرجاء ليطحن بدمائهم، ولتبرَّ يمينُه، فطحن واختبز وأكل وبنى مدينة جرجان. وقال بعضهم: قتل يزيد من أهل جرجان أربعين ألفاً، ولم تكن قبل ذلك مدينة ورجع إلى خراسان واستعمل على جرجان جَهْم بن زَحْر الجعفي».

وكتب يزيد بالفتح إلى الخليفة سليمان وأرسل له خمس ما جمع من الفيء فبلغت حصة بيت المال ستة ملايين.

٤ - وفاة الخليفة سليمان بن عبد الملك

في السنة التاسعة والتسعين توفي الخليفة سليمان بن عبد الملك يوم الجمعة لعشر ليال بقين من صفر، فكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام. وصلى عليه عمر بن عبد العزيز الذي أصبح خليفة بعده.(١)

نقل ابن خلدون أن سليماناً كان قد جعل الخلافة لعمر فكتب بعد البسملة الآتي:(٢)

«هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز: إني قد وليتك الخلافة بعدي، ومن بعدك يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله ولا تختلفوا فيُطمع فيكم».

وبعد تسلّمه الخلافة كتب عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة، وهو بأرض الروم، بالعودة منها، ووجّه له خيلاً وطعاماً كثيراً وحث

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣١١.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٦١.

الناس على إرسال المؤن للجيش العائد من حصار القسطنطينية.

٥ – ابتداء الدعوة العباسية

في السنة المائة الهجرية وجه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الدعاة إلى الأمصار.

ذكر ابن الأثير أسباب بدء الدعوة العباسية، فكتب:[١]

«سبب ذلك أن محمداً كان ينزل أرض الشراة من أعمال البلقاء بالشام، فسار أبو هشام عبد الله بن محمد بن الحنفية إلى الشام إلى سليمان بن عبد الملك فاجتمع به محمد بن علي فأحسن صحبته. واجتمع أبو هشام بسليمان فأكرمه وقضى حوائجه ورأى من علمه وفصاحته ما حسده عليه وخافه فوضع عليه من وقف على طريقه فسمّه في لبن. فلما أحس أبو هشام بالشر قصد الحُميمة من أرض الشراة وبها محمد فنزل عليه وأعلمه أن هذا الأمر صائر إلى ولده وعرّفه ما يعمل.

وكان أبو هاشم قد أعلم شيعته من أهل خراسان والعراق، عند ترددهم إليه، أن الأمر صائر إلى ولد محمد بن علي وأمرهم بقصده بعده. فلما مات أبو هاشم قصدوا محمداً وبايعوه وعادوا فدعوا الناس إليه فأجابوهم. وكان الذي سيّرهم إلى الآفاق جماعة، فوجّه ميسرة إلى العراق، ووجه محمد بن خنيس، وأبا عكرمة السراج (وهو أبو محمد الصادق) وحيان العطار خال إبراهيم بن سلمة إلى خراسان وعليها الجراح الحكمي، وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته فلقوا من لقوا.

ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم إلى محمد بن علي فدفعوها إلى ميسرة فبعث بها ميسرة إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس. فاختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علي اثني عشر رجلاً نقباء، منهم سليمان بن كثير الخزاعي، ولاهز بن قريط التميمي وقحطبة بن شبيب الطائي وموسى

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٢٢-٣٢٣.

بن كعب التميمي وخالد بن إبراهيم أبو داود من بني شيبان بن ذهل والقاسم بن مجاشع التميمي وعمران بن إسماعيل أبو النجم مولى آل أبي معيط ومالك بن الهيثم الخزاعي وطلحة بن زريق الخزاعي وعمرو بن أعين أبو حمزة مولى خزاعة وشبل بن طهمان أبو علي الهروي مولى لبني حنيفة وعيسى بن أعين مولى خزاعة. واختار سبعين رجلاً وكتب إليهم محمد بن علي كتاباً ليكون لهم مثالاً وسيرة يسيرون بها».

٦ – وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم

توفي الخليفة عمر بن عبد العزيز في رجب السنة إحدى ومائة بعد أن مرض مدة عشرين يوماً، ودفن بدير سمعان فكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر.[1]

وبويع بالخلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان بعهد من أخيه سليمان.[2]

٧ – هرب يزيد بن المهلب ومقتله

في السنة الحادية بعد المائة، ولما اشتد مرض عمر بن عبد العزيز، هرب يزيد بن المهلب من سجنه بعد أن أعد له خدمه إبلاً وخيلاً وواعدهم مكاناً يأتيهم فيه، فجاءهم وفرّ معهم إلى البصرة. وكتب إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً يقول:[3]

«إني والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك، ولكني خفت أن يلي يزيد فيقتلني شر قتلة».

وعندما تسلّم يزيد بن عبد الملك الخلافة كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن وإلى عدي بن أرطأة يأمرهما بأخذ من في البصرة من آل المهلب فأخذاهم وحبساهم.

وجاء يزيد البصرة وعليها عدي وقد خندق عليها.

أما عدي، فقد اجتمعت إليه جماعات

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٦٨.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٣١.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٦٧.

من الأزد وتميم وبكر وعبد القيس وأهل العالية أي قريش وكنانة وبجيلة والأزد وخثعم وقيس عيلان. لكن هؤلاء لم يتصدوا ليزيد عندما مرّ عليهم فكان لا يمر بخيل من خيلهم ولا قبيلة من قبائلهم إلاّ تنحّوا له عن طريقه.

في هذه الأثناء أرسل الخليفة الأمان ليزيد مع خالد القسري وعمر بن يزيد الحكمي.

أما يزيد، فقد أرسل مولى له حمل على بني عمرو بن تميم فهزمهم. كما لقيته قيس وتميم وأهل الشام فاقتتلوا، فانهزم أهل الشام. ثم خرج عدي بنفسه فانهزم أيضاً وألقى يزيد القبض عليه وحبسه.

عند هذا الحد هرب رؤوس أهل البصرة من تميم وقيس ومالك بن المنذر إلى الكوفة، ولحق بعضهم بالشام.

أما خالد القسري وعمرو بن يزيد الحكمي، فلما علما بسجن عدي، رجعا إلى الخليفة من دون إعطاء الأمان ليزيد.

عند هذا الحد، جهّز الخليفة جيشاً من سبعين ألف مقاتل، بقيادة شقيقه مسلمة وابن أخيه العباس بن الوليد، من أهل الشام والجزيرة، وسيّره إلى العراق، فبلغ الكوفة ونزل النخيلة.

ولما سمع أصحاب ابن المهلب بوصول مسلمة وجيش الشام، راعهم ذلك، لكن ابن المهلب خطب فيهم وشدّ عزائمهم، فاشتد أهل البصرة. وبعث يزيد بن المهلب عماله إلى الأهواز وفارس وكرمان وخراسان.

ثم أن يزيداً استخلف على البصرة أخاه مروان وسار منها حتى نزل واسطاً. وكان أخوه حبيب قد أشار عليه أن يخرج إلى فارس وينزل بالشعاب ويدنو من خراسان ويطاول أهل الشام، فتكون القلاع والحصون بيده[1]. لكنه لم يقبل.

ثم سار يزيد بن المهلب من واسط إلى العقْر وقدّم أخاه عبد الملك نحو الكوفة، فالتقى العباس بن الوليد بعبد الملك في سورا، فاقتتلا طويلاً في قتال حمل في بدايته عبد الملك على جيش الشام فهزمه.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٣٧.

لكن أهل الشام عادوا وكرّوا على عبد الملك فهزموه فعاد أصحابه والتحقوا بجيش الخليفة.[1]

من جهة أخرى، سار مسلمة بن عبد الملك بجيشه على شاطئ الفرات حتى نزل الأنبار وعبر الجسر باتجاه ابن المهلب الذي جاءته جماعات من الكوفة وعليهم عبد الله بن سفيان الأزدي، وعلى مذجح وأسد النعمان بن إبراهيم بن الأشتر، وعلى كندة وربيعة محمد بن إسحاق بن الأشعث، وعلى تميم وهمدان حنظلة بن عتاب بن ورقاء التميمي. وكلف يزيد شقيقه المفضل بن المهلب قيادة هذه المجموعات التي بلغت مائة وعشرين ألف مقاتل.[2]

أ - التحضيرات للمعركة:

فلما كان نهار الجمعة لأربع عشرة مضت من صفر السنة اثنتين ومائة، بعث مسلمة فأحرق الجسر وعبّأ جنود أهل الشام، فجعل على ميمنته جبلة بن مخرمة الكندي، وعلى ميسرته الهذيل بن زفر الكلابي. أما العباس بن الوليد فجعل على ميمنته سيفاً بن هانئ الهمداني، وعلى ميسرته سويداً بن القعقاع التميمي.[3]

وخرج يزيد بن المهلب وقد جعل على ميمنته حبيباً بن المهلب وعلى ميسرته المفضل بن المهلب.

ب - المعركة:

نقل ابن الأثير تفاصيل القتال الذي انتهى بهزيمة يزيد بن المهلب ومقتله، فكتب:[4]

«فخرج رجل من أهل الشام فدعا إلى المبارزة فبرز إليه محمد بن المهلب فضربه محمد فاتقاه الرجل بيده وعلى كفه كف من حديد. فضربه محمد فقطع الكف الحديد وأسرع السيف في كفه واعتنق فرسه

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٨٢.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٣٩.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٨٥.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٤٠-٣٤١.

فانهزم. فلما دنا الوضاح من الجسر ألهب فيه النار فسطع دخانه وقد أقبل الناس ونشبت الحرب ولم يشتد القتال. فلما رأى الناس الدخان وقيل لهم: أحرق الجسر انهزموا، فقيل ليزيد: قد انهزم الناس، فقال مم انهزموا، هل كان قتال ينهزم من مثله؟ فقيل له: احرقوا الجسر فلم يثبت أحد. فقال: قبّحهم الله بق دخن عليه فطار. ثم خرج ومعه أصحابه فقال: اضربوا وجوه المنهزمين ففعلوا ذلك بهم حتى كثروا عليه واستقبله أمثال الجبال، فقال: دعوهم فوالله إني لأرجو أن لا يجمعني وإياهم مكان أبداً. دعوهم يرحمهم الله غنم عدا في نواحيها الذئب، وكان يزيد لا يحدث نفسه بالفرار.

فلما رأى يزيد انهزام أصحابه قال: يا سميدع أرأيي أجود أم رأيك؟ ألم أعلمك ما يريد القوم؟ قال: بلى. فنزل سميدع ونزل يزيد في أصحابهما، وقيل: كان على فرس أشهب فأتاه آت فقال: إن أخاك حبيباً قد قُتِل، فقال: لا خير في العيش بعده قد كنت والله أبغض للحياة بعد الهزيمة وقد ازددت لها بغضاً امضوا قدماً. فعلموا أنه قد استقتل، فتسلل عنه من يكره القتال وبقي معه جماعة جنسه وهو يتقدم.[١] فكلما مر بخيل كشفها أو جماعة من أهل الشام عدلوا عنه. وأقبل نحو مسلمة لا يريد غيره، فلما دنا منه أدنى مسلمة فرسه ليركب، فعطف عليه خيول أهل الشام وعلى أصحابه فقتل يزيد والسميدع ومحمد بن المهلب. وكان رجل من كلب يقال له: القحل بن عياش، فلما نظر إلى يزيد قال: هذا والله يزيد والله لأقتلنه أو ليقتلني. فمن يحمل معي يكفيني أصحابه حتى أصل إليه؟ فحمل معه ناس فاقتتلوا ساعة وانفرج الفريقان عن يزيد قتيلاً وعن القحل بآخر رمقه، فأومأ إلى أصحابه يريهم مكان يزيد وأنه هو قاتله وأن يزيد قتله».

ولما قتل يزيد كان المفضّل بن المهلب يقاتل أهل الشام من دون أن يعلم بمقتل أخيه ولا بهزيمة جيشه. وكان، كلما حمل على خصمه انكشف جنده، فاقتتل الجانبان ساعة فانهزمت ربيعة. ثم قيل له: ما تصنع ههنا، وقد قتل يزيد وحبيب ومحمد

(١) في الطبري: جماعة حسنة.

وانهزم الناس منذ طويل؟ فتفرق الناس عنه وفرّ إلى واسط.[1]

وكان مسلمة قد أسر نحواً من ثلاثمائة أسير حبسوا في الكوفة، فأمر يزيد عبد الملك بقتلهم، ثم عفا عنهم بعد أن قتل عشرين منهم من قبيلة تميم.

أما معاوية بن يزيد بن المهلب، فكان قد كلفه والده بحراسة اثنين وثلاثين أسيراً. فعندما بلغته أخبار الهزيمة ضرب أعناقهم، وفيهم عدي بن أرطأة وابنه محمد.

ثم فرّ آل المهلب بقيادة المفضل إلى كرمان، فأرسل مسلمة عبد الملك الكلبي في طلبهم، فأدركهم بكرمان فاقتتلوا أشد قتال، فهزم آل المهلب وعاد قسم منهم إلى مسلمة فطلبوا الأمان فأمّنهم.[2]

أما تفاصيل القتال الأخير لآل المهلب فقد ذكره ابن كثير، فكتب:[3]

«ولما انتهت هزيمة يزيد بن المهلب إلى ابنه معاوية بن يزيد وهو بواسط، عمد إلى نحو من ثلاثين أسيراً في يده فقتلهم، منهم نائب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، عدي بن أرطأة رحمه الله وابنه، ومالك وعبد الملك ابنا مسمع، وجماعة من الأشراف. ثم أقبل حتى أتى البصرة ومعه الخزائن من الأموال، وجاء معه عمه المفضل بن المهلب إليه، فاجتمع آل المهلب بالبصرة فأعدوا السفن وتجهزوا أتم الجهاز واستعدوا للهرب. فساروا بعيالهم وأثقالهم فلم يزالوا سائرين حتى أتوا جبال كرمان فنزلوها. واجتمع عليهم جماعة ممن فل من الجيش الذي كان مع يزيد بن المهلب، وقد أمّروا عليهم المفضل بن المهلب، فأرسل مسلمة جيشاً عليهم هلال بن ماجور المحاربي في طلب آل المهلب. ويقال إنهم أمّروا عليهم رجلاً يقال له مدرك بن ضب الكلبي، فلحقهم بجبال كرمان فاقتتلوا هنالك قتالاً شديداً، فقتل جماعة من أصحاب المفضل وأسر جماعة من أشرافهم وانهزم بقيتهم. ثم لحقوا المفضل فقتل وحمل رأسه إلى مسلمة بن عبد

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٨٧.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٤٤.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص٢٣٤.

الملك. وأقبل جماعة من أصحاب يزيد بن المهلب فأخذوا لهم أماناً من أمير الشام منهم مالك بن إبراهيم بن الأشتر النخعي. ثم أرسلوا بالأثقال والأموال والنساء والذرية فوردت على مسلمة بن عبد الملك ومعهم رأس المفضل ورأس عبد الملك بن المهلب، فبعث مسلمة بالرؤوس وتسعة من الصبيان الحِسَان إلى أخيه يزيد بن عبد الملك، فأمر بضرب أعناق أولئك. ونصبت رؤوسهم بدمشق ثم أرسلها إلى حلب فنصبت بها. وحلف مسلمة بن عبد الملك ليبيعنّ ذراري آل المهلب، فاشتراهم منه بعض الأمراء إبراراً لقسمه بمائة ألف، فأعتقهم وخلى سبيلهم، ولم يأخذ مسلمة بن عبد الملك من ذلك الأمير شيئاً».

٨ – ولاية مسلمة العراق وخراسان

ولما فرغ مسلمة من حرب يزيد جمع له أخوه يزيد ولاية الكوفة والبصرة وخرسان واستعمله عليها فاستعمل مسلمة على خراسان سعيداً بن عبد العزيز بن الحرث بن الحكم.

وفي السنة اثنتين ومائة هجرية بايع الخليفة لهشام بن عبد الملك بولاية العهد ثم بعده لابنه الوليد، وكان يومذاك ابن إحدى عشرة سنة.

وفي خراسان استعمل سعيد بن عبد العزيز شعبة بن ظهير على سمرقند، ثم عزله عنها وولى مكانه عثمان بن عبد الله.(١)

٩ – غزوة الترك

وفي السنة الحادية بعد المائة غزا عامل سمرقند عثمان بن عبد الله بلاد الترك.

وكان الترك قد طمعوا بوالي سمرقند شعبة فساروا إلى الصغد وعليهم قائد اسمه «كورصول» ونزلوا قصر الباهلي.

نقل ابن خلدون رواية غزو عثمان بن عبد الله بلاد الترك وانتصاره عليهم، فكتب:(٢)

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٩٠-٩١.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، ص ١٧٤-١٧٥.

«لما وَلِي سعيد خراسان استضعفه الناس وسموه خُذَيْنة، واستعمل شُعْبة على سمرقند ثم عزله، وولّى مكانه عثمان بن عبد الله، ابن مُطْرِف بن الشِخِّير فطمعت الترك. وبعثهم خاقان إلى الصغُد، وعلى التُرْك كورصول وأقبلوا حتى نزلوا قصر الباهلي، وفيه مائة أهل بيت بذراريهم. وكتبوا إلى عثمان بسمرقند وخافوا أن يبطئ المدد، فصالحوا الترك على أربعين ألفاً، وأعطوهم سبعة عشر رجلاً رهينة. وندب عثمان الناس فانتدب المسيَّب بن بشر الرياحيّ، ومعه أربعة آلاف من سائر القبائل. فقال لهم المسيب من أراد الغزو والصبر على الموت فليتقدّم! فرجع عنه ألف، وقالها بعد فرسخ فرجع ألف آخر، ثم أعادها ثالثة بعد فرسخ فاعتزله ألف.

وسار حتى كان على فرسخين من العدو، فأخبره بعض الدهاقين بقتل الرهائن وميعادهم غداً. وقال: أصحابي ثلثمائة مقاتل وهم معكم. فبعث المسيب إلى القصر رجلين عجمياً وعربياً يأتيانه بالخبر. فجاءوا في ليلة مظلمة، وقد أجرت الترك الماء بدائر القصر لئلا يصل إليه أحد، فصاح بهما فقالا له: اسكت وادع لنا فلاناً. فأعلماه قرب العسكر وسألا هل عندكم امتناع غداً؟ فقال لهما: نحن مستميتون. فرجعا إلى المسيب فأخبراه، فعزم على تبييت الترك، وبايعه أصحابه على الموت، وساروا يومهم إلى الليل. ولما أمسى حثهم على الصبر وقال: ليكن شعاركم يا محمد، ولا تتبعوا مُوَلِّياً، واعقروا الدواب فإنه أشد عليهم. وليست بكم قلة فإن سبعمائة سيف لا يضرب بها في عسكر إلاّ أوهنته، وإن كثر أهله. ثم دنوا من العسكر في السَحر، وثار الترك وخالطهم المسلمون، وعقروا الدواب، وترجل المسيّب في أصحاب له فقاتلوا قتالاً شديداً، وقتل عظيم من عظماء الترك فانهزموا. ونادى منادي المسيَّب لا تتبعوهم، واقصدوا القصر واحملوا من فيه، ولا تحملوا من متاعهم إلاّ المال. ومن حمل امرأة أو صبياً أو ضعيفاً حِسْبة فأجره على الله، وإلاّ فله أربعون درهماً. وحملوا من في القصر إلى سمرقند، ورجع الترك من الغد فلم يروا في القصر أحداً. ورأوا قتلاهم فقالوا: لم يكن الذين جاءونا بالأمس».

١٠ - غزو الصّغد

كان أهل الصّغد قد نقضوا العهد وأعانوا الترك على المسلمين، فقال الناس لعامل سمرقند سعيد: «إنك قد تركت الغزو، وقد أغار الترك وأعانهم أهل الصغد».(١)

تجاوباً مع هذا التساؤل، قطع سعيد النهر في السنة الحادية بعد المائة وقصد الصغد غازياً. كتب ابن كثير عن هذه الغزوة:(٢)

«ثم أن سعيداً الملقب «خزينة» غزا بلاد الصغد وذلك لأنهم أعانوا الترك على المسلمين في هذه الغزوة التي ذكرناها، فسار إليهم فقاتلهم قتالاً شديداً حتى نصره الله عليهم وولوا مدبرين. وأخذ منهم أموالاً جزيلة، وقبض ما وجد لهم من الأموال والحواصل».

أما تفاصيل القتال فجاءت على قلم الطبري الّذي كتب:(٣)

«وسار المسلمون، فانتهوا إلى واد بينهم وبين المرج. فقال عبد الرحمن بن صبح: لا يقطعنّ هذا الوادي مجفف ولا راجل، وليعبر مَن سواهم. فعبروا، ورأتهم الترك، فأكمنوا كميناً، وظهرت لهم خيل المسلمين فقاتلوهم، فانحاز الترك، فأتبعوهم حتى جازوا الكمين، فخرجوا عليهم، فانهزم المسلمون حتى انتهوا إلى الوادي. فقال لهم عبد الرحمن بن صبح: سابقوهم، ولا تقطعوا فإنكم إن قطعتم أبادوكم. فصبروا لهم حتى انكشفوا عنهم، فلم يتبعوهم، فقال قوم: قُتِل يومئذ شُعبة بن ظُهَيْر وأصحابه. وقال قوم: بل انكشف الترك منهم يومئذ منهزمين، ومعهم جمع من أهل الصُّغد. فلما كان الغد، خرجت مسلحة للمسلمين - والمسلحة يومئذ من بني تميم - فما شعروا إلاّ بالترك معهم، خرجوا عليهم من غيضة وعلى خيل بني تميم شعبة بن ظُهير، فقاتلهم شعبة فقُتِل؛

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٩٤.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٩٤-٩٥.

أعجلوه عن الركوب. وقتل نحو من خمسين رجلاً، وانهزم أهل المسلحة. وأتى الناس الصريخ، فقال عبد الرحمن بن المهلب العدويّ: كنت أنا أوّل مَن أتاهم لما أتانا الخبر، وتحتي فرس جواد، فإذا عبد الله بن زهير إلى جنب شجرة كأنه قنفذ من النشّاب؛ وقد قتل. وركب الخيل بن أوس العبشميّ (أحد بني ظالم، وهو شاب) ونادى: يا بني تميم، أنا الخيل؛ إليّ! فانضمّت إليه جماعة، فحمل بهم على العدوّ، فكفّوهم ووزّعوهم عن الناس حتى جاء الأمير والجماعة. فانهزم العدو، فصار الخليل على خيل بني تميم يومئذٍ، حتى ولّى نصر بن سيار؛ ثم صارت رياسة بني تميم لأخيه الحكم بن أوس».

١١ - الوقعة بين نائب خراسان والصغد

وفي السنة الرابعة بعد المائة غزا سعيد بن عمرو الحرشي نائب خراسان أهل الصغد وحاصر أهل خجندة وقتل منهم خلقاً كثيراً، وأخذ أموالاً جزيلة، وأسر رقيقاً كثيراً جداً، وكتب بذلك إلى يزيد بن عبد الملك.

نقل الطبري خبر غزوة الحرشي هذه فكتب:[١]

«وخرج النّيلان ابن عم ملك فرغانة إلى الحرشي، وهو نازل على مُغون فقال له: إن أهل الصغد بخجندة. وأخبره خبرهم وقال: عاجلهم قبل أن يصيروا إلى الشعب، فليس لهم علينا جوار حتى يمضي الأجل. فوجّه الحرشي مع النيلان عبد الرحمن القشيريّ وزياد بن عبد الرحمن القشيريّ في جماعة. ثم ندم على ما فعل فقال: جاءني عِلْج لا أدري صدق أم كذب، فغرّرت بجند من المسلمين، وارتحل في أثرهم حتى نزل في أشْروسَنة، فصالحهم بشيء يسير. فبينما هو يتعشى إذ قيل له: هذا عطاء الدّبوسيّ - وكان فيمن وجهه مع القشيريّ - ففزع وسقطت اللقمة من يده. ودعا بعطاء، فدخل عليه، فقال: ويلك! قاتلتم أحداً؟ فقال: لا،

(١) الطبري، المرجع نفسه، ص١٠١.

قال: الحمد لله. وتعشى وأخبره بما قدم له عليه. فسار جواداً مغذا، حتى لحق القشيريّ بعد ثالثة، وسار فلما انتهى إلى خجندة، قال للفضل بن بسّام: ما ترى؟ قال: أرى المعالجة، قال: لا أرى ذلك، إن جُرح رجل فإلى أين يرجع! أو قتل قتيل فإلى مَن يُحمل! ولكني أرى النزول والتأني والاستعداد للحرب. فنزل فرفع الأبنية وأخذ في التأهب، فلم يخرج أحد من العدو. فجبّن الناس الحرشيّ، وقالوا: كان هذا يُذكر بأسه بالعراق ورأيه، فلما صار بخراسان ماق. قال: فحمل رجل من العرب، فضرب باب خجندة ففُتح الباب، وقد كانوا حفروا في ربَضهم وراء الباب الخارج خندقاً، وغطّوه بقصب، وغلّوه بالتراب مكيدة، وأرادوا إذا التقوا إن انهزموا أن يكونوا قد عرفوا الطريق، ويشكل على المسلمين، فيسقطوا في الخندق».

أكمل ابن الأثير رواية القتال الذي جرى بين الحرشي والصغد والذي انتصر فيه المسلمون فكتب:[1]

«فلما خرجوا قاتلوهم فانهزموا وأخطأهم الطريق فسقطوا في الخندق وأخرج منهم المسلمون أربعين رجلاً وحصرهم الحرشي ونصب عليهم المجانيق. فأرسلوا إلى ملك فرغانة: أنك غدرت بنا، وسألوه أن ينصرهم فقال: قد أتوكم قبل انقضاء الأجل ولستم في جواري. فطلبوا الصلح وسألوا الأمان وأن يردهم إلى الصغد. واشترط عليهم أن يردوا ما في أيديهم من نساء العرب وذراريهم وأن يؤدوا ما كسروا من الخراج ولا يغتالوا أحداً ولا يتخلف منهم بخجندة أحد، فإن أحدثوا حدثاً حلت دماؤهم. فخرج إليهم الملوك والتجار من الصغد وترك أهل خجندة على حالهم ونزل عظماء الصغد على الجند الذين يعرفونهم، ونزل كارزنج على أيوب بن أبي حسان. وبلغ الحرشي أنهم قتلوا امرأة ممن كان في أيديهم فقال لهم: بلغني أن ثابتاً قتل امرأة ودفنها فجحدوا. فسأل فإذا الخبر صحيح؛ فدعا بثابت إلى خيمته فقتله. فلما سمع كارزنج بقتله خاف أن يقتل وأرسل إلى ابن

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٥٩.

أخيه ليأتيه بسراويل وكان قد قال لابن أخيه: إذا طلبت سراويل فاعلم أنه القتل. فبعث به إليه وخرج واعترض الناس فقتل ناساً وتضعضع العسكر ولقوا منه شراً. وانتهى إلى ثابت بن عثمان بن مسعود فقتله ثابت، وقتل الصغد أسرى عندهم من المسلمين مائة وخمسين رجلاً، فأخبر الحرشي بذلك فسأل فرأى الخبر صحيحاً فأمر بقتلهم وعزل التجار عنهم. فقاتلهم الصغد بالخشب ولم يكن لهم سلاح فقتلوا عن آخرهم وكانوا ثلاثة آلاف، وقيل: سبعة آلاف، واصطفى أموال الصغد وذراريهم وأخذ منه ما أعجبه».

١٢ – ظفر الخزر بالمسلمين

في السنة عينها دخل جيش للمسلمين بلاد الخزر من أرمينيا بقيادة ثبيت النهراني، فاجتمعت الخزر في جمع كثير وأعانهم الترك، فالتقى الجمعان في مكان يعرف بـ «مرج الحجارة» فاقتتلوا قتالاً شديداً. قتل من المسلمين عدد كبير من المقاتلين وسيطر الخزر على معسكرهم وغنموا جميع ما فيه.(١)

١٣ – فتح بلنجر

بعد هزيمة المسلمين على يد الخزر، استعمل الخليفة يزيد الجراح بن عبد الله الحكمي على أرمينيا وأمدّه بجيش كبير وأمره بغزو الخزر. كتب ابن خلدون عن غزو الخزر وفتح حصن بلنجر:(٢)

«فولى على أرمينية الجرَّاح بن عبد الله الحكَميّ وأمده بجيش كثيف، وسار لغزو الخزر فعادوا لباب الأبواب. ونزل الجراح بردعة فأراح بها قليلاً. ثم سار نحوهم وعبر نهر الكُرّ، وأشاع الإقامة ليرجع بذلك عيونهم إليهم. ثم أسرى من ليلته وأجدّ السير إلى مدينة الباب، فدخلها وبثّ السرايا للنهب والغارة.

وزحف إليه التركمان وعليهم ابن ملكهم، فلقيهم عند نهر الزَّمان واشتدّ القتال

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص٣٦٠-٣٦١.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٨٠-١٨١.

بينهم. ثم انهزم التُركُمان وكثر القتل فيهم، وغنم المسلمون ما معهم، وساروا حتى نزلوا على الحِصن، ونزل أهلها على الامان فقتلهم. ثم سار إلى مدينة بَرْغوا فحاصرها ستة أيام، ثم نزلوا على الأمان ونفلهم. ثم ساروا إلى بلنجر، وقاتلهم التركمان دونها فانهزموا وافتتح الحصن عنوة، وغنم المسلمون جميع ما فيه، فأصاب الفارس ثلثمائة دينار، وكانوا بضعة وثلاثين ألفاً. ثم إن الجراح رجع حصن بلنجر إلى صاحبه، وردّ عليه أهله وماله، على أن يكون عيناً للمسلمين على الكفار. ثم نزل على حصن الوبيد وكان به أربعون ألف بيت من الترك، فصالحوا الجرّاح على مال أعطوه إياه. ثم تجمع الترك والتركمان وأخذوا الطرق على المسلمين، فأقام في رستاق سبى وكتب إلى يزيد بالفتح وطلب المدد، وكان ذلك آخر عمر يزيد. وبعث هشام بعد ذلك إليه بالمدد وأقرّه على العمل».

أما تفاصيل القتال حول حصن بلنجر، فقد ذكرها ابن الأثير، إذ كتب:(١)

«ثم سار الجراح إلى بلنجر وهو حصن مشهور من حصونهم فنازله. وكان أهل الحصن قد جمعوا ثلاثمائة عجلة فشدوا بعضها إلى بعض وجعلوها حول حصنهم ليحتموا بها وتمنع المسلمين من الوصول إلى الحصن، وكانت تلك العجلات أشد شيء على المسلمين في قتالهم. فلما رأوا الضرر الذي عليهم منها، انتدب جماعة منهم نحو ثلاثين رجلاً وتعاهدوا على الموت وكسروا جفون سيوفهم وحملوا حملة رجل واحد وتقدموا نحو العجل. وجدّ الكفار في قتالهم ورموا من النشاب ما كان يحجب الشمس، فلم يرجع أولئك حتى وصلوا إلى العجل وتعلقوا ببعضها وقطعوا الحبل الذي يمسكها وجذبوها فانحدرت وتبعها سائر العجل لأن بعضها كان مشدوداً إلى بعض. وانحدر الجميع إلى المسلمين والتحم القتال واشتد وعظم الأمر على الجميع حتى بلغت القلوب الحناجر. ثم إن الخزر انهزموا واستولى المسلمون على الحصن عنوة، وغنموا جميع ما فيه في ربيع الأول، فأصاب الفارس ثلاثمائة دينار وكانوا بضعة وثلاثين ألفاً».

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٦١-٣٦٢.

١٤ - وفاة يزيد بن عبد الملك

وفي السنة خمس ومائة توفي الخليفة يزيد بن عبد الملك لخمس بقين من شعبان، وكانت ولايته أربع سنين وشهراً، فاستخلف هشام بن عبد الملك لليال بَقَيْنَ من شعبان، وكان في حمص. فلما جاءه الخبر عزل عمراً بن هبيرة عن العراق وولى مكانه خالداً بن عبد الله القسري.

١٥ - الدروس والعبر والنتائج

أ - بعد أن تمكنت الجيوش العربية من فتح بلدان الشرق الأدنى وسيطر الأسطول العربي على البحر الأبيض المتوسط الشرقي، قررت الخلافة الأموية اعتماد استراتيجية جديدة في صراعها ضد الإمبراطورية البيزنطية تقضي بمهاجمتها في عقر دارها أي في عاصمتها القسطنطينية.

ولما كان الخليفة سليمان منغمساً في الملذات واللهو، فإن تسيير الحملة الضخمة التي حاصرت عاصمة الروم بعهده هو أمر يثير الدهشة والاستغراب، لا سيما وأن العرب كانوا قد انصرفوا عنها إلى جبهات أخرى نظراً لمناعة أسوارها وصعوبة فتحها.

إلاّ أننا نرى أن ما قام به الخليفة سليمان كان جزءاً من السياسة العسكرية العامة للدولة الرامية إلى توسيع رقعة الإمبراطورية والصراع ضد البيزنطيين.

علاوة على ذلك، تسلم سليمان الخلافة في وقت كان الحكم قد استتب واستقر وبلغ الانتعاش الاقتصادي ذروته عقب الإنجازات التي قام بها الخليفة السابق. لذلك، رغب سليمان في تحقيق مجد لنفسه، بالإشراف المباشر على فتح القسطنطينية، فيغطي به على أمجاد سلفه الوليد.

ب - خلال الحملة الثانية على القسطنطينية، أحسن القائد العربي مسلمة بن عبد الملك في تحضير اللوجستية لجيشه الكبير، فأمر كل فارس بأن يحمل معه مدّين من الطعام على ظهر فرسه، فأمّن بذلك تغذية الجيش لمدة طويلة. كما أمر بزرع الأرض وانتظار الحصاد، وأقام بيوتاً من الخشب للجنود، مؤكداً تصميمه على فتح المدينة.

وهكذا، طبّق مسلمة مبدَأَيْ الحرب، الثاني (حرية العمل) والثالث (الحصيل الأقصى للوسائل).

لكن مسلمة عاد وفقد حرية عمله بعد أن أحرق الزرع الذي زرعه رجاله فحرم جيشه من التموين الضروري لمتابعة الحملة إذ إنّ المسلمين جاعوا بعد أن أكلوا كل الطعام المتوفر لديهم. أما السبب الذي نقله المؤرخون عن إحراق الزرع، فإنه سبب واهن لا يقبله المنطق السليم.

ج - نقل الطبري أن أهل قهستان التي حاصرها المسلمون كانوا يخرجون من مدينتهم المحصّنة لمقاتلة المسلمين الذين يهزمونهم، فيعود أولئك إلى داخل مدينتهم.

وهنا لا بدّ من السؤال: لماذا لم يلاحق المسلمون المنهزمين ويمنعونهم من العودة إلى داخل المدينة؟

ولماذا كان الترك يخرجون مرات عدة إلى خارج الأسوار التي تحميهم متخلّين بذلك عن حرية عملهم أمام جيش عربي ضخم يهزمهم المرّة تلو المرّة؟

د - من الملاحظ في حصار قهستان وفتحها أن دهقان المدينة صالح المسلمين على تسليم المدينة لقاء أمانه وعائلته من دون الحامية التي قتل من أفرادها أربعة عشر ألفاً. وهذا ما يؤكد عدم الانسجام بين قائد قهستان وحاميتها، الأمر الذي أفقد المقاتلين روح الاندفاع والحوافز النفسية لإعطاء أقصى جهودهم في سبيل المصلحة العامة. هذا بعكس الجيش الإسلامي الذي كانت تسود عناصره روح جهادية عالية دأب قادتهم على غرسها في نفوسهم، الأمر الذي ساعدهم على تحقيق الحصيل الأقصى للوسائل.

هـ - أما يزيد بن المهلب، فقد اعتمد خلال حملته على جرجان وطبرستان استراتيجية تركيز حاميات في المدن المفتتحة لا سيما جرجان وقهستان، وذلك للحؤول دون استعادة السيطرة عليها من قبل الترك. هذه الاستراتيجية الجديدة حرمت الجيش من قسم من إمكاناته، لكنها أمنت عدم عودة المدن إلى الخروج عن طاعة المسلمين.

هذه المشكلة العسكرية واجهت جميع القادة الفاتحين الذين كانوا يقودون حملات بعيدة المدى، إذ إن المدن المفتتحة كانت تعود للخروج عن طاعة الفاتح بسبب عدم تركيز حاميات له فيها. لذلك، وبغية الاقتصاد بالقوى بهدف متابعة الحملة، كان الغزاة يعمدون إلى قتل جميع محاربي المدينة وسبي الذراري والأولاد، وأحياناً تدميرها كلياً. وهذا ما طبع الحروب القديمة بطابع العنف والقسوة.

و - خلال معركة طبرستان، أخطأ القادة المسلمون باقتحام شعب الجبال الضيّقة دون خطة مدروسة، ما أنزل بهم خسائر كبرى بالأرواح. فحسن استعمال الأرض ينبغي أن يكون هاجس القائد لأن أرض العمليات هي حليفة من يحسن استخدامها. لذلك خصص بند مهم في أمر العمليات التي تصدره القيادات العسكرية لدراسة أرض العمليات دراسة وافية.

في نفس الإطار، تَعْمَد الجيوش إلى إنشاء وحدات خاصة للعمل في البيئة التي تحيط بها. ففي البلاد الجبلية، تشكل وحدات مخصصة للقتال الجبلي كالقناصة اللبنانية وقناصة جبال الألب. وفي البلدان الباردة تشكل الجيوش وحدات من المتزلجين... إلخ.

ز - كانت مدينة جرجان حصينة جداً. لذلك امتنعت على المسلمين مدة سبعة أشهر لم يتمكن هؤلاء خلالها من اكتشاف طريق سهل إليها بسبب الغياض التي تحيط بها. وبقي هذا الوضع على حاله إلى أن لاحق أحدهم وعلاً داخل الغياض والجبال فاكتشف مسلكاً يقود إلى داخل معسكر الحامية. لذلك نرى أنه على القائد عدم إهمال أي إشارة أو عامل قد يساعده في معركته.

استغل القائد العربي المسلك المذكور فأرسل مفرزة لسلوكه، وقام في الوقت نفسه بمشاغلة الحامية بشن هجوم عام عليها. وهكذا تمكنت المفرزة من مفاجأة الترك ومهاجمة معسكرهم من جهة كانوا يعتبرون أنفسهم آمنين حيالها، فتمكنت من إنزال الهزيمة بهم.

وهكذا، أحسن القائد العربي تطبيق القواعد الاستراتيجية الآتية:

- حسن استعمال الأرض.
- المفاجأة.
- تمويه العملية العسكرية الرئيسية على العدو بهجوم مشاغلة.
- الحدّة والاستمرارية في الجهد.
- التصميم على الانتصار.

ح - تمكن يزيد بن المهلب من تأليب جماعات من المقاتلين حوله متحدياً الخليفة الأموي يزيداً بن عبد الملك، فجرت حروب طويلة بينهما هُزمت جيوش الخلافة في غالبيتها لأسباب أبرزها:

- حسن تنظيم ابن المهلب لجيوشه وتصميمه على المواجهة والانتصار.
- التفاف عائلته حوله وإعطائهم المثل الصالح لجنودهم الذين قادوهم بأنفسهم.
- شدة حوافز جند ابن المهلب وارتفاع معنوياتهم.
- الاستبسال في القتال كون خسارة المعركة تعني قتل المغلوبين فيها.

ط - أما مسلمة بن عبد الملك، فإنه سار على رأس جيش من سبعين ألف مقاتل لمحاربة ابن المهلب، فحقق بذلك مبدأ الحرب الأول (نسبية الأهداف للوسائل).

وفي معركة الأنبار حقق مسلمة مبدأ الحرب الثاني أي حرية العمل إذ إنه فرض على خصمه مكان المعركة وزمانها، واجتاز الجسر إليه بعد أن عبّأ جنوده ووزع المهمات على قادته. ثم أحرق الجسر ليمنع فرار مقاتلي ابن المهلب عبره بعد هزيمتهم. وقد صحّ ما توقع مسلمة إذ هزم ابن المهلب وقتل.

لقد ساهم إحراق الجسر في دبّ الرعب في نفوس مقاتلي ابن المهلب والحطّ من معنوياتهم، فراحوا يفرّون من القتال.

كما أحسن مسلمة بتطبيق استراتيجية «استغلال النصر»، فأمر بملاحقة آل المهلب وعدم الإفساح في المجال أمامهم لإعادة تنظيم صفوفهم أو الفرار بأموالهم التي تمكّن من مصادرتها.

وهكذا تمكّن مسلمة من الانتصار كونه طبّق مبادئ وقواعد الاستراتيجية العسكرية خير تطبيق. فالقائد الناجح يسعى إلى إدارة

معركته وفق الأصول العملانية والقواعد التي تدرّب عليها؛ فإذا نجح يكون قد نال مبتغاه، وإن فشل يكون قد عمل ما بوسعه.

ي - خلال غزو بلاد الترك كان عديد جيش المسلمين أربعة آلاف مقاتل بقيادة المسيّب بن بشر. ونظراً لصعوبة المهمة المكلّف بتنفيذها، خيّر المسيّب رجاله بين متابعة الحملة أو العودة، فعاد ثلاثة آلاف منهم لسبب عدم حماسهم. لكن المسيّب تمكن مع باقي الجيش من إنزال الهزيمة بالترك رغم تفوُّقهم العددي، وذلك كونه كان يقود جيشاً متماسكاً ومحفّزاً للقتال ومرتفع المعنويات، محققاً بذلك مبدأ «الحصيل الأقصى للوسائل».

لقد فضّل المسيّب القتال بجيش صغير ومنسجم العناصر بدلاً من جيش ضخم تسوده روح الانهزام والتردّد، فنجح في تنفيذ مهمته.

ك - بعد معارك عديدة بين الخزر والمسلمين، استعمل والي أرمينيا الجرّاح الحكمي الخدعة لمفاجأة أعدائه، فأشاع أنه مقيم من مكانه وسار بجيشه ليلاً فتمكن من مفاجأة الخزر وأنزل بهم هزيمة نكراء، وفتح حصوناً عديدة عنوة فغنم المسلمون ما فيها.

وفي حصاره بلنجر، قام الخزر بتحصين مواقعهم من خلال إقامة حاجز ضخم ضمّ ثلاثمائة عجلة محكمة الربط إلى بعضها البعض، الأمر الذي منع المسلمين من الوصول إلى الحصن. ورداً على ذلك، نفّذ المسلمون خطة جريئة أدت إلى هزيمة الخزر، وقضت بالآتي:

- تكليف فرقة من الأشدّاء بالتقدّم إلى مكان العجلات وإزالتها.
- تكليف رُماة السِّهام في الجيش بحماية تقدُّم الفرقة الانتحارية.

ويمكن تشبيه هذه الفرقة بوحدات العناصر الخاصة من المغاوير وقوات الصدم في الجيوش الحديثة، والتي تُكلَّف بالمهمات الصعبة والمعقدة، والتي يخضع أفرادها إلى تدريب جسدي يشمل تقنيات قتالية عالية.



الفصل الرابع

العمليات العسكرية في عهد هشام بن عبد الملك

مع تسلّم هشام بن عبد الملك الخلافة كانت الثورة العباسية ظهرت معالمها وبدأ دُعاتها يبثّون الدعوة في خراسان خاصة. ورغم أن الغزوات تتابعت في عهد هشام، فإن الخلافة الأموية كانت قد بدأت بالتراجع، فيما بدا أن الدعوة العباسية قد أصبحت على وشك الانتصار. ففي السنة التي تسلّم هشام الخلافة، قَدِم من السند بكير بن ماهان، فلقي أبا عكرمة الصادق، وميسرة، ومحمد بن خنيس، وسالماً الأعين، وأبا يحيى مولى بن سلمة، فذكروا له أمر دعوة بني هاشم، فقبل ذلك ورضيه وأنفق ما معه عليهم.(١)

لكن ذلك لم يمنع الأمويين من متابعة غزواتهم. ففي السنة نفسها، أي السنة الخامسة بعد المائة، غزا الجرّاح الحكمي «اللان»، وجازها إلى مدائن وحصون وراء بلنجر ففتح بعضها وأصاب غنائم كثيرة. وفيها كانت غزوة سعيد بن عبد الملك أرض الروم، فبعث سرية في نحو ألف مقاتل فأصيبوا جميعاً.

وفيها غزا مسلم بن سعيد الكلابي، أمير خراسان، الترك بما وراء النهر فلم يفتح شيئاً. تبعه الترك ولحقوه والناس يعبرون نهر جيحون وعلى الساقة عبيد الله بن زهير بن حيان على قبيلة تميم، فتصدّى هؤلاء للترك وقاموا بحماية المسلمين أثناء عبورهم النهر.(٢)

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص١١١.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٧١.

وغزا مسلم «أفشين» فصالح أهلها على ستة آلاف رأس.

وغزا مروان بن محمد الصائفة فافتتح قونية من أرض الروم، وكمخ.

١ – الوقعة بين مُضر واليمن بخراسان

في السنة السادسة بعد المائة كانت الوقعة بين المضرية واليمانية في أرض بلخ؟

كتب الطبري عن ظروف وأحداث الوقعة:[١]

«وكان سبب ذلك، فيما قيل، أن مسلم بن سعيد غزا، فقطع النهر، وتباطأ الناس عنه؛ وكان ممّن تباطأ عنه البخْتَريّ بن درهم. فلما أتى النّهر ردّ نصر بن سيار وسليم بن سليمان بن عبد الله بن خازم وبلعاء بن مجاهد بن بلعاء العنبريّ وأبا حفص بن وائل الحنظليّ وعُقبة بن شهاب المازنيّ وسالم بن ذؤابة إلى بلْخ، وعليهم جميعاً نصر بن سيار، وأمرهم أن يخرجوا الناس إليه. فأحرق نصر باب البَخْتريّ وزياد بن طريف الباهليّ، فمنعهم عمرو بن مسلم من دخول بلخ[٢]، وكان عليها. وقطع مسلم بن سعيد النهر فنزل نصر البَرُوقان، فأتاه أهل صغانيان، وأتاه مسلمة العُقْفانيّ من بني تميم، وحسان بن خالد الأسديّ؛ كلّ واحد منهما في خمسمائة. وأتاه سنان الأعرابيّ وزُرْعة بن علقمة وسلمة بن أوس والحجاج بن هارون النميريّ في أهل بيته. وتجمّعت بكْر والأزد بالبَروقان، رَأَسَهم البختريّ، وعَسْكَر بالبروقان على نصف فرسخ منهم. فأرسل نصر إلى أهل بلخ: قد أخذتم أعطياتكم فالحقوا بأميركم، فقد قطع النهر. فخرجت مُضَر إلى نصر، وخرجت ربيعة والأزد إلى عمرو بن مسلم، وقال قوم من ربيعة: إنّ مسلم بن سعيد يريد أن يخلع؛ فهو يُكْرِهنا على الخروج. فأرسلت

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص١١٤.

(٢) البختري وعمرو بن مسلم وزياد بن طريق الباهلي هم من اليمنيين، فيما مسلم بن سعيد ونصر بن سيار ومن معهم من المضريين.

تغلب إلى عمرو بن مسلم: إنك منا، وأنشدوه شعراً قاله رجل عزا باهلة إلى تغْلب - وكان بنو قتيبة من باهلة - فقالوا: إنّا من تغلب، فكرهتْ بكْر أن يكونوا في تغلب فتكثر تغلب.

وذكر أن بني مَعن من الأزد يُدْعَوْن باهلة، وذكر عن شريك بن أبي قيلة المعنيّ أن عمرو بن مسلم كان يقف على مجالس بني معْن، فيقول: لئن لم نكن منكم ما نحن بعرب؟ وقال عمرو بن مسلم حين عزاه التّغلبيّ إلى بني تغلب: أما القرابة فلا أعرفها، وأما المنع فإني سأمنعكم؛ فسفر الضحّاك بن مزاحم ويزيد بن المفضل الحُدّانيّ، وكُلَّما نصراً وناشداه فانصرف. فحمل أصحاب عمرو بن مسلم والبختريّ على نصر، ونادوا: يا آلَ بكر! وجالوا، وكرّ نصر عليهم؛ فكان أوّل قتيل رجل من باهلة، ومع عمرو بن مسلم البختريّ وزياد بن طريف الباهليّ، فقتِل من أصحاب عمرو بن مسلم في المعركة ثمانية عشر رجلاً. وقتِل كردان أخو الفُرافِصة ومَسْعَدة ورجل من بكر بن وائل يقال له إسحاق، سوى مَن قتِل في السكك. وانهزم عمرو بن مسلم إلى القصر وأرسل إلى نصر: ابعث إلى بلْعاء بن مجاهد، فأتاه بلعاء، فقال: خذْ لي أماناً منه، فأمّنه نصر، وقال: لولا أني أُشمِت بك بكر بن وائل لقتلتك.

وقيل: أصابوا عمرو بن مسلم في طاحونة، فأتوا به نصراً في عُنقه حبْل، فأمنه نصر، وقال له ولزياد بن طريف والبختريّ بن دِرْهَم: الحقوا بأميركم.

وقيل: بل التقى نصر وعمرو بالبُروقان، فقتل من بكر بن وائل واليمن ثلاثون. فقالت بكر: علام نقاتل إخواننا وأميرنا، وقد تقرّبنا إلى هذا الرجل فأنكر قرابتنا! فاعتزلوا. وقاتلت الأزْد، ثم انهزموا ودخلوا حصناً فحصرهم نصر، ثم أخذ عمرو بن مسلم والبختريّ أحد بني عبّاد وزياد بن طريف الباهليّ، فضربهم نصر مائة مائة، وحلق رؤوسهم ولحاهم، وألبسهم المُسوح. وقيل: أخذ البختريّ في غيضة كان دخلها».

٢ - غزوة الترك

ثم اجتاز مسلم بن سعيد النهر ولحق به بعض من أصحابه، وسار إلى فرغانة فبلغه أن خاقانها قد تحرك نحوه بجيش كبير.

نقل ابن الأثير تفاصيل القتال الذي خاضه مسلم ضد الترك، فكتب:[1]

«ثم قطع مسلم النهر ولحق به من لحق من أصحابه؛ فلما بلغ بخارى أتاه كتاب خالد بن عبد الله بولايته العراق ويأمر بإتمام غزاته، فسار إلى فرغانة. فلما وصلها بلغه أن خاقانها قد أقبل إليه وأنه في موضع ذكروه، فارتحل فسار ثلاث مراحل في يوم. وأقبل إليهم خاقان فلقي طائفة من المسلمين وأصاب دواب لمسلم وقتل جماعة من المسلمين وقتل المسيب بن بشر الرياحي والبراء (وكان من فرسان المهلب) وقتل أخو غوزك وثار الناس في وجوههم فأخرجوهم من العسكر. ورحل مسلم بالناس فسار ثمانية أيام وهم مطيفون بهم، فلما كان التاسعة أرادوا النزول فشاوروا الناس فأشاروا به وقالوا: إذا أصبحنا وَرَدْنا الماء والماء منا غير بعيد. فنزلوا ولم يرفعوا بناء في العسكر، وأحرق الناس ما ثقل من الآنية والأمتعة فحرقوا ما قيمته ألف ألف.

وأصبح الناس فساروا فوردوا النهر وأهل فرغانة، والشاش دونه. فقال مسلم بن سعيد: أعزم على كل رجل إلاّ اخترط سيفه، ففعلوا وصارت الدنيا كلها سيوفاً. فتركوا الماء وعبروا فأقام يوماً ثم قطع من غد وأتبعهم ابن لخاقان، فأرسل إليه حميد بن عبد الله وهو على الساقة: قف لي فإن خلفي مائتي رجل من الترك حتى أقاتلهم، وهو مثقل جراحة. فوقف الناس وعطف على الترك فقاتلهم وأسر أهل الصغد وقائدهم وقائد الترك في سبعة ومضى البقية، ورجع حميد فرُمي بنشابة في ركبته فمات.

قال الخزرج التغلبي: قاتلنا الترك فأحاطوا بنا حتى أيقنا بالهلاك، فحمل حوثرة بن يزيد بن الحر الحنيف على الترك في أربعة آلاف فقاتلهم ساعة ثم رجع. وأقبل نصر بن سيار في ثلاثين فارساً فقاتلهم حتى أزالهم عن مواضعهم فحمل عليهم الناس فانهزم الترك».

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٧٣ - ٣٧٤.

٣ – غزوة الختل والغور

في السنة السابعة بعد المائة غزا أسد بن عبد الله عامل خراسان الغور[1]، فعمد أهلها إلى أثقالهم فصيّروها إلى كهف ليس إليه طريق. فأمر أسد باتخاذ توابيت ووضع فيها الرجال، ودلاها بسلاسل فاستخرجوا ما قدروا عليه من الأثقال.

وفي السنة التالية قطع أسد النهر حيث قاتل الغوريين يوماً كاملاً. ثم عاد في الغد إلى قتالهم فانهزم المشركون وحوى المسلمون عسكرهم وأسروا وسبوا وغنموا الكثير.[2]

وفي السنة التاسعة بعد المائة عزل هشام بن عبد الملك خالداً بن عبد الله وأخاه أسداً عن خراسان، واستخلف عليها أشرس بن عبد الله السلمي.[3]

وفي هذه السنة غزا عبد الله بن عقبة الفهري في البحر، وغزا معاوية بن هشام أرض الروم ففتح حصناً يقال له طيبة. وفيها غزا مسلمة بن عبد الملك الترك من ناحية أذربيجان وسبى، كما غزا بشر بن صفوان عامل أفريقيا جزيرة صقلية، فغنم غنائم كثيرة، ثم عاد إلى القيروان.[4]

٤ – غزوة الصغد وبخارى

وفي السنة العاشرة بعد المائة خرج أشرس عامل خراسان في غزوة ذكرها الطبري فكتب:[5]

«قال عليّ: وخرج أشرس غازياً فنزل آمُل، فأقام ثلاثة أشهر، وقدّم قطن بن قُتَيْبة بن مسلم فعبر النهر في عشرة آلاف. فأقبل أهل الصُّغْد وأهل بخارى؛ معهم خاقان

(١) الغور هو جبال هراة.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٧٩.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص١٢٧.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٨٣.
(٥) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص١٣١-١٣٢.

والترك، فحصروا قطن بن قتيبة في خندقه، وجعل خاقان ينتخب كل يوم فارساً، فيعبر في قطعة من الترك النهر. وقال قوم: أقحموا دوابهم عرْياً، فعبروا وأغاروا على سرح الناس. فأخرج أشرس ثابت قُطْنة بكفالة عبد الله بن بِسْطام بن مسعود بن عمرو، فوجّهه مع عبد الله بن بسطام في الخيل فاتبعوا الترك، فقاتلوهم بآمُل حتى استنقذوا ما بأيديهم. ثم قطع الترك النهر إليهم راجعين. ثم عبر أشرس بالناس إلى قطن بن قتيبة، ووجّه أشرس رجلاً يقال له مسعود - أحد بني حيّان - في سرية، فلقيهم العدو، فقاتلوهم، فأصيب رجال من المسلمين وهزم مسعود؛ حتى رجع إلى أشرس.

وأقبل العدو، فلما كانوا بالقرب لقيَهم المسلمون فقاتلوهم، فجالوا جولة، فقتل في تلك الجولة رجال من المسلمين، ثم كرّ المسلمون وصبروا لهم، فانهزم المشركون. ومضى أشرس بالناس؛ حتى نزل بيكَنْد، فقطع العدو عنهم الماء، فأقام أشرس والمسلمون في عسكرهم يومهم ذلك وليلتهم، فأصبحوا وقد نفد ماؤهم، فاحتفروا فلم يُنبطوا. وعطشوا فارتحلوا إلى المدينة التي قطعوا عنهم المياه منها، وعلى مقدمة المسلمين قطن بن قتيبة، فلقيهم العدو فقاتلوهم، فجهدوا من العطش، فمات منهم سبعمائة، وعجز الناس عن القتال، ولم يبق في صف الرباب إلاّ سبعة. فكاد ضرار بن حصين يُؤسَر من الجهد الذي كان به، فحض الحارث بن سُريج الناس، فقال: أيها الناس، القتل بالسيف أكرم في الدنيا وأعظم أجراً عند الله من الموت عطشاً. فتقدم الحارث بن سُريج وقطن بن قتيبة وإسحاق بن محمد، ابن أخي وكيع، في فوارس من بني تميم وقيس، فقاتلوا حتى أزالوا الترك عن الماء، فابتدره الناس فشربوا وارتووا.

قال: فمرّ ثابت قطنة بعبد الملك بن دثار الباهلي، فقال له: يا عبد الملك، هل لك في آثار الجهاد؟ فقال: أنظِرْني ريثما أغتسل وأتحنّط. فوقف له حتى خرج ومضيا، فقال ثابت لأصحابه: أنا أعلم بقتال هؤلاء منكم. وحضّهم، فحملوا على العدو، واشتد القتال، فقُتل ثابت في عدة من المسلمين؛ منهم صخر بن مسلم بن النعمان العبدي وعبد الملك بن دثار الباهلي والوجيه الخراساني

والعقّار بن عقبة العوديّ. فضمّ قطن بن قتيبة وإسحاق بن محمد بن حسان خيلاً من بني تميم وقيس؛ وتبايعوا على الموت، فأقدموا على العدو، فقاتلوهم فكشفوهم. وركبهم المسلمون يقتلونهم؛ حتى حجزهم الليل، وتفرّق العدو. فأتى أشرس بخارى فحصر أهلها.

قال علي: ويقال إن أشرس قطع النهر، ونزل بيكنْد؛ فلم يجد بها ماء؛ فلما أصبحوا ارتحلوا، فلما دنوا من قصر بخاراخداه (وكان منزله منهم على ميل) تلقّاهم ألف فارس، فأحاطوا بالعسكر وسط زهج الغبار، فلم يكن الرجل يقدر أن ينظر إلى صاحبه. قال: فانقطع منهم ستة آلاف، فيهم قطن بن قتيبة وغوّزك من الدّهاقين، فانتهوا إلى قصر من قصور بخارى، وهم يرون أن أشرس قد هلك، وأشرس في قصور بخارى. فلم يلتقوا إلاّ بعد يومين، ولحق غوزك في تلك الوقعة بالترك، وكان قد دخل القصر مع قطن، فأرسل إليه قطن رجلاً، فصاحوا برسول قطن؛ ولحق بالترك».

٥ – وقعة كمرجة

في السنة العاشرة بعد المائة جرى قتال في كمرجة بين المسلمين وخاقان ملك الترك الأعظم. وسبب الوقعة أن خاقان هاجم مدينة «كمرجة» وهي من أهم بلدان خراسان، وفيها جمع من المسلمين. وكان مع خاقان أهل فرغانة وأفشينة ونسف وبعضٌ من أهل بخارى.[١]

أغلق المسلمون باب المدينة وقطعوا القنطرة التي على الخندق حولها، فقام خاقان بإرسال ابن خسرو بن يزيدجرد الذي طلب من المسلمين الاستسلام لقاء الأمان لهم فرفضوا وشتموه. عاد خاقان وأرسل رسولاً آخراً فرفض المسلمون أيضاً في تفاصيل ذكرها ابن الأثير إذ كتب:[٢]

«وأتاهم بازغرى في مائتين، وكان داهية وكان خاقان لا يخالفه، فدنا من المسلمين بأمان وقال: لينزل إليّ رجل منكم أكلمه بما أرسلني به خاقان، فأحدروا يزيد بن سعيد الباهلي، وكان يفهم بالتركية يسيراً.

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص١٣٣.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٨٧.

فقال له: إنّ خاقان أرسلني وهو يقول: إني أجعل من عطاؤه منكم ستمائة ألفاً ومن عطاؤه ثلاثمائة ستمائة وهو يحسن إليكم. فقال يزيد: كيف تكون العرب وهم ذئاب مع الترك وهم شياه؟ لا يكون بيننا وبينكم صلح. فغضب بازغرى وكان معه تركيّان فقالا: ألا تضرب عنقه فقال: إنه نزل بأمان. وفهم يزيد ما قالا فخاف فقال: بلى إنما تجعلون نصفين فيكون نصفنا مع أثقالنا ويسير النصف معكم، فإن ظفرتم فنحن معكم، وإن كان غير ذلك كنا كسائر مدائن الصغد. فرضوا بذلك وقال: أعرض على أصحابي هذا.

وصعد في الحبل، فلما صار على السور نادى: يا أهل كمرجة اجتمعوا فقد جاءكم قوم يدعونكم إلى الكفر بعد الإيمان فما ترون؟ قالوا: لا نجيب ولا نرضى. قال: يدعونكم إلى قتال المسلمين مع المشركين، قالوا: نموت قبل ذلك. فرد بازغرى ثم أمر خاقان بقطع الخندق. فجعلوا يلقون الحطب الرطب ويلقي المسلمون الحطب اليابس حتى سوى الخندق ليقطعوا إليهم فأشعلوا فيه النيران وهاجت ريح شديدة، صنعاً من الله، فاحترق الحطب، وكانوا جمعوه في سبعة أيام، في ساعة واحدة. ثم فرّق خاقان على الترك أغناماً وأمرهم أن يأكلوا لحمها ويحشوا جلودها تراباً ويكبسوا خندقها ففعلوا ذلك. فأرسل الله سحابة فمطرت مطراً شديداً فاحتمل السيل ما في الخندق وألقاه في النهر الأعظم. ورماهم المسلمون بالسهام فأصابت بازغرى نشابة في سرّته فمات من ليلته فدخل عليهم بموته أمر عظيم. فلما امتد النهار جاؤوا بالأسرى الذين عندهم وهم مائة، فيهم أبو العوجاء العتكي والحجاج بن حميد النضري فقتلوهم ورموا برأس الحجاج. وكان عند المسلمين مائتان من أولاد المشركين رهائن فقتلوهم واستماتوا واشتد القتال.

ولم يزل أهل كمرجة كذلك حتى أقبلت جنود العرب فنزلت فرغانة، فعيّر خاقان أهل الصغد وفرغانة والشاش والدهاقين وقال: زعمتم أن في هذه خمسين حماراً وأنّا نفتحها في خمسة أيام، فصارت الخمسة شهرين. وأمرهم بالرحيل وشتمهم، فقالوا: ما ندع جهداً، فاحضرنا غداً وانظر ما نصنع. فلما

كان الغد وقف خاقان وتقدّم ملك الطاربندة فقاتل المسلمين فقتل منهم ثمانية. وجاء حتى وقف على ثلمة إلى جنب بيت فيه مريض من تميم فرماه التميمي بكلوب فتعلق بدرعه. ثم نادى النساء والصبيان فجذبوه فسقط لوجهه ورماه رجل بحجر فأصاب أصل أذنه فصرع، وطعنه آخر فقتله فاشتدّ قتله على الترك. وأرسل خاقان إلى المسلمين أنه ليس من رأينا أن نرتحل عن مدينة نحاصرها دون افتتاحها فترحلوا أنتم عنها. فقالوا له: ليس من ديننا أن نعطي بأيدينا حتى نقتل فاصنعوا ما بدا لكم. فأعطاهم الترك الأمان أن يرحل خاقان عنهم ويرحلوا هم عنها إلى سمرقند أو الدبوسية. فرأى أهل كمرجة ما هم فيه من الحصار فأجابوا إلى ذلك فأخذوا من الترك رهائن أن لا يعرضوا لهم، وطلبوا أن كورصول التركي يكون معهم في جماعة ليمنعهم إلى الدبوسية. فسلموا إليهم الرهائن وأخذوا أيضاً هم من المسلمين رهائن وارتحل خاقان عنهم ثم رحلوا بعده.

فقال الأتراك الذين مع كورصول: إن بالدبوسية عشرة آلاف مقاتل ولا نأمن من أن يخرجوا علينا، فقال لهم المسلمون: إن قاتلوكم قاتلناهم معكم فساروا. فلما صار بينهم وبين الدبوسية فرسخ نظر أهلها إلى الفرسان فظنوا أن كمرجة فتحت وإن خاقان قد قصدهم فتأهبوا للحرب. فأرسل المسلمون إليهم يخبرونهم خبرهم وحملوا من كان يضعف عن المشي ومن كان مجروحاً. فلما بلغ المسلمون الدبوسية أرسلوا إلى من عنده الرهائن يعلمونه بوصولهم ويأمرونه بإطلاقهم. فجعلت العرب تطلق رجلاً من الرهن والترك رجلاً حتى بقي سباع بن النعمان مع الترك ورجل من الترك عند العرب وجعل كل فريق يخاف من صاحبه الغدر. فقال سباع: خلوا رهينة الترك فخلوه وبقي سباع مع الترك فقال له كورصول: ما حملك على هذا؟ قال: وثقت بك وقلت: ترفع نفسك عن الغدر. فوصله كورصول وأعطاه سلاحه وبرذوناً وأطلقه. وكان مدة حصار كمرجة ثمانية وخمسين يوماً فيقال: إنهم لم يسقوا إبلهم خمسة وثلاثين يوماً».

وفي السنة إياها غزا مسلمة بن عبد الملك من باب اللان فلقي خاقان في

جموعه فاقتتلوا قريباً من شهر وأصابهم مطر شديد فانهزم خاقان وعاد مسلمة.

وفيها أيضاً فتح المسلمون مدينة «حملة».

٦ - مقتل الجرّاح الحكمي

في السنة الحادية عشرة بعد المائة عزل الخليفة هشام أخاه مسلمة عن ولاية أرمينيا وعيّن عليها الجرّاح بن عبد الله الحكمي، الذي دخل بلاد الخزر من ناحية تفليس ففتح مدينتهم البيضاء. جمعت الخزر وحشدت جموعها وسارت إلى بلاد الإسلام، وذلك في السنة الثانية عشرة بعد المائة، بعد أن اجتمعت إليها جماعات من الترك من ناحية «اللان»[١].

تصدّى لهم الجرّاح الحكمي في من معه من أهل الشام، فاقتتلوا أشد قتال وصبر الفريقان. وتكاثرت أعداد الخزر والترك على المسلمين، فاستشهد الجراح ومن معه بمرج أردبيل[٢]. واستولى العدو على أردبيل.

ولما قتل الجراح طمع الخزر والترك وأوغلوا في البلاد حتى قاربوا الموصل.

فلما بلغ الخبر هشاماً بن عبد الملك أرسل جيشاً لملاقاتهم لخّص أخباره ابن كثير إذ كتب:[٣]

«فلما بلغ ذلك هشام بن عبد الملك بعث سعيد بن عمرو الجرشي بجيش وأمره بالإسراع إليهم. فلحق الترك وهم يسيرون بأسرى المسلمين نحو ملكهم خاقان، فاستنقذ منهم الأسرى ومن كان معهم من نساء المسلمين، ومن أهل الذمة أيضاً. وقتل من الترك مقتلة عظيمة جداً، وأسر منهم خلقاً كثيراً فقتلهم صبراً، وشفى ما كان تغلث من القلوب. ولم يكتف هشام بن عبد الملك بذلك حتى أرسل أخاه مسلمة بن عبد الملك في أثر الترك، فسار إليهم في برد شديد وشتاء عظيم، فوصل إلى باب الأبواب واستخلف عنه أميراً وسار هو بمن معه في طلب الأتراك وملكهم خاقان».

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٩٠.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص٣١٦.

(٣) المرجع نفسه.

٧ – وقعة الشعب بين الجنيد وخاقان

في السنة الحادية عشرة بعد المائة عزل الخليفة هشام بن عبد الملك أشرس بن عبد الله عن ولاية خراسان، وولّى مكانه الجُنيد بن عبد الرحمن بن عمر المُرّيّ.

قدم الجنيد خراسان في خمسمائة مقاتل، ثم استخلف على مرو المُجشر بن مزاحم السلمي، وعلى بلخ سورة بن أبجر التميمي، وسار إلى ما وراء النهر. وأرسل إلى أشرس، الذي كان يقاتل أهل بخارى والصغد، أن يعززه بسرية مقاتلين خوفاً من أن يعترضه العدو.(١)

نقل ابن خلدون خبر القتال خلال اعتراض الترك للجنيد، فكتب:(٢)

«فبعث إليه أشرس عامر بن مالك الجابي، فعرض له الترك والصغد فقاتلوهم. ثم استداروا وراء معسكر الترك وحمل المسلمون عليهم من أمامهم، فانهزم الترك. ولحق عامر بالجنيد، فأقبل معه، وعلى مقدمته عمارة بن حُريم، واعترضه الترك فهزمهم».

وفي السنة الثانية عشرة بعد المائة خرج الجنيد غازياً إلى طخارستان، فوجه عمارة بن حُريم في ثمانية عشر ألفاً، وإبراهيم بن بسام الليثي في عشرة آلاف. وجاشت الترك فأتوا سمرقند وعليها سورة بن الحر، فكتب سورة إلى الجنيد أن خاقان يهاجمه وطلب منه العون.(٣)

أراد الجنيد أن يسير بنفسه إلى سمرقند، فأشار عليه صحبه بضرورة جمع جيشه للتصدي لخاقان.

نقل ابن الأثير خبر القتال بين الجنيد وخاقان، فكتب:(٤)

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٨٩-١٩٠.
(٢) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص١٩٠.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص١٤٠.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٩٦-٣٩٧.

«ثم سار بالناس حتى صار بينه وبين سمرقند أربع فراسخ، ودخل الشعب. فصبحه خاقان في جمع عظيم وزحف إليه أهل الصغد وفرغانة والشاش وطائفة من الترك، فحمل خاقان على المقدمة وعليها عثمان بن عبد الله بن الشخير فرجعوا إلى العسكر والترك تتبعهم وجاؤوهم من كل وجه. فجعل الجنيد تميماً والأزد في الميمنة، وربيعة في الميسرة مما يلي الجبل، وعلى مجففة خيل بني تميم عبيد الله بن زهير بن حيان، وعلى المجردة عمرو بن جرقاش المنقري، وعلى جماعة بني تميم ابن مالك الحماني، وعلى الأزد عبد الله بن بسطام بن مسعود بن عمرو، وعلى المجففة والمجردة فضيل بن هناد، وعبد الله بن حوذان. فالتقوا وقصد العدو الميمنة لضيق الميسرة فترجّل حسان بن عبيد الله بن زهير بين يدي أبيه فأمره أبوه بالركوب فركب. وأحاط العدو بالميمنة فأمدّهم الجنيد بنصر بن سيار فشد هو ومن معه على العدو فكشفوهم، ثم كروا عليهم وقتلوا عبيد الله بن زهير وابن جرقاش والفضيل بن هناد. وجالت الميمنة والجنيد واقف في القلب فأقبل إلى الميمنة ووقف تحت راية الأزد - وكان قد جفاهم - فقال له صاحب الراية: ما هلكنا فجئت لتكرمنا ولكنك علمت أنه لا يوصل إليك ومنا رجل حي فإن ظفرنا كان لك وإن هلكنا لم تبكِ علينا، وتقدم فقتل. وأخذ الراية ابن مجاعة فقتل وتداولها ثمانية عشر رجلاً فقتلوا. وقتل يومئذ من الأزد ثمانون رجلاً. وصبر الناس يقاتلون حتى أعيوا فكانت السيوف لا تقطع شيئاً فقطع عبيدهم الخشب يقاتلون به حتى ملّ الفريقان فكانت المعانقة ثم تحاجزوا. وقتل من الأزد عبد الله بن بسطام ومحمد بن عبد الله بن حوذان والحسن بن شيخ، والفضيل صاحب الخيل ويزيد بن الفضل الحداني، وكان قد حج فأنفق في حجته ثمانين ومائة ألف. وقال لأمه وحشية: ادعي الله أن يرزقني الشهادة فدعت له وغشي عليها فاستشهد بعد مَقْدَمِهِ من الحج بثلاثة عشر يوماً. وقتل النضر بن راشد العبدي، وكان دخل على امرأته والناس يقتتلون فقال لها: كيف أنت إذا أتيت بأبي ضمرة في لبد مضرّجاً بالدم. فشقت جيبها ودعت بالويل، فقالت له: حسبك لو أعولت على كل أنثى

لعصيتها شوقاً إلى الحور العين، فرجع وقاتل حتى استشهد رحمه الله. فبينما الناس كذلك إذ أقبل رهج وطلعت فرسان فنادى منادي الجنيد الأرض الأرض فترجل وترجل الناس. ثم نادى ليخندق كل قائد على حياله فخندقوا وتحاجزوا، وقد أصيب من الأزد مائة وتسعون رجلاً وكان قتالهم يوم الجمعة. فلما كان يوم السبت قصدهم خاقان وقت الظهر فلم ير موضعاً للقتال أسهل من موضع بكر بن وائل - وعليهم زياد بن الحرث - فقصدهم، فلما قربوا حملت بكر عليهم فأفرجوا لهم فسجد الجنيد واشتد القتال بينهم».

وأكمل ابن كثير رواية القتال، فكتب:(١)

«ثم تناخى المسلمون وتداعت الأبطال والشجعان من كل مكان، وصبروا وصابروا، وحملوا على الترك حملة رجل واحد، فهزمهم الله عز وجل وقتلوا منهم خَلْقاً كثيراً. ثم عطفت الترك عليهم فقتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً حتى لم يبق سوى ألفين، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وقتل يومئذ سودة بن أبجر واستأسروا من المسلمين جماعة كثيرة وحملوهم إلى الملك خاقان فأمر بقتلهم عن آخرهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وهذه الوقعة يقال لها وقعة الشعب».

وأكمل ابن خلدون رواية القتال أيضاً الذي كان سجالاً بين المسلمين وخاقان ولم ينتصر فيه أحد رغم الخسائر الكثيرة التي نزلت بالطرفين. كتب ابن خلدون:(٢)

«وأشار أصحاب الجنيد عليه بأن يبعث إلى سورة بن أبجر من سمرقند ليتقدم الترك إليه ليكون لهم شغل به عن الجنيد وأصحابه. فكتب يستقدمه فاعتذر، فأعاد عليه وتهدده وقال: أخرج وسر مع النهر لا تفارقه. فلما خرج هو استبعد طريق النهر، واستخلف على سمرقند موسى بن أسود الحَنْظلي. وسار محمد في اثني عشر ألفاً حتى إذا بقي بينه وبين الجنيد وعساكره

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص٣١٧.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٩٣-١٩٥.

فراسخ لقيه خاقان عند الصباح، وحال بينهم وبين الماء وأضرم النار في اليبس حواليهم، فاستماتوا وحملوا، وانكشف الترك وأظلم الجوّ بالعجاج. وكان من وراء الترك لهب سقط فيه جميع العدوّ والمسلمون وسقط سورة فاندقت فخذه. ثم عطف الترك فقتلوا المسلمين ولم يبق منهم إلاّ القليل، وانحاش بالناس المهلب بن زياد والعجمي في ستمائة أو ألف، ومعه قريش بن عبد الله العبدي إلى رَستاق المرْغاب، وقاتلوا بعض قصوره، فأصيب المهلب وولوا عليهم الرَحْب بن خالد.

وجاءهم الإسكيد صاحب نسْف وغورك ملك الصغْد فنزلوا معه إلى خاقان، فلم يجز أمان غورك وقتلهم ولم ينجُ منهم أحد. ثم خرج الجنيد من الشعب قاصداً سمرقند، وأشار عليه مَجْشَر بن مُزاحم بالنزول فنزل، ووافقته جموع الترك. فجال الناس جولة، وصبر المسلمون، وقاتل العبيد وانهزم العدوّ. ومضى الجنيد إلى سمرقند فحمل العيالات إلى مرو، وأقام بالصغد أربعة أشهر. وكان صاحب الرأي بخراسان في الحرب المجشر بن مزاحم السلمي، وعبد الرحمن بن أصبح المخزومي، وعبيد الله بن حبيب الهِجري.

ولما انصرفت الترك بعث الجنيد نهار بن تُوسعَة بن تيم الله، وزميل بن سُوَيْد بن شَيْم بالخبر. وتحامل فيه على سورة بن أبجر بما عصاه من مفارقة النهر حتى نال العدوّ منه. فكتب إليه هشام قد بعث إليك من المدد عشرة آلاف من البصرة، ومثلها من الكوفة، وثلاثون ألف رمح ومثلها سيفاً. وأقام الجنيد بسمرقند، وسار خاقان إلى بخارى وعليها قطن بن قتيبة بن مسلم، فخاف عليه من الترك. واستشار عبد الله بن أبي عبد الله بن سليم بعد أن اختلف عليه أصحابه، فاشترط عليه أن لا يخالفه. فأشار بحمل العيالات من سمرقند، فقدّمهم واستخلف بسمرقند عثمان بن عبد الله بن الشِخّير في أربعمائة فارس وأربعمائة راجل، ووفر أعطياتهم. وسار العيالات في مقدمته حتى خرج من الضيق ودنا من الطواويس، فأقبل إليه خاقان بكير ميمنة أوّل رمضان سنة اثنتي عشرة واقتتلوا قليلاً. ثم رجع الترك وارتحل من الغد، فاعترضه الترك ثانياً وقتل مسلم بن أحوز بعض عظمائهم، فرجعوا من الطواويس. ثم دخل الجنيد بالمسلمين

بخارى، وقدمت الجنود من البصرة والكوفة، فسرح الجنيد معهم حَوْرَثة بن زيد العَنْبَري فيمن انتدب معه».

٨ – غزو مسلمة بلاد خاقان

وفي السنة الثالثة عشرة بعد المائة فرّق مسلمة بن عبد الملك الجيوش ببلاد خاقان، ففُتحت مدائن وحصون على يديه وقتل الكثيرين وأسر وسبى وأحرق، ودان له ما وراء جبال بلنجر، كما قتل ابن خاقان. لذلك اجتمعت عليه كل أمم الخزر وغيرهم في جمع بأعداد كبيرة.

وكان مسلمة قد اجتاز بلنجر، فلما بلغه خبر الحشود من الخزر، أمر أصحابه فأوقدوا النيران قبل أن يتركوا خيامهم وأثقالهم في معسكرهم وينسحبوا بسرعة إلى الباب.

٩ – حملة مروان بن محمد على الخزر

في السنة الرابعة عشرة بعد المائة استعمل هشام بن عبد الملك ابن عمه مروان بن محمد على أرمينيا وأذربيجان وعزل أخاه مسلمة عنهما، وكلف مروان بغزو الخزر بعد أن عزّزه بمائة وعشرين ألف مقاتل.

نقل ابن الأثير تفاصيل حملة مروان، فكتب:[١]

«سار مروان إلى أرمينيا والياً عليها وسير هشام الجنود من الشام، والعراق والجزيرة فاجتمع عنده من الجنود، والمتطوعة مائة وعشرون ألفاً. فأظهر أنه يريد غزو اللان وقصد بلادهم وأرسل إلى ملك الخزر يطلب منه المهادنة فأجابه إلى ذلك وأرسل إليه من يقرر الصلح فأمسك الرسول عنده إلى أن فرغ من جهازه وما يريد. ثم أغلظ لهم القول وأذنهم بالحرب وسيّر الرسول إلى صاحبه بذلك ووكل به من يسيّره على طريق فيه بعد وسار هو في أقرب الطرق، فما وصل الرسول إلى صاحبه إلاّ ومروان قد وافاهم. فأعلم صاحبه الخبر وأخبره بما قد جمع له مروان وحشد واستعد.

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٤٠٦-٤٠٧.

فاستشار ملك الخزر أصحابه فقالوا: إن هذا قد اغترّك ودخل بلادك، فإن أقمت إلى أن تجمع لم يجتمع عندك إلى مدة فيبلغ منك ما يريد. وإن أنت لقيته على حالك هذه هزمك وظفر بك. والرأي أن تتأخر إلى أقصى بلادك وتدعه وما يريد. فقبل رأيهم وسار حيث أمروه، ودخل مروان البلاد وأوغل فيها وأخربها وغنم وسبى وانتهى إلى آخرها وأقام فيها عدة أيام حتى أذلهم وانتقم منهم. ودخل بلاد ملك السرير فأوقع بأهله وفتح قلاعاً ودان له الملك وصالحه على ألف رأس وخمسمائة غلام، وخمسمائة جارية سود الشعور، ومائة ألف مدبر تحمل إلى الباب. وصالح مروان أهل تومان على مائة رأس ونصفين، وعشرين ألف مدبر. ثم دخل أرض زريكران فصالحه ملكها، ثم أتى إلى أرض حمزين فأبى حمزين أن يصالحه فحصرهم فافتتح حصنهم. ثم أتى سغدان فافتتحها صلحاً ووظف على طيرشا نشاه عشرة آلاف مدبر كل سنة تحمل إلى الباب. ثم نزل على قلعة صاحب اللكز وقد امتنع من أداء الوظيفة فخرج ملك اللكز يريد ملك الخزر فقتله راع بسهم وهو لا يعرفه، فصالح أهل اللكز مروان واستعمل عليهم عاملاً. وسار إلى قلعة شروان وهي على البحر فأذعن أهلها بالطاعة، وسار إلى الدودانية فأوقع بهم ثم عاد».

١٠ - مقتل خاقان

في السنة التاسعة عشرة بعد المائة غزا أسد بن عبد الله القسري أمير خراسان بلاد الترك في حملة طويلة قتل في نهايتها خاقان على يد أحد أمرائه.

نقل ابن كثير تفاصيل حملة أسد ومقتل خاقان، فكتب:[١]

«وكان سبب ذلك أن أسد بن عبد الله أمير خراسان عمل نيابة عن أخيه بن خالد بن عبد الله على العراق. ثم سار بجيوشه إلى مدينة خُتْل فافتتحها، وتفرقت في أرضها جنوده يقتلون ويأسرون ويغنمون. فجاءت العيون إلى ملك الترك خاقان بأن

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٩، ص٣٣٤-٣٣٥.

جيش أسد قد تفرق في بلاد خُتَّل، فاغتنم خاقان هذه الفرصة فركب من فوره في جنوده قاصداً إلى أسد بن عبدالله. وتزود خاقان وأصحابه سلاحاً كثيراً، وقديداً مملحاً، وساروا في خلق عظيم. وجاء العيون إلى أسد فأعلموه بقصد خاقان له في جيش عظيم كثيف، فتجهز لذلك وأخذ أهبته، وأرسل من فوره إلى أطراف جيشه، فلمّها عليه وأشاع بعض الناس أن خاقان قد هجم على أسد بن عبد الله فقتله وأصحابه، ليحصل بذلك خذلان الجنود فلا يجتمعون إلى أسد. فردّ الله كيدهم في نحورهم وجعل تدميرهم في تدبيرهم. وذلك أن المسلمين لما سمعوا بذلك أخذتهم حمية الإسلام وازدادوا حنقاً على عدوهم، وعزموا على الأخذ بالثأر، فقصدوا الموضع الذي فيه أسد بن عبد الله، فإذا هو حي قد اجتمعت عليه العساكر من كل ناحية. وسار أسد نحو خاقان حتى أتى جبل الملح، وأراد أن يخوض نهر بلخ، وكان معهم أغنام كثيرة. فكره أسد أن يتركها وراء ظهره، فأمر كل فارس أن يحمل بين يديه شاة وعلى عنقه شاة، وتوعد من لم يفعل ذلك بقطع اليد. وحمل هو معه شاة وخاضوا النهر، فما خلصوا منه جيداً حتى دهمهم خاقان من ورائهم في خيل دهم، فقتلوا من وجدوه لم يقطع النهر وبعض الضعفة. فلما وقفوا على حافة النهر أحجموا وظنّ المسلمون أنهم لا يقطعون إليهم النهر. فتشاور الأتراك فيما بينهم، ثم اتفقوا على أن يحملوا حملة واحدة - وكانوا خمسين ألفاً - فيقتحمون النهر، فضربوا بكؤساتهم ضرباً شديداً حتى ظن المسلمون أنهم معهم في عسكرهم. ثم رموا بأنفسهم في النهر رمية رجل واحد، فجعلت خيولهم تنخر أشد النخير، وخرجوا منه إلى ناحية المسلمين. فثبت المسلمون في معسكرهم، وكانوا قد خندقوا حولهم خندقاً لا يخلصون إليهم منه، فبات الجيشان تتراءى ناراهما. فلما أصبحا مال خاقان على بعض الجيش الذي للمسلمين فقتل منهم خلقاً وأسر أمماً وأخذ أموالاً كثيرة وإبلاً موقرة[1]. ثم إن الجيشين تواجهوا في يوم عيد الفطر حتى خاف جيش أسد أن لا يصلّوا صلاة العيد، فما

(١) موقرة: محملة حملاً ثقيلاً.

صلّوها إلاّ على وجل. ثم سار أسد بمن معه حتى نزل مرج بلخ، حتى انقضى الشتاء. فلما كان يوم عيد الأضحى خطب أسد الناس واستشارهم في الذهاب إلى مرو في لقاء خاقان، أو في التحصن ببلخ. فمنهم من أشار بالتحصن ومنهم من أشار بملتقاه والتوكل على الله. فوافق ذلك رأي أسد الأسد، فقصد بجيشه نحو خاقان، وصلّى بالناس ركعتين أطال فيهما ثم دعا بدعاء طويل، ثم انصرف وهو يقول: نصرتم إن شاء الله تعالى ثلاثاً. ثم سار بمن معه من المسلمين فالتقت مقدمته بمقدمة خاقان، فقتل المسلمون منهم بشراً كثيراً وأسروا أميرهم وسبعة أمراء معه. ثم ساق أسد فانتهى إلى أغنامهم فاستاقها، فإذا هي مائة ألف وخمسون ألف شاة. ثم التقى معهم، وكان خاقان في هذا اليوم إنما معه أربعة آلاف أو نحوها، ومعه رجل من العرب قد خامر إليه، يقال له الحارث بن شريح، فهو يدله على عورات المسلمين. فلما أقبل الناس هربت الأتراك في كل جانب، وانهزم خاقان ومعه الحارث بن شريح المذكور يحميه ويثبته. فتبعهم أسد حتى كان عند الظهيرة انخذل خاقان في أربعمائة من أصحابه، عليهم الخز[1] ومعهم الكؤوسات[2]. فلما أدركه المسلمون أمر بالكؤوسات فضربت ضرب الانصراف ثلاث مرات فلم يستطيعوا الانصراف. فتقدم المسلمون فاحتاطوا على معسكرهم فاحتازوه بما فيه من الأمتعة العظيمة، والأواني من الذهب والفضة، والنساء والصبيان، من الأتراك ومن معهم من الأسارى من المسلمات وغيرهم، مما لا يحد ولا يوصف لكثرته وعظم قيمته وحسنه. غير أن خاقان، لما أحس بالهلاك، كان قد ضرب امرأته بخنجر فقتلها، فوصل المسلمون إلى المعسكر وهي تتحرك بآخر رمق ووجدوا قدورهم تغلي بأطعماتهم. وهرب خاقان بمن معه حتى دخل بعض المدن فتحصن بها. فاتفق أن لعب بالنرد مع بعض أمرائه فغلبه الأمير فتوعده خاقان بقطع اليد. فحنق عليه ذلك الأمير، ثم عمل على

---

(١) الخز: الحرير.

(٢) الكؤوسات: آنية الشراب.

قتله فقتله. وتفرقت الأتراك فرقاً يعدو بعضهم على بعض، وينهب بعضهم بعضاً. وبعث أسد إلى أخيه يعلمه بما وقع من النصر والظفر بخاقان. وبعث إليه بطبول خاقان، وكانت كباراً لها أصوات كالرعد، وبشيء كثير من حواصله وأمتعته، فأوفدها خالد إلى أمير المؤمنين هشام ففرح بذلك فرحاً شديداً، وأطلق للرسل أموالاً جزيلة كثيرة من بيت المال».

١١ - ولاية نصر بن سيار الكناني خراسان

في السنة العشرين بعد المائة، وبعد وفاة والي خراسان أسد بن عبد الله القسري، عين الخليفة هشام بن عبد الملك نصراً بن سيار والياً على خراسان.(١) فاستعمل على بلخ مسلماً بن عبد الرحمن، وعلي مرو الروذ وشاحاً بن بكير، وعلى هراة الحرث بن عبد الله بن الحشرج، وعلى نيسابور زياداً بن عبد الرحمن القسري، وعلى خوارزم أبا حفص علي بن حقنة، وعلى الصغد قطناً بن قتيبة.(٢)

وشن في السنة نفسها غزوات عدة أولاها إلى ما وراء النهر من نحو باب الحديد، ووضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة. ثم قام بغزو سمرقند والشاش في عشرين ألفاً ومعه ملك بخارى وأهل كش ونسف.(٣)

وجاء إلى نهر الشاش فمنعه «كورصول» من عبوره. فخرج عاصم بن عُمير في جند سمرقند، فجاولته خيل الترك ليلاً وفيهم كورصول، فأسره عاصم وجاء به إلى نصر الذي قتله وصلبه على شاطئ النهر.(٤)

ثم سار نصر إلى فرغانة فسبى منها ألفاً. وأرسل يوسفاً بن عمران إلى الشاش حيث قاتل أهلها وقتل أحد عظمائهم وهزمهم.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٤٤١.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢٠٧.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص١٩٠-١٩٢.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢٠٨.

وفي عهد نصر بن سيار انطلقت الثورة العباسية من خراسان. وهذا ما سنفصّله لاحقاً.

١٢ – غزوات مروان بن محمد أرمينيا

في السنة الحادية والعشرين بعد المائة شنّ مروان بن محمد والي أرمينيا غزوات عدة انتصر فيها جميعها وغنم وسبى. كتب ابن الأثير عن هذه الغزوات:[١]

«وفي سنة إحدى وعشرين غزا مروان بن محمد بن مروان في أرمينيا وهو واليها فأتى قلعة بيت السرير فقتل وسبى. ثم أتى ثانية فقتل وسبى، ودخل غوميك وهو حصن فيه بنت الملك وسريره، فهرب الملك منه حتى أتى حصناً يقال له خيزج فيه السرير الذهب. فسار إليه مروان ونازله صيفيته وشتويته، فصالح الملك على ألف رأس كل سنة ومائة ألف مدى[٢]. وسار مروان فدخل أرض أزر وبطران فصالحه ملكها. ثم سار في أرض تومان فصالحه، وسار حتى أتى حمزين فأخرب بلاده وحصر حصناً له شهراً فصالحه. ثم أتى مروان أرض مسدارة فافتتحها على صلح. ثم نزل مروان كيران فصالحه طبرسران وفيلان. وكل هذه الولايات على شاطئ البحر من أرمينيا إلى طبرستان».

١٣ – الدروس والعبر والنتائج

أ – أكدت الوقعة بين مضر واليمن في خراسان، في السنة ١٠٦ هـ، أنّ الصراعات القَبَلية كانت ما تزال متأججة في نفوس العرب المسلمين في أواخر العصر الأموي وعلى مشارف الثورة العباسية.

ب – خلال غزو مسلم بن سعيد فرغانة، وأثناء اجتيازه النهر، كلف مفرزة من جنده بحماية العبور نظراً لفقدان الجيش الذي يقوم بالعبور حرية عمله وأية إمكانيات قتالية. وهذا التدبير الاحترازي ضروري

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٤٥٠.

(٢) المدى: مكيال لأهل الشام يتسع لتسعة عشر صاعاً.

وأساسي إذ ينبغي على الجيش المتقدم في أرض العدو أن يبقى على جهوزية كاملة للقتال. وفي حال فقدانه مؤقتاً لهذه الجهوزية، فعليه إفراد بعض وحداته لتأمين أمنه وسلامته. وهذا ما فعله مسلم بنجاح.

ج - في غزوة الغور عمد القائد العربي إلى تدبير مبتدعٍ وناجح إذ أدلى رجاله بالحبال داخل صناديق خشبية إلى كهف ليس له طريق كان أهل الغور قد نقلوا إليه أثقالهم لمنع المسلمين من مصادرتها. ونجح المتدلّون، فحصلوا على قسم كبير من الأثقال.

ونحن نرى أن القائد العسكري يطلب منه أحياناً استنباط خطط جريئة كي ينجح في مهمته. فالعمل العسكري هو تنفيذ كلي يتتابع فيه الفعل وردة الفعل بسرعة كبيرة. لذلك تقوم مدارس الحرب العليا بتدريب القادة على تقدير المواقف الاستراتيجية واتخاذ القرارات العملانية الصائبة بسرعة.

فكما سبق القول إنه «لا مجال للدرس أثناء القتال، وجلّ ما يمكن صنعه هناك هو تطبيق ما نعرف، ويجب أن نعرف الكثير لنستطيع القليل».

فعلى سبيل المثال، وخلال حصار كمرجة من قبل خاقان ملك الترك، قرّر الجيش التركي ردم الخندق الذي يحيط بالمدينة كي يتمكن مقاتلوه من بلوغ الأسوار وتسلقها، فراح يلقي الحطب الرطب في الخندق.

ردّ المقاتلون من على أسوار كمرجة بإلقاء رزم من الحطب اليابس في الخندق وأشعلوا النار فيه، فاحترق الحطب وبقي الخندق صعب الاجتياز. ثم ردّ خاقان بذبح الأغنام وحشي جلودها بالتراب وردم الخندق، فأمطرت السماء واحتمل السيل ما في الخندق وألقاه في النهر.

وخلال القتال بين القائد العربي الجنيد وخاقان الترك، ولما شنّ الترك هجوماً عاماً على ميمنة الجيش العربي وأحاطوا به مهددين بإفنائه، سارع الجنيد إلى تعزيزها بفرقة احتياط بقيادة نصر بن سيّار الذي فاجأ العدو بهجومه الكاسح وردّه عن الميمنة.

وخلال المعركة نفسها توالت الهجمات والهجمات المعاكسة من قبل الجانبين المتقاتلين، فكان القتال فيها سجالاً بين الجيشين نظراً لتوالي الفعل وردة الفعل من

قِبَل القائدين الجنيد وخاقان. فهما كانا دائماً حاضِرَيْن لاتخاذ التدابير وإصدار الأوامر اللازمة لإدارة المعركة بشكل يدعو إلى الإعجاب.

د - خلال غزوة الصغد، وفيما كانت الحرب سجالاً بين المسلمين والترك، ارتكب الترك خطأً نفسياً إذ قطعوا الماء عن معسكر المسلمين، الأمر الذي دفع هؤلاء إلى الاستبسال في القتال خوفاً من موتهم عطشاً. فقد ابتدرهم أحد قادتهم قائلاً: «القتل بالسيف أكرم في الدنيا وأعظم أجراً عند الله من الموت عطشاً».

وبالفعل شنّ المسلمون هجوماً صاعقاً أزالوا الترك خلاله عن الماء الذي بلغوه وشربوا منه.

لقد سبق وأوردنا حالاً مماثلة عندما حُصرت خيّالة ورجّالة الروم في معركة اليرموك، فأعطى خالد بن الوليد الأمر بالإفراج عن الخيالة والسماح لها بالفرار، وذلك تجنباً لاستبسال عناصرها في القتال، الأمر الذي كان سيؤدي إلى فشل المخطط العام للمعركة.

فالأخطار التي تهدّد مصير الجنود هي من أهم الدوافع المحركة للواجب العسكري، إذ إن الحوافز التي تحركهم عندها تدفعهم إلى الدفاع عن وجودهم وكيانهم وحياتهم، فيحققون ما يصعب تحقيقه خلال الأوضاع القتالية العادية والكلاسيكية. وبالفعل، وأمام العطش البالغ والخوف من الموت عطشاً، استبسل الجنود العرب في القتال فحققوا إنجازات لم يتمكنوا من القيام بها قبل تعرضهم للعطش الشديد.

هـ - من الملاحظ أنه، وبعد إكمال فتح العراق وفارس وتدمير المملكة الساسانية، حاربت الجيوش العربية على جبهات ثلاث:

- جبهة الروم حيث تم فتح مدن وحصون في آسيا الصغرى ومحاصرة القسطنطينية.

- جبهة شمال أفريقيا والأندلس حيث تمكن العرب من السيطرة النهائية على المغرب الأدنى والأوسط والأقصى وعلى بلاد الأندلس.

- جبهة ما وراء النهر شرقاً حيث اصطدمت الجيوش العربية بالشعوب التركية.

هذا رغم أن الاستراتيجيين العسكريين لا ينصحون الجيش بالقتال على جبهات عدة. إلاّ أن ما ساعد المسلمين على الانتصار على هذه الجبهات هو استقلالية كل جيش ووجود قادة كبار قادوا الجيوش العربية من نصر إلى نصر.

أما المعارك التي نعالجها في هذا الفصل فكانت بغالبيتها ضد الشعوب التركية. ودامت هذه الحروب إلى أن اعتنق الترك الدين الإسلامي قبل أن تسيطر قياداتهم على مقدرات الخلافة ويصبحون الحامين للإسلام خلال العصور العباسية الثاني والثالث والرابع.

و - خلال حملة مروان بن محمد على بلاد الخزر استعمل الخدعة ضد ملكها إذ أظهر أنه يريد غزو اللان، وأرسل يطلب مهادنة ملك الخزر الذي استجاب للصلح. لكن مروان سار نحو بلاده بسرعة فائقة فوصلها قبل بلوغ أخبار تسيير الحملة إليها، الأمر الذي فاجأ جيشها وهو غير مستعد للقتال تطبيقاً للقول الاستراتيجي المأثور: «الحرب خدعة».

وهكذا أحسن مروان تطبيق مبادئ الحرب. فبالنسبة للمبدأ الأول أي نسبية الأهداف للوسائل، جمع جيشاً كبيراً من الشام والعراق والجزيرة. وسار نحو عدوّه بسرية تامة وبأقصر الطرق محققاً بذلك المبدأ الثاني أي حرية العمل مقابل عدوه الذي لم يتمكن من استنفار جيشه في الوقت اللازم للتصدي للحملة الإسلامية.

وتمكن مروان من فتح المدن والحصون وإخضاع الملوك بعد أن تراجع ملك الخزر أمامه إلى أقصى مناطق بلاده عن ساحة القتال.

ز - في القتال بين أسد بن عبد الله القسري والي خراسان وخاقان ملك الترك، استعمل كل منهما جميع الوسائل المتاحة، فقام الترك بإطلاق الشائعات عن مقتل أسد بقصد التأثير في معنويات المسلمين. لكن هذا التدبير أعطى نتائج معاكسة إذ إن المسلمين أخذتهم الحميّة وازدادوا حنقاً على عدوهم وقرروا الأخذ بالثأر.

من جهة أخرى أحسن الفريقان استعمال الأرض في قتالهما. فالمسلمون جعلوا بينهم وبين عدوهم النهر، لكن الخزر اجتازوه بسرعة بخيولهم فأمّنوا بذلك حرية عملهم وفاجأوا المسلمين، ومالت كفة الربح إلى جانبهم.

إلاّ أن حمية المسلمين وحماسهم للقتال دفع بهم للقيام بهجوم عام أدى إلى إنزال خسائر كبيرة بالخزر، والاستيلاء على معسكرهم مع ما فيه من الأمتعة والذهب والفضة والنساء والأولاد، وتخليص أسرى المسلمين منه.

لذلك، نرى أن الحرب هي صراع إرادات، ينتصر فيها من يكون أكثر صبراً وأشد تصميماً على النجاح.

الفصل الخامس

العمليات العسكرية خلال انهيار الدولة الأموية

اعتبر عهد عمر بن عبد العزيز عهد محاولات إنشاء الأمة الإسلامية، فقد دعي هذا الخليفة «الراشدي الخامس» كونه أعاد الأمور في الدولة الإسلامية إلى أيام عمر بن الخطاب. لذلك سمي عمر بن عبد العزيز عمراً الثاني.

وبعد وفاة عمر بن عبد العزيز، بدأت مرحلة انهيار الخلافة الأموية فآلت مقاليد الحكم إلى يزيد الثاني الذي دعي «بابن عاتكة» نسبة إلى أمه حفيدة معاوية الأول، فيما أُبعد عن الخلافة أخوه الكفوء لها مسلمة بن عبد الملك كون والدته غير عربية.

وتمكن المشابهة ما بين يزيد الثاني ويزيد الأول لجهة اللهو والعبث والتهتك وحب الغناء والشراب والجواري[1]. وهو قد تولى الخلافة بناءً على توصية الخليفة سليمان بن عبد الملك رغم العجب من موافقة الخليفة المتديّن عمر بن عبد العزيز على هذا الاختيار. كما انغمس هذا الخليفة أيضاً بظاهرة التعصب القبلي فارتبط بأسرة حاكم العراق السابق الحجاج بن يوسف متآلفاً مع الحزب المضري، مع عداء ظاهر ليزيد بن المهلب حاكم العراق الذي قام بثورة ضد الحكم الأموي.

وخروج يزيد بن المهلب على السلطة أدى إلى بعثرة الجهود السياسية والعسكرية لبناء الدولة. فيزيد هو ابن المهلب بن أبي صفرة الذي برز في حرب الخوارج، والذي

---

(١) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتب العلمية، بيروت، جزء ٣، ص ٢٥٩.

نزح مع قبيلته اليمانية السنة ٦٠ للهجرة. وهكذا برزت مجدداً الخلافات بين اليمانية والقيسية التي ستكون لها ذيول سيئة على استقرار الأمة الإسلامية لاسيما بعد أن أصبح الخليفة يزيد طرفاً في النزاع، متعاوناً مع غلاة المتعصبين للحزب القيسي.

وفي عهد الخليفة يزيد تحرك الخوارج أيضاً، وعادوا إلى مهاجمة العراق بقيادة شوذب، أو بسطام، بعد أن كان نشاطهم قد توقف في عهد الخليفة عمر بن العزيز الذي تمكن من إقامة حوار معهم. وقد استطاع شوذب أن يوقع الهزائم المتتالية بجيوش الخلافة، فاشتدّ الخوف على الكوفة التي كانت هدفاً لهجماته.

من جهة أخرى أهملت الجبهات الخارجية في عهد يزيد، كون السياسة الخارجية للدولة هي عادة انعكاس لسياستها الداخلية ولتماسكها على الصعيد الداخلي. هذا ما حصل فعلاً في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي تسلّم حكماً مستتباً داخلياً فصرف معظم جهوده في الفتوحات التي نشطت في عهده.

أما الخليفة هشام بن عبد الملك الذي جاء بعد شقيقه، فإنه، ورغم حزمه وحسن إدارته وتدبيره والجهود الكبرى التي بذلها، داخلياً لإعادة الاستقرار إلى الدولة، وخارجياً من خلال الحملات التي أرسلت بعهده؛ فإن انتعاش الخلافة الأموية كان إلى حين، لأن خلافة يزيد كانت قد رسمت خط النهاية لها. فمرحلة عهد هشام بن عبد الملك، ورغم أن الخليفة كان عادلاً ومتفهماً ومتزناً، حفلت بأحداث كبار وبتحرك دعاة الثورة العباسية في شكل ناشط جداً لا سيما في خراسان.

أما الصراع القبلي بين اليمانية والمضرية فإنه لم يتوقف في عهد الخليفة هشام، الذي لم يكن بعيداً عن سياسة التحزّب من دون أن ينغمس فيها كلياً. لكنه لم يستطع أن ينتزع من نفوس عماله رواسب الأحقاد القديمة والعقلية القبلية الضيقة.

وفي خراسان، لم يستطع الوالي نصر بن سيّار، رغم حنكته وإخلاصه وعمق تجربته في الحكم، تخفيف حدة العداوة بين اليمانية والمضرية. ولم يستطع أيضاً كبح

جماح حركة الدعاة العباسيين. وعندما توفي هشام كانت الأوضاع في خراسان قد وصلت إلى مرحلة من التدهور لا يمكن للدولة الأموية تخطيها، لا سيما أن الخلفاء الذين جاؤوا بعد هشام لم يكونوا على قدر هذه المشكلات، باستثناء الخليفة مروان بن محمد الذي كان الحكم عندما تسلمه أشبه بتفليسه عليه إدارتها فقط، رغم إمكاناته الفكرية والإدارية والعسكرية.

١ - مشكلات النظام الأموي

وإذا عدّدنا المشكلات التي اعترضت الخلافة الأموية خلال هذه المرحلة لجئنا بالحصيلة التالية:

- ثار الترك في الأقطار الشرقية والشمالية وما وراء بحر الخزر من دون أن يتمكن العرب من إخضاعهم نهائياً.
- تدهور الوضع في ما وراء النهر في مدن سمرقند وبخارى وبيكند حيث انفجر الموقف وقام السكان بالثورة على الحكم الأموي.
- قام أحد القادة العرب السابقين، واسمه الحارث بن شريج، بثورة على الحكم الأموي.
- أخذ أهل الهند يتراجعون عن الدين الإسلامي الذي اعتنقوه في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، وذلك بسبب تعسّف ولاة بني أمية في تلك البلاد.
- قامت حركة في مصر ضد الحكم الأموي بسبب زيادة الضرائب وسوء معاملة الولاة للأهالي.
- في المغرب استغل الخوارج نقمة السكان على سياسة العمال الأمويين فتزعّموا الثورات على الحكم وخاضوا صراعاً طويلاً ضده.
- في الأندلس أيضاً سادت الفوضى والتمزق والحرب الأهلية، من ثورة البربر على العرب إلى الصراع بين العرب القدامى والجدد ...

كل هذه المشكلات تصدّى لها الخليفة هشام بنجاح، لكنها كانت بداية الانهيار النهائي الذي حصل في عهود خلفائه. فعندما توفي انتهت بوفاته مرحلة مهمة من تاريخ الدولة الأموية كانت ما تزال خلالها موحدة وقوية ومهابة.

٢ - مرحلة الانهيار

بعد وفاة هشام في ربيع الأول السنة ١٢٥ هجرية بويع بالخلافة الوليد بن يزيد فدخلت الدولة في مرحلة الاحتضار بسبب انقسام البيت الحاكم وتفاقم الأخطار الخارجية التي لم يعد في الإمكان التصدي لها.

أما الخليفة الجديد فقد انغمس أيضاً في الصراع القبلي فتعصّب، كوالده، للقيسية على اليمانية، الأمر الذي دفع بيزيد بن الوليد بن عبد الملك للقيام بثورة ضده وقتله في السنة ١٢٦ هـ. وكان هذا الانقلاب أول ثورة داخل الصف الأموي، لذلك جرّت وراءها ثورات أخرى.

وتسلّم الخلافة يزيد الثالث الذي دعي «يزيد الناقص» كونه أنقص أعطيات الجند الذين نقموا عليه[١]. كما اعتمد على تأييد اليمانية ضد القيسية التي رفضت بيعته بزعامة والي خراسان نصر بن سيار. كما امتنعت عن بيعته حمص وفلسطين والمغرب، فبقي في الحكم ستة أشهر فقط.

أما أخوه إبراهيم الذي تسلم الخلافة بعده، فقد فقدت الخلافة في عهده كل رونقها إذ إنه لم يحصل إلاّ على مبايعة عدد قليل من المسلمين. وهكذا، وما إن برز قائد جيش الثغور مروان بن محمد، حتى تنازل إبراهيم عن الخلافة لمصلحته بعد تأييد القبائل القيسية له.[٢]

لقد تمكّن مروان من القيام بنشاط عسكري بارز أخمد خلاله كل عصيان على الخلافة. لكنه لم يستطع إنهاء الخطر الحقيقي الذي كان قد أصبح جلياً في الشرق، وهو الخطر العباسي الذي تمكّن القائمون به من إنهاء وجود الدولة الأموية وإقامة الدولة العباسية مكانها.

كتب المسعودي عن سبب زوال ملك الأمويين:[٣]

«وذكر المنقري قال: سئل بعض شيوخ بني أمية ومحصّليها عقيب زوال الملك

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٢٦٨.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٧٤.
(٣) المرجع نفسه، ص٢٧٥.

عنهم إلى بني العباس: ما كان سبب زوال ملككم؟

فقال: إنّا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا، فظلمنا رعيتنا، فيئسوا من إنصافنا، وتمنّوا الراحة منا. وتخومل على أهل خراجنا، فتخلّوا عنا، وخربت ضياعنا، فخلت بيوت أموالنا. ووثقنا بوزرائنا، فآثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنا. وتأخر عطاء جندنا، فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم أعادينا فتظافروا معهم على حربنا، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا. وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا».

في هذا الفصل سنعالج العمليات العسكرية التي حصلت خلال مرحلة انهيار الخلافة الأموية وصولاً إلى قيام الخلافة العباسية.

٣ - مقتل الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك

في السنة السادسة والعشرين بعد المائة قتل الخليفة الوليد بن يزيد بن عبدالملك على يد يزيد بن الوليد بن عبد الملك.(١)

والخليفة الوليد لم يُقلع، عند تسلمه الخلافة، عما كان عليه من مجون وخلاعة حتى نسب إليه الكثير من الفظائع، مثل رميه المصحف بالسهام.(٢)

أما سبب مقتله فلأنه ضرب ابن عمه سليماناً بن هشام مائة سوط ونفاه إلى معان من أرض الشام وحبسه حتى آخر عهده. وحبس أخاه يزيداً بن هشام، وفرّق ما بين ابن الوليد وامرأته، وسجن العديد من أبناء الوليد، فرموه بالفسق والكفر واستباحة نساء أبيه. لذلك انتقده بنو أمية خاصة يزيد بن الوليد.

ثم انقلبت عليه اليمامة بسبب معاملته لخالد القسري وسجنه لامتناعه عن بيعة ولديه الحكم وعثمان القاصرين. ثم انقلبت عليه قضاعة بسبب قصيدة له يعيّر فيها اليمانية في شأن خالد القسري وبيعته ليوسف بن عمر. وبايع هؤلاء جميعاً

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٩.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢٢٥.

يزيداً بن الوليد[١] كما بايعه أهل دمشق سراً.[٢]

وجاءت اليمانية يزيد بن الوليد وبايعته أيضاً، فبعث دعاته فدعوا الناس لمبايعته سراً، رغم معارضة أخيه العباس بن الوليد. ثم دخل يزيد دمشق ليلاً، فنزل قطنا واستخلف عليها ابنه محمداً، وعلى شرطته أبا العاج كثيراً بن عبد الله السلمي.

وتواعد يزيد مع أصحابه بعد المغرب بباب الفراديس، ثم دخلوا المسجد وسيطروا على حرسه. ثم قدم يزيد المسجد في زهاء مائتين وخمسين وأخذوا سلاحاً كثيراً كان بالمسجد. ثم بايعه أهل المزّة والسكاسك ودارا ودرهة وحَرَستا ودُمرعران وحرش والحديثة ودَرِيركا وعَرّ وسلامان وجهينة.[٣]

أشار على الخليفة أصحابه أن ينتقل إلى حمص فيتحصّن فيها، لكنه رفض وسار إلى قصر النعمان بن بشير ومعه أربعون رجلاً.

وجرى قتال بين أنصار الخليفة وأنصار يزيد بن الوليد عبد الملك واشتد القتال بينهم.

ثم طلب الخليفة الكلام من أعلى القصر، فكلمه يزيد بن عنبسة السكسكي فقال له:[٤]

«إنا ما ننقم عليك في أنفسنا، وإنما ننقم عليك في انتهاك ما حرّم الله، وشرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله.»

ثم رجع الخليفة إلى القصر وجلس يقرأ في المصحف وقال: «يوم كيوم عثمان».

وأخذ يزيد بن عنبسة بيده يقيه ولا يريد قتله، لكن منصوراً بن جمهور دخل عليه في جماعة فضربوه وقطعوا رأسه وساروا به إلى يزيد.[٥]

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٤٧٩.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٩.
(٣) ابن الاثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٢٢٨-٢٢٩.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢٣٠.
(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٤٨٤.

نقل ابن كثير رواية عن قتل الوليد جاء فيها:(١)

«ورجع إلى الدار فجلس ووضع بين يديه مصحفاً فنشره وأقبل يقرأ فيه وقال: يوم كيوم عثمان، واستسلم. وتسوّر عليه أولئك الحائط، فكان أول من نزل إليه يزيد بن عنبسة، فتقدم إليه وإلى جانبه سيف فقال: نَحِّه عنك. فقال الوليد: لو أردت القتال به لكان غير هذا. فأخذ بيده وهو يريد أن يحبسه حتى يبعث به إلى يزيد بن الوليد، فبادره عليه فنزل عشرة من الأمراء فأقبلوا على الوليد يضربونه على رأسه ووجهه بالسيوف حتى قتلوه. ثم جروه برجله ليخرجوه، فصاحت النسوة فتركوه. واحتز أبو علاقة القضاعي رأسه، واحتاطوا على ما كان معه مما كان خرج به في وجهه ذلك.. وبعثوا به إلى يزيد مع عشرة نفر، منهم منصور بن جمهور وروح بن مقبل وبشر مولى كنانة من بني كلب، وعبد الرحمن الملقب بوجه الفلس. فلما انتهوا إليه بشّروه بقتل الوليد وسلموا عليه بالخلافة، فأطلق لكل رجل من العشرة عشرة آلاف، فقال له روح بن بشر بن مقبل: أَبْشِر يا أمير المؤمنين بقتل الوليد الفاسق، فسجد شكراً للّه عزّ وجل. ورجعت الجيوش إلى يزيد، فكان أول من أخذ يده للمبايعة يزيد بن عنبسة السكسكي فانتزع يده من يده وقال: اللهمّ إن كان هذا رضى لك فأعنّي عليه. وكان قد جعل لمن جاءه برأس الوليد مائة ألف درهم، فلما جيء به (وكان ذلك ليلة الجمعة وقيل يوم قتل الأربعاء) لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة، فأمر يزيد بنصب رأسه على رمح وأن يطاف به في البلد. فقيل له إنما ينصب رأس الخارجي، فقال: والله لأنصبنّه. فَشَهَره في البلد على رمح ثم أودعه عند رجل شهراً ثم بعث به إلى أخيه سليمان بن يزيد. فقال أخوه، عند ذلك، بعداً له: أشهد أنك كنت شروباً للخمر ماجناً فاسقاً. ولقد أرادني على نفسي هذا الفاسق وأنا أخوه، لم يأنف من ذلك. وقد قيل إن رأسه لم يزل معلقاً بحائط جامع دمشق الشرقي مما يلي الصحن حتى انقضت دولة بني أمية».

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص١٢.

٤ – اضطراب أمر بني أمية

وفي هذه السنة اضطرب أمر بني أمية وهاجت الفتنة بعد مقتل الخليفة الوليد، وتسلّم الخلافة يزيد الذي دعي «الناقص» لأنه أنقص الزيادة التي كان الوليد زادها في أعطيات الجند ورد العطاء إلى ما كان عليه أيام هشام. وفيها وثب سليمان بن هشام بن عبد الملك الذي كان الوليد قد سجنه في سجن عمان، فخرج منه وأخذ ما كان بعمان من الأموال وأقبل إلى دمشق وجعل يلعن الوليد ويعيبه بالكفر.(١)

وفي آخر السنة توفي الخليفة يزيد فاضطربت أمور بني أمية، وانتشرت الفتن واختلفت كلمة بني مروان.(٢)

٥ – ثورة أهل حمص

بعد مقتل الخليفة الوليد ثار أهل حمص وكان مروان بن عبد الله بن عبد الملك عاملاً للوليد عليها.

نقل ابن الأثير تفاصيل معارضة أهل حمص للخليفة يزيد وتسييرهم جيشاً إلى دمشق لقتاله وهزيمة جيش حمص. كتب ابن الأثير:(٣)

«لما قتل الوليد أغلق أهل حمص أبوابها وأقاموا النوائح والبواكي عليه. وقيل لهم: إن العباس بن الوليد بن عبد الملك أعان عبد العزيز على قتله فهدموا داره ونهبوها وسلبوا حرمه وطلبوه فسار إلى أخيه يزيد. فكاتبوا الأجناد ودعوهم إلى الطلب بدم الوليد فأجابوهم، واتفقوا أن لا يطيعوا يزيد، وأمّروا عليهم معاوية بن يزيد بن الحصين بن نمير ووافقهم مروان بن عبد الله بن عبد الملك على ذلك. فراسلهم يزيد فلم يسمعوا وجرحوا رسله. فسيّر إليهم أخاه مسروراً في جمع كثير فنزلوا حوارين. ثم قدم على يزيد سليمان بن هشام فرد عليه يزيد ما كان الوليد أخذه من أموالهم وسيّره إلى أخيه مسرور ومن معه وأمرهم بالسمع والطاعة له. وكان أهل حمص يريدون المسير إلى

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٢٥٢.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص١٣.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٤٨٧-٤٨٨.

دمشق فقال لهم مروان بن عبد الملك: أرى أن تسيروا إلى هذا الجيش فتقاتلوهم فإن ظفرتم بهم كان ما بعدهم أهون عليكم. ولست أرى المسير إلى دمشق وترك هؤلاء خلفكم. فقال السمط بن ثابت: إنما يريد خلافكم وهو مائل ليزيد والقدرية فقتلوه وقتلوا ابنه، وولوا أبا محمد السفياني وتركوا عسكر سليمان ذات اليسار وساروا إلى دمشق. فخرج سليمان مجداً فلحقهم بالسليمانية(١).

وأرسل يزيد بن الوليد عبد العزيز بن الحجاج في ثلاثة آلاف إلى ثنية العقاب، وأرسل هشام بن مصاد في ألف وخمسمائة إلى عقبة السلامية وأمرهم أن يمد بعضهم بعضاً. ولحقهم سليمان ومن معه على تعب فاقتتلوا قتالاً شديد فانهزمت ميمنة سليمان وميسرته وثبت هو في القلب. ثم حمل أصحابه على أهل حمص حتى ردوهم إلى موضعهم وحمل بعضهم على بعض مراراً. فبيناهم كذلك إذ أقبل عبد العزيز بن الحجاج من ثنية العقاب فحمل على أهل حمص حتى دخل عسكرهم وقتل فيه من عرض له فانهزموا. ونادى يزيد بن خالد بن عبد الله القسري الله الله في قومك فكف الناس. ودعاهم سليمان بن هشام إلى بيعة يزيد بن الوليد وأخذ أبو محمد السفياني أسيراً؛ ويزيد بن خالد بن معاوية أيضاً فأتى بهما سليمان فسيّرهما إلى يزيد فحبسهما. واجتمع أمر أهل دمشق ليزيد بن الوليد وبايعه أهل حمص فأعطاهم يزيد العطاء وأجاز الأشراف واستعمل عليهم يزيد بن الوليد معاوية بن يزيد بن الحصين».

٦ خلاف أهل فلسطين والأردن مع الخليفة يزيد

وفي السنة نفسها وثب أهل فلسطين على عاملهم سعيد بن عبد الملك فطردوه وبايعوا يزيداً بن سليمان بن عبد الملك.

نقل الطبري خبر نقض أهل فلسطين والأردن بيعة يزيد، فكتب:(٢)

---

(١) السليمانية: كانت مزرعة لسليمان بن عبد الملك.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٢٥٤.

«كان سعيد بن عبد الملك عاملاً للوليد على فلسطين، وكان حسن السيرة، وكان يزيد بن سليمان سيّد ولد أبيه، وكان ولد سليمان بن عبد الملك ينزلون فلسطين، فكان أهل فلسطين يحبونهم لجوارهم. فلما أتى قتل الوليد، ورأس أهل فلسطين يومئذٍ سعيد بن رَوْح بن زنباع، كتب إلى يزيد بن سليمان: إن الخليفة قد قُتِل فاقدم علينا نولّك أمرنا. فجمع له سعيد قومه، وكتب إلى سعيد بن عبد الملك، وهو يومئذٍ نازل بالسبع: ارتحل عنّا، فإنّ الأمر قد اضطرب؛ وقد ولينا أمرنا رجلاً قد رضينا أمره. فخرج إلى يزيد بن الوليد، فدعا يزيد بن سليمان أهل فلسطين إلى قتال يزيد بن الوليد. وبلغ أهل الأردن أمرهم، فولّوا عليهم محمد بن عبد الملك، وأمّر أهل فلسطين سعيد بن رَوْح وضِبْعان بن رَوْح».

فلما بلغ الخليفة يزيد فلسطين والأردن وجّه جيشاً إليهم بقيادة سليمان بن هشام في أهل الشام وأهل حمص، نقل أخباره ابن الأثير الذي كتب:[1]

«وبلغ خبرهم يزيد بن الوليد فسيّر إليهم سليمان بن هشام بن عبد الملك في أهل دمشق، وأهل حمص الذين كانوا مع السفياني، وكانت عدتهم أربعة وثمانين ألفاً. وأرسل يزيد بن الوليد إلى سعيد، وضبعان ابني روح فوعدهما وبذل لهما الولاية والمال فرحلا في أهل فلسطين. وبقي أهل الأردن فأرسل سليمان خمسة آلاف فنهبوا القرى وساروا إلى طبرية، فقال أهل طبرية: ما نقيم والجنود تدوس منازلنا وتحكم في أهالينا. فانتهبوا يزيد بن سليمان، ومحمد بن عبد الملك وأخذوا دوابهما وسلاحهما ولحقوا بمنازلهم. فلما تفرق أهل فلسطين والأردن، سار سليمان حتى أتى الصنبرة وأتاه أهل الأردن فبايعوا يزيد بن الوليد. وسار إلى طبرية فصلّى بهم الجمعة وبايع من بها، وسار إلى الرملة فأخذ البيعة على من بها. واستعمل ضبعان بن روح على فلسطين، وإبراهيم بن الوليد بن عبد الملك على الأردن.»

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٤، ص٤٨٩.

٧ – الحرب بين أهل اليمامة وعاملهم

لما قتل الوليد كان على اليمامة علي بن المهاجر، فثار عليه أهلها بقيادة المهير بن سلمى بن هلال فجرى قتال ووقعات ذكرها ابن خلدون إذ كتب:(١)

«ولما قتل الوليد كان علي بن المهاجر على اليمامة عاملاً ليوسف بن عمر، فجمع له المُهَيْر بن سليمان بن هِلال من بني الدَّوْل بن خَوْلة. وسار إليه وهو في قصره بقاع هَجَر فالتقوا وانهزم علي، وقتل ناس من أصحابه، وهرب إلى المدينة، وملك المهير اليمامة. ثم مات واستخلف عليها عبد الله بن النعمان من بني قيس بن ثعلبة من الدول، فبعث المُنْدَلِب بن ادريس الحنفي على الفلج قرية من قرى بني عامر بن صَعْصَعة، فجمع له بني كعب بن ربيعة بن عامر، وبني عمير، فقتلوا المندلب وأكثر أصحابه. فجمع عبد الله بن النعمان جموعاً من حنيفة وغيرها، وغزا الفلج وهزم بني عقيل وبني بشير وبني جُعْدَة وقتل أكثرهم.

ثم اجتمعوا ومعهم نُمَيْر فلقوا بعض حنيفة بالصحراء فقتلوهم وسلبوا نساءهم. ثم جمع عمر بن الوازع الحَنَفيّ الجموع وقال: لست بدون عبد الله بن النعمان، وهذه فترة من السلطان. وأغار وامتلأت يداه من الغنائم، وأقبل ومن معه وأقبلت بنو عامر، والتقوا فانهزم بنو حنيفة ومات أكثرهم من العطش. ورجع بنو عامر بالأسرى والنساء، ولحق عمر بن الوازع باليمامة. ثم جمع عبيد الله بن مسلم الحنفي جمعاً وأغار على قُشَيْر وعكْل فقتل منهم عشرين. وسمّى المثنّى بن يزيد بن عمر بن هُبَيْرة والياً على اليمامة من قبل أبيه حتى ولي العراق لمروان، فتعرض المثنى لبني عامر وضرب عدّة من بني حنيفة وحلقهم. ثم سكنت البلاد، ولم يزل عبيد الله بن مسلم الحنفي مستخفياً، حتى قدم كسرى بن عبيد الله الهاشمي والياً على العامّة لبني العباس ودلّ عليه فقتله».

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢٣٤-٢٣٥.

٨ - اختلاف أهل خراسان

في السنة السادسة والعشرين وقع الخلاف بخراسان بين النزارية واليمانية، وأظهر الكرماني الخلاف لنصر بن سيار. وسبب ذلك أن نصراً، لما رأى الفتنة قد ثارت، رفع حاصل بيت المال وأعطى الناس بعض أعطياتهم[1]. لكن الناس طلبوا أكثر، فقال لهم: «ما لكم عندي عطاء».

ثم قدم على نصر عهد خراسان من عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والي العراق، فانتفض عليه جديع بن علي الكرماني، وهو أزدي، وقال لأصحابه:[2]

«هذه فتنة فانظروا لأموركم رجلاً».

فقالوا: أنت! وولوه.

وأكمل ابن خلدون رواية أحداث خراسان، فكتب:[3]

«وكان الكرماني قد أحسن إلى نصر في ولاية أسد بن عبد الله، فلما ولى نصر عزله عن الرياسة بغيره، فتباعد ما بينهما. وأكثر على نصر أصحابه في أمر الكرماني، فاعتزم على حبسه، وأرسل صاحب حرسه ليأتي به. وأراد الأزد أن يخلصوه فأبى، وجاء إلى نصر يعدِّد عليه أياديه قبله، من مراجعة يوسف بن عمر في قتله، والغرامة عنه، وتقديم ابنه للرياسة. ثم قال: فبدلت ذلك بالإجماع على الفتنة، فأخذ يعتذر وتنصل، وأصحاب نصر يتحاملون عليه، مثل مسلم بن أحْوَر وعِصْمة بن عبد الله الأسدي.

ثم ضربه وحبسه آخر رمضان سنة ست وعشرين، ثم نقب السجن واجتمع له ثلاثة آلاف، وكانت الأزد قد بايعوا عبد الملك ابن حَرْمَلة على الكتاب والسنة. ولما جاء الكرماني قدّمه عبد الملك، ثم عسكر نصر على باب مرو الروذ، واجتمع إليه الناس، وبعث سالم بن أحْوَر في الجموع إلى الكرماني، وسفر الناس بينهما على أن يؤمنه نصر ولا يحبسه. وأجاب نصر إلى ذلك، وجاء الكرماني إليه وأمره بلزوم بيته. ثم بلغه

(١) الطبرين مرجع سابق، جزء ٤، ص٢٦٥.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢٣٥.
(٣) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص٢٣٥-٢٣٦.

عن نصر شيء فعاد إلى حاله، وكلّموه فيه فأمّنه، وجاء إليه وأعطى أصحابه عشرة عشرة. فلما عزل جمهور عن العراق وولي عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، خطب نصر قدام ابن جمهور وأثنى على عبد الله، فغضب الكرماني لابن الجمهور، وعاد لجمع المال واتخاذ السلاح. وكان يحضر الجمعة في ألف وخمسمائة، ويصلي خارج المقصورة، ويدخل فيسلم ولا يجبس. ثم أظهر الخلاف، وبعث إليه نصر سالم بن أحور فأفحش في صرفه، وسفر بينهما الناس في الصلح على أن يخرج الكرماني من خراسان، وتجهز للخروج إلى جرجان».

٩ – مسير مروان إلى الشام وخلع الخليفة إبراهيم

في السنة السابعة والعشرين بعد المائة سار مروان بن محمد إلى الشام لقتال الخليفة إبراهيم بن الوليد. وكان مروان قد عارض قتل الوليد، لكنه عاد وبايع يزيداً بن الوليد الذي ولاه أرمينيا.

فلما توفي يزيد وبويع أخوه إبراهيم، انتفض عليه الناس وكان يسلّم عليه أحياناً بالخلافة، وأحياناً بالإمارة. وأقام على ذلك ثلاثة أشهر، ثم خلعه مروان بن محمد.[1]

روى ابن كثير تفاصيل الصراع بين مروان وإبراهيم وصولاً إلى خلع إبراهيم وهربه من دمشق ومبايعة مروان بالخلافة، فكتب:[2]

«استهلت هذه السنة[3] والخليفة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بوَصيَّة أخيه يزيد الناقص إليه، وبايعه الأمراء بذلك، وجميع أهل الشام إلاّ أهل حمص فلم يبايعوه.. وقد تقدم أن مروان بن محمد الملقب بالحمار كان نائباً بأذربيجان وأرمينيا، وتلك كانت لأبيه من قبله. وقد كان نقم على يزيد بن الوليد في قتله الوليد

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢٣٨.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٢٣-٢٤.
(٣) سنة ١٢٧ هـ.

بن يزيد، وأقبل في طلب دم الوليد. فلما انتهى إلى حران أناب وبايع يزيد بن الوليد، فلم يلبث إلاّ قليلاً حتى بلغه موته، فأقبل في أهل الجزيرة حتى وصل قنسرين فحاصر أهلها فنزلوا على طاعته. ثم أقبل إلى حمص وعليها عبد العزيز بن الحجاج من جهة أمير المؤمنين إبراهيم بن الوليد فحاصرهم حتى يبايعوا لإبراهيم بن الوليد، وقد أصروا على عدم مبايعته. فلما بلغ عبد العزيز قرب مروان بن محمد ترحّل عنها، وقدم مروان إليها فبايعوه وساروا معه قاصدين دمشق، ومعهم جند الجزيرة وجند قنسرين.

فتوجّه مروان إلى دمشق في ثمانين ألفاً، وقد بعث إبراهيم بن الوليد سليمان بن هشام بن عبد الملك في مائة وعشرين ألفاً. فالتقى الجيشان عند عين الجر من البقاع، فدعاهم مروان إلى الكف عن القتال وأن يتخلوا عن أبي الوليد بن يزيد وهما الحكم وعثمان اللذان قد أخذ العهد لهما، وكان يزيد قد سجنهما بدمشق. فأبوا عليه ذلك، فاقتتلوا قتالاً شديداً من حين ارتفاع النهار إلى العصر. وبعث مروان سرية تأتي جيش سليمان بن هشام من ورائهم، فتمّ لهم ما أرادوه، وأقبلوا من ورائهم يكبرون، وحمل الآخرون من تلقاهم عليهم، فكانت الهزيمة في أصحاب سليمان، فقتل منهم أهل حمص خلقاً كثيراً، واستبيح عسكرهم. وكان مقدار ما قتل من أهل دمشق في ذلك اليوم قريباً من سبعة عشر ألفاً أو ثمانية عشر ألفاً وأسر منهم مثلهم. فأخذ عليهم مروان البيعة للغلامين ابني الوليد، الحكم والعثمان، وأطلقهم كلهم سوى رجلين وهما يزيد بن العقار والوليد بن مصاد الكلبيان، فضربهما بين يديه بالسياط وحبسهما فماتا في السجن، لأنهما كانا ممن باشر قتل الوليد بن يزيد حتى قتل. وأما سليمان بن هشام وبقية أصحابه فإنهم استمروا منهزمين، فما أصبح لهم الصبح إلاّ بدمشق فأخبروا أمير المؤمنين إبراهيم بن الوليد بما وقع. فاجتمع معهم رؤوس الأمراء في ذلك الوقت وهم عبد العزيز بن الحجاج ويزيد بن خالد بن عبد الله القسري، وأبو علاقة السكسكي، والأصبغ بن ذؤالة الكلبي ونظراؤهم، على أن يعمدوا إلى قتل ابني الوليد الحكم وعثمان، خشية أن يليا الخلافة فيهلكا من عاداهما وقتل أباهما.

فبعثوا إليهما يزيد بن خالد بن عبد الله القسري، فعمد إلى السجن وفيه الحكم وعثمان ابنا الوليد وقد بلغا، ويقال وولد لأحدهما ولد، فشدخها بالعمد. وقتل يوسف بن عمر، وكان مسجوناً معهما. وكان في سجنهما أيضاً أبو محمد السفياني فهرب فدخل في بيت داخل السجن وجعل وراء الباب ردماً، فحاصروه فامتنع، فأتوا بنار ليحرقوا الباب. ثم اشتغلوا عن ذلك بقدوم مروان بن محمد وأصحابه إلى دمشق في طلب المنهزمين.

لما أقبل مروان بمن معه من الجنود من عين الجر واقترب من دمشق وقد انهزم أهلها بين يديه بالأمس، هرب إبراهيم بن الوليد. وعمد سليمان بن هشام إلى بيت المال ففتحه وأنفق ما فيه على أصحابه ومن اتبعه من الجيوش. وثار موالي الوليد بن يزيد إلى دار عبد العزيز بن الحجاج فقتلوه فيها وانتهبوها ونبشوا قبر يزيد بن الوليد وصلبوه على باب الجابية. ودخل مروان بن محمد دمشق فنزل في أعاليها وأتى بالغلامين الحكم وعثمان وهما مقتولان وكذلك يوسف بن عمر فدفنوه.

وأتي بأبي محمد السفياني وهو في كبوله فسلم على مروان بالخلافة فقال مروان: مه، فقال: إن هذين الغلامين جعلاها لك من بعدهما.

ثم قال أبو محمد السفياني لمروان: أبسط يدك، فكان أول من بايعه بالخلافة، فمعاوية بن يزيد بن حصين بن نمير ثم بايعه رؤوس أهل الشام من أهل دمشق وحمص وغيرهم.

ثم قال لهم مروان: اختاروا أمراء نوليهم عليكم، فاختار أهل كل بلد أميراً فولاه عليهم. فعلى دمشق زامل بن عمرو الجبراني، وعلى أهل حمص عبد الله بن شجرة الكندي، وعلى الأردن الوليد بن معاوية بن مروان، وعلى أهل فلسطين ثابت بن نعيم الجذامي. ولما استوت الشام لمروان بن محمد رجع إلى حران. وعند ذلك طلب منه إبراهيم بن الوليد الذي كان خليفة وابن عمه سليمان بن هشام الأمان فأمنهما. وقدم عليه سليمان بن هشام في أهل تدمر فبايعوه. ثم لما استقر مروان في حران أقام فيها ثلاثة أشهر فانتقض عليه ما كان انبرم له من مبايعة

أهل الشام، فنقض أهل حمص وغيرهم. فأرسل إلى أهل حمص جيشاً فوافوهم ليلة عيد الفطر من هذه السنة.(١) وقدم مروان إليها بعد الفطر بيومين، فنازلها مروان في جنود كثيرة، ومعه يومئذ إبراهيم بن الوليد المخلوع، وسليمان بن هشام، وهما عنده مكرمان خصيصان لا يجلس إلاّ بهما وقت الغداء والعشاء.

فلما حاصر حمص نادوه إنّا على طاعتك، فقال: افتحوا باب البلد ففتحوه. ثم كان منهم بعض القتال فقتل منهم [خلق] نحو الخمسمائة أو الستمائة، فأمر بهم فصلبوا حول البلد، وأمر بهدم بعض سورها. وأما أهل دمشق فإن أهل الغوطة حاصروا أميرهم زامل بن عمرو وأمّروا عليهم يزيد بن خالد القسري وثبت في المدينة نائبها. فبعث إليه أمير المؤمنين مروان من حمص عسكراً نحو عشرة آلاف. فلما اقتربوا من دمشق خرج النائب فيمن معه والتقوا هم والعسكر بأهل الغوطة فهزموهم وحرقوا المزة وقرى أخرى معها».

١٠ القتال ضد سليمان بن هشام وحصار حمص

بعد ذلك خلع سليمان بن هشام بن عبد الملك الخليفة مروان وسار بعشرة آلاف فارس إلى قنسرين. وكاتب أهل الشام فالتحقوا به، كما كتب إلى ابن هبيرة الذي كان مروان قد جهّزه في سبعين ألفاً لقتال الضحاك الخارجي فالتحق به. وهكذا أصبح مع سليمان جيش كبير.

أرسل مروان إليه جيشاً قِوَامه سبعون ألفاً بقيادة عيسى بن مسلم، فالتقى الجيشان في أرض قنسرين فاقتتلوا قتالاً شديداً. ثم التحق مروان بمكان المعركة فقاتل إلى جانب عيسى فهزم سليمان وهرب إلى حمص، فالتف عليه من انهزم من جيشه فعسكر بهم فيها وبنى ما كان مروان قد هدم من سورها. فجاءهم مروان ونصب عليهم نيفاً وثمانين منجنيقاً وحاصر حمص، وبقي في حصارها ثمانية أشهر يرميهم بالمنجنيق ليلاً نهاراً، ويخرجون إليه كل يوم ويقاتلونه ثم يعودون إلى حصنهم.(٢)

---

(١) سنة ١٢٧ هـ.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص٢٣٩-٢٤٠.

وبقي مروان محاصِراً حمص عشرة أشهر، ثم سألوه الأمان فأجابهم إلى ذلك على شروط له قبل أن يسير إلى الضحاك الخارجي.[1]

١١ - القتال بين نصر بن سيار والكرماني

اختلف نصر بن سيار في السنة الثامنة والعشرين بعد المائة مع الحارث[2] بن سريج لأسباب يطول شرحها. أرسل إليه نصر يدعوه لمبايعة مروان بن محمد، فلم يجبه إلى ما أراد، وخرج وجمع جنوده وعسكر فيهم بعد أن كثر جمعه. عرض عليه نصر أن يوليه ما وراء النهر ويعطيه ثلاثمائة ألف، فلم يقبل. وهكذا استعدّ الجانبان للحرب.

ودلّ رجل من أهل مرو الحارث على ثغرة في سور مرو فمضى إليه هذا الأخير ونقبه ودخل المدينة، فقاتله عامل نصر بن سيار عليها واسمه جهم بن مسعود الناجي الذي قتل بنتيجة الحرب. كما قتل من كان يحرس أحد أبواب المدينة، وهو باب «بالين»، كما نهب الحارث منزل سالم بن أحوز.[3]

عند هذا الحد ركب سالم ونادى في المدينة: «من جاء برأس فله ثلاثمائة»، فلم تطلع الشمس حتى انهزم الحارث وقتل جمع كبير من جنده.[4]

ثم بعث الحارث ابنه حاتماً إلى الكرماني يستجيشه، وكان الكرماني وجنده يتمركزون بالقرب من مرو. فقال أصحاب الحارث له: «دع عدُوَّيك يضطربان».

نقل ابن خلدون رواية القتال الذي هزم فيه نصر بن سيار وانتصر الكرماني الذي استولى على مرو، فكتب:[5]

(١) عولج موضوع الضحاك في فصل ثورات الخوارج.
(٢) في ابن الأثير وابن خلدون: الحرث بن سريج.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٢٩٣.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص١٨.
(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٢٥٠.

«وخرج نصر من مرو من الغد، فقاتلهم ثلاثة أيام، وانهزم الكرماني وأصحابه، ونادى مناد يا معشر ربيعة واليمن! إن أبا سيّار قتل. فانهزمت مُضَر ونصْر وترجّل ابنه تميم، فقاتل وأرسل إليه الحرث إني كافٍ عنك فإن اليمانية يعيّرونني بانهزامكم، فاجعل أصحابك إزاء الكرماني. ولما انهزم نصر غلب الكرماني على مرو ونهب الأموال، فأنكر ذلك عليه الحرث، ثم اعتزل عن الحرث بشر بن جُرْمُوز الضبّي في خمسة آلاف، وقال: إنما كنا نقاتل معك طلباً للعدل، فأما إن اتبعت الكرماني للعصبية فنحن لا نقاتل. فدعا الحرث الكرماني إلى الشورى فأبى، فانتقل الحرث عنه وأقاموا أياماً. ثم ثلم الحرث السور ودخل البلد وقاتله الكرماني قتالاً شديداً فهزمه وقتله وأخاه سوادة.

واستولى الكرماني على مرو، وقيل إن الكرماني خرج مع الحرث لقتال بشْر بن جُرْموز. ثم ندم الحرث على اتباع الكرماني، وأتى عسكر بشر فأقام معهم، وبعث إلى مضر من عسكر الكرماني فساروا إليهم، وكانوا يقتتلون كل يوم ويرجعون إلى خنادقهم. ثم نقب الحرث بعد أيام سور مرو ودخلها وتبعه الكرماني واقتتلوا، فقتل الحرث وأخاه، وبشر بن جُرموز وجماعة من بني تميم. وذلك سنة ثمان وعشرين ومائة. فانهزم الباقون، وصفت مرو لليمن وهدموا دور المُضَريّة».

١٢ – الدروس والعبر والنتائج

أ – اعتبر استخلاف يزيد الثاني بدلاً من القائد الكبير مسلمة بن عبد الملك بدء تقهقر الدولة الأموية تمهيداً لسقوطها. فالدول لا يمكن أن تقوم إلاّ على الجدارة وحسن الإدارة والوطنية الصادقة.

علاوة على ذلك، انغمس الخليفة يزيد الثاني في التعصّب القبلي، فمال إلى الحزب المضري وأصبح طرفاً في النزاعات التي قامت بين القيسية واليمانية بدلاً من أن يكون حكماً بينهما ومترفّعاً عن الخلافات بين الفِرَق والمذاهب التي تتكوّن منها الدولة.

وبالفعل، بدأت الفتن وثارت المدن والجماعات على الخلافة، واضطرب الناس

وتحكّمت الصراعات القبلية بهم، وتم استبدال الخلفاء بالقوة، وقُطع حبل الأمن. وكل هذه الأحداث إنما هي مظاهر بشّرت بقرب تغيير الدولة الأموية تمشياً مع قاعدة صعود الأمم وهبوطها.

يقول المفكر بول كنيدي في كتابه الشهير «صعود الأمم وهبوطها» إن «انحطاط الإمبراطوريات يبدأ عندما لا تعود قادرة على تحمّل نفقات توسعها في وقت يكون التوسع ضرورة للمحافظة على قوتها».

هذا ما بدأت تعانيه الدولة الأموية منذ عهد يزيد الثاني.

ب - خلال ثورة حمص ضد الخليفة يزيد، ارتكب قادتها خطأً استراتيجياً أدى إلى إجهاض ثورتهم وإخضاعهم مجدداً إلى الحكم الأموي. فقد كان الخليفة أرسل إليهم جيشاً بقيادة سليمان بن هشام، فأشار عليهم أحد قادتهم بمقاتلة هذا الجيش قبل التوجّه إلى الشام. لكنهم رفضوا وتركوا مؤخرة جيشهم مكشوفة ودون حماية واتجهوا بجموعهم نحو الشام لحرب الخليفة، فهاجمهم الجيش الأموي أثناء قتالهم لجيش الشام وهزمهم.

ففي العمليات العسكريات ينبغي على القائد حماية ميسرة وميمنة جيشه ومؤخرته إذ إن عظيم القوى العسكرية يسير عادة نحو العدو في سير الاقتراب، وتكلف مفارزُ قتالية بالتقدم على ميمنة أو ميسرة طريق تقدمه لتأمين الحماية له من الجهة المهدّدة.

وفي الخطط الدفاعية تفصل الوحدة الكبرى مجموعات قتالية على مجنباتها وأمامها تسمى «مسالح» لتجنب مفاجآت العدو، ولإعطاء الوقت اللازم لاستنفار القوى عند تقدم هذا العدو نحو المراكز الدفاعية.

ج - عندما خرج أهل فلسطين والأردن على الخليفة يزيد، استعمل في إخضاعهم سياسة «فرّق تسد»، فاسترضى أهل فلسطين الذين عادوا عن قتاله، الأمر الذي أنهى تمرّد أهل الأردن دون قتال.

د - في القتال بين مروان بن محمد وجيش الخليفة عند عين الجرّ، ورغم التفوق العددي لجيش الخليفة، تمكّن مروان من هزيمته بعد أن استغلّ عنصر المفاجأة فأرسل سرية جاءت عدوه من الخلف وأمّنت تطويق هذا الجيش الذي هزم.

بعد ذلك أمّن مروان حرية عمله وتفوُّق جيشه، فسار إلى دمشق ودخلها وخلع الخليفة فبايعه أهلها بالخلافة تمشياً مع القول الشائع: «الحق مع القوي دائماً».

هـ - كان مروان بن محمد من أبرز القادة العسكريين الذين عرفتهم الدولة الأموية في أواخر عهدها. لقد تمكن هذا القائد الكبير من إخضاع جميع الذين ثاروا عليه مطبِّقاً مبادئ الحرب وقواعد القتال أفضل تطبيق. لكن المؤرخين توافقوا على التأكيد أنه جاء متأخراً لتسلّم مقدرات الخلافة الأموية، وفي وقت كان الوهن والتضعضع قد تغلغلا فيها ومزّقا أوصالها. لذلك، ورغم الإنجازات العسكرية التي حققّها، فإنه لم يستطع المحافظة على الحكم الأموي الذي زال بعهده وانتقل إلى آل العباس.

ففي قتاله ضد سليمان، ورغم تفوُّق جيش خصمه العددي، تمكّن من الانتصار. ولما فرّ سليمان إلى حمص وحصّنها ورمّم سورها، طبق الخليفة استراتيجية الملاحقة والشدّة والاستمرارية والسحق بنيران المنجنيقات التي نصب ثمانين منها حول المدينة. ورغم بقاء الحصار مدة عشرة أشهر، اعتمد الخليفة طوالها سياسة رمي المدينة بالمنجنيق ليلاً نهاراً، الأمر الذي دفع بأهلها إلى الاستسلام وطلب الأمان.

و - حاصر الحارث بن سريج مرو ودخلها، بعد أن دلّه أحد أهلها على ثغرة في سورها، وكاد أن يتغلب على أهلها. لكن سالم بن أحوز وعد بمنح ثلاثمائة دينار إلى كل من يقتل أحد عناصر الحارث، فلم تطلع الشمس حتى انهزم هذا الأخير بعد أن قتل عدد كبير من جنوده.

من هذه المعلومات يمكننا استخلاص عِبْرَتَيْن:

الأولى: ضرورة إقفال جميع منافذ المدينة المحاصَرة وعدم إهمال أي جانب أو باب أو مدخل لها.

الثانية: إن تحفيز المقاتلين ودفعهم لبذل أقصى جهدهم في القتال مهما كانت الطريقة المستعملة لأجل ذلك، هو أفضل الوسائل لتحقيق مبدأ الحرب الثالث أي الحصيل الأقصى للوسائل، وبالتالي

النجاح في المناورة وتحقيق الانتصار على الخصم.

أما الكرماني، فقد استغلّ خلال القتال حول مرو، شائعة وفاة الوالي نصر بن سيّار لتأمين انتصاره وسيطرته على المدينة. فالشائعات تنتشر بسرعة خلال الأزمات فيصدقّها الناس بسهولة نظراً لصعوبة التحقق من صحتها. لذلك دأبت أجهزة الاستخبارات العسكرية على استعمال هذا السلاح المعنوي والنفسي في حروبها ضد أعدائها. فالحرب النفسية هي مظهر مهم من مظاهر الصراع العسكري كونها تأتي بنتائج بالغة الأهمية دون أية خسارة بالأرواح.

ملحق رقم ٥

لائحة الخلفاء الأمويين[١]

اسم الخليفة	مدة حكمه
معاوية بن أبي سفيان	عشرون سنة.
يزيد بن معاوية	ثلاث سنين وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً.
معاوية بن يزيد	شهر وأحد عشر يوماً.
مروان بن الحكم	ثمانية أشهر وخمسة أيام.
عبد الملك بن مروان	إحدى وعشرون سنة وشهر وعشرون يوماً.
الوليد بن عبد الملك	تسع سنين وثمانية أشهر ويومان.
سليمان بن عبد الملك	سنتان وستة أشهر وخمسة عشر يوماً.
عمر بن عبد العزيز	سنتان وخمسة أشهر وخمسة أيام.
يزيد بن عبد الملك	أربع سنين وثلاثة عشر يوماً.
هشام بن عبد الملك	تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسعة أيام.
الوليد بن يزيد بن عبد الملك	سنة وثلاثة أشهر.
يزيد بن الوليد بن عبد الملك	شهران وعشرة أيام.
مروان بن محمد	خمس سنين وشهران وعشرة أيام.
المجموع	تسعون سنة وأحد عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً. تضاف إليها ثمانية أشهر كان خلالها مروان بن محمد يقاتل فيها بني العباس، فيصبح ملكهم إحدى وتسعون سنة وسبعة أشهر وثلاثة عشر يوماً.

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٣، ص٢٨٤.

القسم الثاني

الثورة العباسيّة



رأينا سابقاً أنه، عند وفاة النبي ﷺ، أراد المسلمون عدم حصر النبوة والخلافة في بني هاشم، لذلك بايعوا بالخلافة أبا بكر الصدِّيق وبعده عمر بن الخطاب، واستُبعِد علي بن أبي طالب. ومع خلافة عثمان بن عفان بدأت الخلافات الداخلية في الإسلام تبرز إلى العيان، إلى أن قتل الخليفة عثمان فوقعت الفتنة الكبرى الأولى في الإسلام.

وبعد مقتل عثمان قام الصراع لخلافته بين الأسرة الهاشمية المتمثلة بالإمام علي بن أبي طالب، والأسرة السفيانية المتمثلة بوالي الشام معاوية بن أبي سفيان، الذي خرج منتصراً من هذا الصراع فأقام الخلافة العربية الأموية التي استمرت ما يقارب التسعين عاماً.

ومع قيام الخلافة الأموية تجدّد الصراع بين الأمويين وبني هاشم وأخذ شكلاً دموياً، بدأ في صفين وبلغ ذروته في كربلاء، حين استُشهِد الإمام الحسين. وبعد كربلاء انقسم العالم الإسلامي إلى فئتين:

- الفئة الحاكمة من الأمويين الذين أقاموا دولتهم في الشام.

- الفئة المغلوبة من الشيعة والعلويين والذين تنادوا إلى الأخذ بثأر الإمام الحسين من قتلته.

هذا علاوة على الفئة الثالثة التي شكّلها الخوارج الذين خرجوا من جيش علي بعد التحكيم وقاموا بثورات ضد الحكم الأموي طيلة عهده.

الشيعة من جهتهم قاموا بثورات عديدة ضد الحكم الأموي سبق الكلام عنها في هذه الموسوعة. إلاّ أن كل الثورات الشيعية باءت بالفشل لأسباب أهمها:

- افتقارها إلى التخطيط بعيد المدى.
- عدم اعتماد العمل المنظّم في قيامها.
- تنفيذها ضد دولة كانت ما تزال في ذروة قوتها وازدهارها.
- تنفيذها في شكل ظاهر ومباشر ضد الحكم الأموي الذي كان يعرف تفاصيلها ويقوم دائماً بقمعها بقسوة.

رغم ذلك، تمكّنت بعض هذه الثورات من هزّ دعائم الحكم الأموي بعنف وكادت تسقطه.

بعد فشل كل الثورات الشيعية، اتجه الشيعة في أواخر العصر الأموي إلى تغيير استراتيجيتهم من جانبين:

- الأول انتقال الدعوة الشيعية من العلن إلى التستّر واستعمال الحيطة والحذر في بناء الجهاز التنظيمي للدعوة.

- الثاني انتقال قيادة الحركة من فرع علي بن أبي طالب إلى فرع آخر هو الفرع العباسي، نسبة إلى العباس عم النبي ﷺ.

وكان العباسيون قد سبق وحاربوا في صفوف الشيعة ودعموا تحركات أبناء الإمام علي وأحفادهم وقاتلوا في صفوفهم. ولم تكن لهم طموحات سياسية لتسلم الخلافة بأنفسهم، إلى أن وقع حدث غيّر مفاهيمهم هذه ودفعهم إلى تسلم قيادة الحركة المناوئة للأمويين والمطالبة بتغييرهم.

والحدث وقع عندما قام أحد زعماء الشيعة، أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية صاحب الدعوة الكيسانية الشيعية، بزيارة إلى نسيبه محمد بن علي بن العباس وتوفي عنده، وعيّنه قبل وفاته ليخلفه في الإمامة كونه لم يكن له أولاد ليرثوه.

راح صاحب الدعوة الجديد يعمل في الخفاء وبكل حذر في بناء الجهاز التنظيمي للدعوة، فجعل لها مجلساً مؤلفاً من اثني عشر نقيباً يتبعهم سبعون داعية، غالبيتهم من اليمانية الذين أظهروا حماساً كبيراً في دعمه. ودعيت دعوته «الهاشمية» نسبة إلى هاشم الجد الأعلى للرسول ﷺ، وقيل نسبة إلى أبي هاشم بن محمد بن الحنفية.

وقع الاختيار على خراسان لتتقبل بداية الدعوة العباسية كونها بعيدة من مركز الحكم الأموي من جهة، ويقطنها سكان غير عرب قامت على أكتافهم الثورة العباسية منذ بدايتها من جهة أخرى. ففيما اعتمدت الخلافة الأموية على العنصر العربي في حكمها، اعتمدت الدعوة العباسية خاصة على العنصر الفارسي الذي قامت ثورتها على أكتافه، وكان أبرز دعاتها منه وهو أبو مسلم الخراساني.

وهكذا راح دعاة الحركة العباسية يجوبون بلاد خراسان بسريّة تامة متظاهرين بأنهم تجار، فيما كانوا يراسلون صاحب الحركة أو يجتمعون به في مواسم الحج.

وزيادة في السرية لم تؤخذ البيعة باسم «آل العباس»، إنما باسم أهل البيت، إذ كان شعارها المعروف هو «الرضا من آل محمد ﷺ». لذلك استقطبت الشيعة والعلويين على مختلف فئاتهم، علاوة على الموالي والفرس وغير العرب الذين كانوا مضطهدين خلال الحكم الأموي إذ إن الخلفاء الأمويين آثروا العنصر العربي واضطهدوا كل ما هو غير عربي.

وفي السنة ١٢٦ هجرية حصل حادث آخر دفع الدعوة إلى الأمام، وهو وفاة صاحبها محمد بن علي بن عبد الله بن العباس قبل تحقيق أحلامه في إسقاط الخلافة الأموية. وانتقلت الزعامة بعده إلى ابنه إبراهيم الذي دعي «الإمام»،والذي أمر بالبدء بمرحلة جديدة من الدعوة بانتقالها من السرية إلى العلنية بعد أن ظهرت شخصية أسطورية مارست السلطة على كل نقباء الحركة بإيعاز من الإمام إبراهيم. هذه الشخصية هي شخصية أبي مسلم الخراساني.

كتب الطبري عن إظهار الدعوة:[١]

«في السنة التاسعة والعشرين أمر إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس أبا مسلم، وقد شخص من خراسان يريده حتى بلغ قومس، بالانصراف إلى شيعة خراسان، وأمرهم بإظهار الدعوة والتسويد.

فقدم أبو مسلم مرو في أول يوم من شهر رمضان، ودفع كتاب الإمام إلى سليمان بن كثير، وكان فيه أن أظهر دعوتك ولا تربّص، فقد آن ذلك. فنصّبوا أبا مسلم، وقالوا: رجل من أهل البيت، ودعوا إلى طاعة بني العباس، وأرسلوا إلى من قرب منهم أو بعد عنهم ممن أجابهم، فأمروه بإظهار أمرهم والدعاء إليهم. ونزل أبو مسلم قرية من قرى خزاعة يقال لها سفيذنج وشيبان، والكرماني يقاتلان نصر بن سيار، فبث دعاته في الناس، وظهر أمره...».

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٠٥-٣٠٦.

كما كتب ابن كثير عن الموضوع نفسه:[1]

«ورد كتاب من إبراهيم بن محمد الإمام العباسي بطلب أبي مسلم الخراساني من خراسان، فسار إليه في سبعين من النقباء، لا يمرون ببلد إلاّ سألوهم إلى أين تذهبون؟ فيقول أبو مسلم: نريد الحج. وإذا توسم أبو مسلم من بعضهم ميلاً إليهم دعاهم إلى ما هم فيه فيجيبه إلى ذلك. فلما كان ببعض الطريق جاء كتاب ثان من إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم: إني بعثت إليك براية النصر فارجع إلى خراسان واظهر الدعوة، وأمر قحطبة بن شبيب أن يسير بما معه من الأموال والتحف إلى إبراهيم الإمام فيوافيه في الموسم. فرجع أبو مسلم بالكتاب فدخل خراسان في أول يوم من أيام رمضان فرفع الكتاب إلى سليمان بن كثير وفيه: أن أظهر دعوتك ولا تتربص. فقدموا عليهم أبا مسلم الخراساني داعياً إلى بني العباس، فبعث أبو مسلم دعاته في بلاد خراسان، وأمير خراسان (نصر بن سيار) مشغول بقتال الكرماني، وشيبان بن سلمة الحروري، وقد بلغ من أمره أنه كان أصحابه يسلمون عليه بالخلافة في طوائف كثيرة من الخوارج. فظهر أمر أبي مسلم وقصده الناس من كل جانب، فكان ممن قصده في يوم واحد أهل ستين قرية، فأقام هناك اثنين وأربعين يوماً، ففتحت على يديه أقاليم كثيرة. ولما كان ليلة الخميس لخَمْس بَقَيْنَ من رمضان في هذه السنة، عقد أبو مسلم اللواء الذي بعثه إليه الإمام، ويدعى الظل، على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً، وعقد الراية التي بعث بها الإمام أيضاً، وتدعى السحاب، على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً، وهما سوداوان، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُم ظُلِمُوا وَإِنَّ الله عَلَى نَصْرِهِم لَقَدِيرٌ﴾[2] ولبس أبو مسلم وسليمان بن كثير ومن أجابهم إلى هذه الدعوة، السواد، وصارت شعارهم،

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٣١-٣٢.

(٢) سورة الحج: الآية ٣٩.

وأوقدوا في هذه الليلة ناراً عظيمة يدعون بها أهل تلك النواحي وكانت علامة بينهم فتجمعوا. ومعنى تسمية إحدى الرايتين بالسحاب أن السحاب كما يطبق جميع الأرض كذلك بنو العباس تطبق دعوتهم أهل الأرض. ومعنى تسمية الأخرى بالظل أن الأرض كما أنها لا تخلو من الظل فكذلك بنو العباس لا تخلو الأرض من قائم منهم. وأقبل الناس إلى أبي مسلم من كل جانب، وكثر جيشه جداً».

وفي السنة ١٣١ هـ سقطت خراسان بيد أبي مسلم، ثم تلاها العراق بعد معارك قاسية بين الجانبين. لكن الضربة القاضية كانت في معركة الزاب الأعلى التي انتصر فيها عبد الله بن علي العباسي على آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد، فانتقل الحكم من الأمويين إلى العباسيين.

رأى بعض المؤرخين أن سقوط الدولة الأموية أدى إلى عصر جديد في الإسلام، إذ إنه أنهى سيادة العرب على الخلافة التي أبدلت بالسيادة الفارسية. ويصنّف بعضهم الثورة العباسية بين الثورات الكبرى في التاريخ التي غيرت مجراه.

سنعمد في الفصول اللاحقة إلى تفصيل المعارك والعمليات العسكرية التي أدت إلى إنهاء السيطرة الأموية على العالم الإسلامي وإبدالها بالسيطرة العباسية.

الفصل السادس
إطلاق الدعوة العباسية

نزل أبو مسلم قرية من قرى مرو[1]، ووجّه منها أبا داود النقيب ومعه عمرو بن أعين إلى طخارستان، ووجّه نصراً بن صبيح التميمي، وشريكاً بن غضي التميمي إلى مرو الروذ، وأبا عاصم بن عبد الرحمن بن سليم إلى الطالقان، والجهم بن عطية إلى خوارزم. وأمرهم بإظهار الدعوة والدفاع عن أنفسهم والجهاد ضد أعداء الله.

وبثّ أبو مسلم دعاته في الناس وأظهر أمره فجاءه في ليلة واحدة أهل ستين قرية، وقدم عليه الدعاة الذين أجابوا الدعوة، ومنهم:[2]

- أهل التقادم مع أبي الوضاح في تسعمائة رجل وأربعة فرسان.
- أهل هرمز.
- أبو القاسم محرز بن إبراهيم الجوباني في ألف وثلاثمائة راجل وستة عشر فارساً.

فلما حلّ عيد الفطر، أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلّي بالشيعة ويبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان وإقامة.[3]

١ - القتال ضد والي خراسان نصر بن سيار

بعد أن كتب أبو مسلم إلى نصر بن سيار، وجّه هذا مولى له اسمه يزيد في عدد كبير من الفرسان لمحاربة أبي مسلم

(١) قرية سفيذنج.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٠٧.
(٣) كان بنو أمية يبدأون بالخطبة.

بعد ثمانية عشر شهراً من ظهوره، فوجّه إليه أبو مسلم مالك بن الهيثم الخزاعي ومعه مصعب بن قيس في مائتين من الجند.

التقى الجمعان في قرية ألين فاقتتلا قتالاً شديداً طيلة النهار.[1]

ثم أرسل أبو مسلم تعزيزات إلى مالك فقوي بهم فحمل على جيش نصر بن سيار واشتدّ القتال، فحمل عبد الله الطائي على مولى نصر فأسره وانهزم أصحابه.

وهكذا انتصر أبو مسلم في الوقعة الأولى ضد نصر بن سيار، لكنها لن تكون الأخيرة.

وفي مرو الروذ انتصر خازم بن خزيمة على المدينة وقتل عامل نصر بن سيار عليها. وهكذا حال بينه وبين الخروج إلى أبي مسلم. وأرسل خازم بالفتح إلى أبي مسلم.

وفي السنة التاسعة والعشرين بعد المائة جرى قتال شديد بين عدوين لأبي مسلم، هما الكرماني ونصر بن سيار قتل فيه الأول. وكان أبو مسلم يلعب دور المراقب في هذا القتال.

ثم التحق ابن الكرماني بأبي مسلم فقاتلا نصراً بن سيار وأخرجاه من مرو. كتب ابن الأثير عن هذا القتال:[2]

«وأقبل أبو مسلم حتى نزل بين خندق الكرماني وخندق نصر وهابه الفريقان. وبعث إلى الكرماني إني معك فقبل ذلك الكرماني فانضم أبو مسلم إليه، فاشتد ذلك على نصر بن سيار. فأرسل إلى الكرماني ويحك لا تغترّ فوالله إني لخائف عليك وعلى أصحابك منه فادخل مرو ونكتب كتاباً بيننا بالصلح، وهو يريد أن يفرّق بينه وبين أبي مسلم. فدخل الكرماني منزله وأقام أبو مسلم في العسكر، وخرج الكرماني حتى وقف في الرحبة في مائة فارس وعليه قرطق وأرسل إلى نصر اخرج لنكتب بيننا ذلك الكتاب. فأبصر نصر منه غرة فوجه إليه ابن الحرث ابن سريج في نحو من ثلاثمائة فارس في الرحبة فالتقوا بها طويلاً. ثم إن الكرماني طعن في خاصرته فخرّ عن دابته وحماه أصحابه حتى جاءهم

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٣٠.

(٢) ابن الأثير مرجع سابق، جزء ٥، ص٣٣-٣٤.

ما لا قِبَل لهم فقتل نصر بن سيار الكرماني وصلبه وصلب معه سمكة. وأقبل ابنه علي وقد جمع جمعاً كثيراً فصار إلى أبي مسلم واستصحبه معه فقاتلوا نصر بن سيار حتى أخرجوه من دار الإمارة فمال إلى بعض دور مرو. وأقبل أبو مسلم حتى دخل مرو وأتاه علي ابن الكرماني وأعلمه أنه معه وسلم عليه بالإمرة وقال له: مرني بأمرك فإني مساعدك على ما تريد. فقال: أقم على ما أنت عليه حتى آمرك بأمري. ولما نزل أبو مسلم بين خندق الكرماني ونصر ورأى نصر قوّته كتب إلى مروان بن محمد يعلّمه حال أبي مسلم وخروجه وكثرة من معه، فإنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد. وكتب بأبيات شعر:

أَرَى بَينَ الرَّماد وَميضَ نَار
وأخشى أن يكون له ضرام
فإنَّ النارَ بالعودَين تُذْكَى
وإنَّ الحَرْبَ مَبْدؤها كلامُ
فقُلتُ من التَّعَجُّبِ لَيْتَ شِعْري
أأيقاظٌ أمَيَّةُ أم نِيام»

ثم ترك أبو مسلم سفيذنج ونزل الماخوان حيث حفر خندقاً وجعل له بابين وعسكر به. واستعمل على الشرطة أبا نصر مالك بن الهيثم، وعلى الحرس أبا إسحاق خالداً بن عثمان، وعلى ديوان الجند كامل بن مظفر أبا صالح، وعلى الرسائل أسلم بن صبيح، وعلى القضاء القاسم بن مجاشع النقيب.(١)

وقد عدّ أبو مسلم الجند فكان عددهم سبعة آلاف رجل.

ثم إن القبائل من مضر وربيعة واليمن تواعدوا وتداعوا لحرب أبي مسلم الذي انتقل من الماخوان إلى ألين التي نزلها وخندق بها.

أما نصر بن سيار فعسكر على نهر عياض، وجعل عاصم بن عمرو في «بلاشن جرد»، وأبا الذيال بطوسان. فسيّر أبو مسلم إليهم جنداً حاربوا أبا الذيال فهزموه وأسروا من أصحابه نحواً من ثلاثين رجلاً، داواهم أبو مسلم وأطلقهم. ولما استقر أبو مسلم أرسل محرز بن إبراهيم إلى جيرنج حيث

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣١٢.

خندق واجتمع إليه جمع من الشيعة بلغ مجموعهم ألف رجل، فقطعوا المادة عن نصر.[1]

٢ – دخول أبي مسلم مرو والبيعة له

وفي السنة الثلاثين بعد المائة للهجرة دخل أبو مسلم الخراساني مدينة مرو، ونزل دار الإمارة فيها وانتزعها من يد نصر بن سيار، وذلك بمساعدة علي بن الكرماني. وهرب نصر بن سيار في شرذمة قليلة من الناس، نحواً من ثلاثة آلاف.[2]

وكان أبو مسلم قد اتفق مع علي بن الكرماني على قتال نصر بعد دخول مرو. وكان ابن الكرماني قد دخل مرو حرباً بإيعاز من أبي مسلم الذي لحقه إليها. كتب الطبري يصف الدخول إلى مرو:[3]

«وكان دخول أبي مسلم الماخون منصرفاً عن آلين سنة ثلاثين ومائة، للنصف من صفر يوم الخميس، فأقام أبو مسلم في خندقه بالماخون ثلاثة أشهر؛ تسعين يوماً، ثم دخل حائط مرو يوم الخميس لتسع خَلَوْن من جمادي الأولى سنة ثلاثين ومائة.

قال: وكان حائط مرو إذ ذاك في يد نصر بن سيار لأنه عامل خراسان، فأرسل عليّ بن الكرماني إلى أبي مسلم أن أَدخل الحائط من قِبَلك، وأدخل أنا وعشيرتي من قِبَلي، فتغلب على الحائط. فأرسل إليه أبو مسلم أن لست آمن أن يجتمع يدك ويد نصر على محاربتي؛ ولكن ادخل أنت فانشب بينك وبينه وبين أصحابه؛ فدخل علي بن الكرماني فأنشب الحرب. وبعث أبو مسلم أبا علي شبل بن طهمان النقيب في جند، فدخلوا الحائط، فنزل في قصر بخاراخذاه؛ فبعثوا إلى أبي مسلم أن ادخل، فدخل أبو مسلم من خندق الماخون، وعلى مقدمته أسيد بن عبد الله الخزاعي، وعلى ميمنته مالك بن الهيثم الخزاعي، وعلى ميسرته القاسم بن مجاشع التميمي؛ حتى دخل

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٣٦.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٣٦.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٢٠.

الحائط؛ والفريقان يقتتلان. فأمرهما بالكفّ وهو يتلو من كتاب الله: ﴿وَدَخَلَ المَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾(١). ومضى أبو مسلم حتى نزل قصر الإمارة في مرو الذي كان ينزله عمال خراسان؛ وكان ذلك لتسع خلون من جمادى الأولى سنة ثلاثين ومائة، يوم الخميس.

وهرب نصر بن سيار عن مرو الغد من يوم الجمعة لعشرٍ خلوْن من جُمادى الأولى من سنة ثلاثين ومائة، وصفت مرو لأبي مسلم. فلما دخل أبو مسلم حائط مرو أمر أبا منصور طلحة بن زُريق بأخذ البيعة على الجند من الهاشمية خاصة. وكان أبو منصور رجلاً فصيحاً نبيلاً مفوّهاً عالماً بحجج الهاشمية وغوامض أمورهم؛ وهو أحد النقباء الاثني عشر.(٢)

٣ - هروب نصر بن سيار من مرو

استدعى أبو مسلم نصر بن سيار الذي فرّ ليلاً من مرو، بعد استدعائه، إلى سرخس، ومنها إلى طوس فنيسابور. كتب ابن الأثير عن فرار نصر ما يلي:

«ثم أرسل أبو مسلم لاهز بن قريظ في جماعة إلى نصر بن سيار يدعوه إلى كتاب الله عز وجل والرضا من آل محمد. فلما رأى ما جاءه من اليمانية، والربيعية، والعجم وأنه لا طاقة له بهم أظهر قبول ما أتاه به وأنه يأتيه ويبايعه. وجعل يرشيهم لما هم من

(١) سورة القصص: الآية ١٥.

(٢) النقباء هم: من خزاعة سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم وزياد بن صالح وطلحة بن زُريق وعمرو بن أعين، ومن طيِّئ قحطبة (واسمه زياد بن شبيب بن خالد بن مَعْدان) ومن تميم موسى بن كعب أبو عيينة ولاهز بن قريظ والقاسم بن مجاشع، كلُّهم من بني امرئ القيس، وأسلم بن سلام أبو سلام؛ ومن بكر بن وائل أبو داود خالد بن إبراهيم من بني عمرو بن شيبان أخي سدُوس وأبو علي الهروي.
ويقال: شبل بن طهمان مكان عمرو بن أعين. وعيسى بن كعب وأبو النجم عمران بن إسماعيل مكان أبي علي الهروي، وهو ختَن أبي مسلم.

الغدر والهرب إلى أن أمسوا. وأمر أصحابه أن يخرجوا من ليلتهم إلى مكان يأمنون فيه، فقال له سالم بن أحوز: لا يتهيأ لنا الخروج الليلة ولكننا نخرج القابلة. فلما كان الغد عبأ أبو مسلم أصحابه وكتائبه إلى بعد الظهر وأعاد إلى نصر لاهز بن قريظ وجماعة معه فدخلوا على نصر فقال: ما أسرع ما عدتم! فقال له لاهز بن قريظ: لا بد لك من ذلك. فقال نصر: إذا كان لا بدّ من ذلك فإني أتوضأ وأخرج إليه وأرسل إلى أبي مسلم، فإن كان هذا رأيه وأمره أتيته إلى أن يجيء رسولي. فقام نصر فلما قام قرأ لاهز بن قريظ ﴿إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين﴾[1]. فدخل نصر منزله وأعلمهم أنه ينتظر انصراف رسوله من عند أبي مسلم. فلما جنه الليل خرج من خلف حجرته ومعه تميم ابنه، والحكم بن نميلة النميري، وامرأته المرزبانة وانطلقوا هراباً. فلما استبطأه لاهز، وأصحابه دخلوا منزله فوجدوه وقد هرب. فلما بلغ ذلك أبا مسلم سار إلى معسكر نصر وأخذ ثقات أصحابه وصناديدهم فكتَّفهم، وكان فيهم سالم بن أحوز صاحب شرطة نصر، والبختري كاتبه، وابنان له، ويونس بن عبدويه ومحمد بن قطن، ومجاهد بن يحيى بن حضين، وغيرهم. فاستوثق منهم بالحديد وكانوا في الحبس عنده. وسار أبو مسلم، وابن الكرماني في طلب نصر ليلتهما فأدركا امرأته قد خلفها وسار، فرجع أبو مسلم، وابن الكرماني إلى مرو وسار نصر إلى سرخس واجتمع معه ثلاثة آلاف رجل. ولما رجع أبو مسلم سأل من كان أرسله إلى نصر ما الذي ارتاب به نصر حتى هرب؟ قالوا: لا ندري. قال: فهل تكلم أحد منكم بشيء؟ قالوا: تلا لاهز هذه الآية ﴿إن الملأ يأتمرون بك﴾ قال: هذا الذي دعاه إلى الهرب؛ ثم قال: يا لاهز تدغل في الدين، ثم قتله. واستشار أبو مسلم أبا طلحة في أصحاب نصر فقال: اجعل سوطك السيف وسجنك القبر، فقتلهم أبو مسلم، وكان عدتهم أربعة وعشرين رجلاً. وأما نصر فإنه سار من سرخس إلى طوس فأقام بها خمسة عشر

(١) سورة القصص: الآية ٢٠.

يوماً وبسرخس يوماً ثم سار إلى نيسابور فأقام بها. ودخل ابن الكرماني مرو مع أبي مسلم وتابعه على رأي وعاقده عليه، (يحيى بن حُضين) ».

كما كتب المسعودي عن فرار نصر:(١)

«وقوي أمر أبي مسلم، وغلب على أكثر خراسان، وضعف أمر نصر بن سيار من عدم النجدة، فخرج عن خراسان حتى أتى الري، وخرج عنها، فنزل ساوة من بلاد همذان والري، فمات بها كمداً.

وقد كان نصر بن سيار، لما صار بين الري وخراسان، كتب كتاباً إلى مروان يذكر فيه خروجه من خراسان، وإن هذا الأمر الذي أزعجه سينمو حتى يملأ البلاد».

٤ - معارك أخرى لأبي مسلم

وخاض أبو مسلم وقادته صراعاً طويلاً في سبيل السيطرة على خراسان نذكر منها:(٢)

- وجّه أبو مسلم موسى بن كعب إلى «أبيورد» فافتتحها.

- وجّه أيضاً أبا داود إلى بلخ فدخلها فكتب إليه أبو مسلم يأمره بالقدوم عليه. ووجه مكانه على بلخ يحيى بن نعيم أبا الميلاء الذي انضمت إليه مضر وربيعة واليمن ومن معهم من العجم.

- اتفق أبو مسلم وأبو داود على أن يفرّقا ابن الكرماني علي وعثمان تمهيداً لقتلهما. فعيّن أبو مسلم عثمان على بلخ، فأقبلت المضرية من ترمذ وعليها مسلم بن عبد الرحمن الباهلي فالتقوا بأصحاب عثمان واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم أصحاب عثمان وسيطر مسلم على بلخ.

وهذا ما دفع بأبي داود إلى العودة من مرو إلى بلخ وقتل عثمان بن الكرماني فيما قتل أبو مسلم شقيقه علي، كما قتل معاونيه الذين كان قد سمّاهم له.

وبعد مقتل ابني الكرماني وهرب نصر بن سيار سيطر أبو مسلم على خراسان وبعث عماله على البلاد، فاستعمل سباع بن

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٣، ص٢٩٤.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٦-٤٧.

النعمان الأزدي على سمرقند، وأبا داود خالد بن إبراهيم على طخارستان، ومحمد بن الأشعث على الطبسين، وجعل مالك بن الهيثم على الشرطة.

وكان الإمام إبراهيم قد بعث بقحطبة بن شبيب ومعه لواؤه الذي عقده له، فوجهه أبو مسلم في مقدمته إلى نيسابور وكتب إلى الجنود بالسمع والطاعة له.[١]

٥ – معارك قحطبة بن شبيب

وجّه أبو مسلم قحطبة بن شبيب إلى طوس ومعه عدد من القادة فلقي من بطوس وجرى قتال شديد بينهم انتصر فيه قحطبة وقتل من أعدائه بضعة عشر ألفاً.

كتب ابن الأثير أن الذين قتلوا «كان من مات منهم في الزحام أكثر ممن قتل».[٢]

أما ابن كثير فقد فصّل المعارك التي خاضها قحطبة، فكتب:[٣]

«في المحرم من السنة الحادية والثلاثين بعد المائة، وجه قحطبة بن شبيب ابنه الحسن إلى قومس لقتال نصر بن سيار، وأردفه بالأمداد. فخامر بعضهم إلى نصر وارتحل نصر فنزل الري، فأقام بها يومين ثم مرض فسار منها إلى همدان. فلما كان بساوة قريباً من همدان توفي لمضي اثنتي عشرة ليلة خَلَت من ربيع الأول من هذه السنة، عن خمس وثمانين سنة. فلما مات نصر تمكن أبو مسلم الخراساني وأصحابه من بلاد خراسان، وقويت شوكتهم جداً. وسار قحطبة من جرجان، وقدم أمامه زياد بن زرارة القشيري، وكان قد ندم على اتباع أبي مسلم، فترك الجيش وأخذ معه جماعة وسلك طريق أصبهان ليأتي ابن ضبارة. فبعث قحطبة وراءه جيشاً فقتلوا عامة أصحابه. وأقبل قحطبة وراءه فقدم قومس وقد افتتحها ابنه الحسن فأقام بها. وبعث ابنه بين يديه إلى الري ثم ساق وراءه فوجده قد افتتحها فأقام بها وكتب إلى أبي

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٢٤ – ٣٢٥.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٤٨.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٣٩-٤٠.

مسلم بذلك. وارتحل أبو مسلم من مرو فنزل نيسابور واستفحل أمره. وبعث قحطبة بعد دخوله الري ابنه الحسن بين يديه إلى همدان، فلما اقترب منها خرج منها مالك بن أدهم وجماعة من أجناد الشام وخراسان، فنزلوا نهاوند. فافتتح الحسن همدان ثم سار وراءهم إلى نهاوند، وبعث إليه أبوه بالأمداد فحاصرهم بها حتى افتتحها.

وفي هذه السنة مات عامر بن ضبارة، وكان سبب ذلك أن ابن هبيرة كتب إليه أن يسير إلى قحطبة وأمدّه بالعساكر، فسار ابن ضبارة حتى التقى مع قحطبة، وابن ضبارة في مائة وخمسين ألف وكان يقال له عسكر العساكر وقحطبة في عشرين ألفاً. فلما تواجه الفريقان رفع قحطبة وأصحابه المصاحف ونادى المنادي: يا أهل الشام، إنا ندعوكم إلى ما في هذا المصحف، فشتموا المنادي وشتموا قحطبة. فأمر قحطبة أصحابه أن يحملوا عليهم، فلم يكن بينهم كبير قتال حتى انهزم أصحاب ابن ضبارة واتبعهم أصحاب قحطبة فقتلوا منهم خلقاً كثيراً. وقتلوا ابن ضبارة في العسكر لشجاعته فإنه لم يول وأخذوا من عسكرهم ما لا يُحدّ ولا يوصف.

وفيها حاصر قحطبة نهاوند حصاراً شديداً حتى سأله أهل الشام الذين بها أن يمهل أهلها حتى يفتحوا له الباب. ففتحوا له الباب وأخذوا لهم منه أماناً، فقال لهم من بها من أهل خراسان: ما فعلتم؟ فقالوا: أخذنا لنا ولكم أماناً، فخرجوا ظانين أنهم في أمان، فقال قحطبة للأمراء الذين معهم: كل من حصل عنده أسير من الخراسانيين فليضرب عنقه وليأتنا برأسه، ففعلوا ذلك ولم يبق ممن كان هرب من أبي مسلم أحد. وأطلق الشاميين وأوفى لهم عهدهم وأخذ عليهم الميثاق أن لا يمالئوا عليه عدواً. ثم بعث قحطبة أبا عون إلى شهرزور، عن أمر أبي مسلم في ثلاثين ألفاً فافتتحها، وقتل نائبها عثمان بن سفيان. وقيل لم يقتل بل تحول إلى الموصل والجزيرة وبعث إلى قحطبة بذلك، ولما بلغ مروان خبر قحطبة وأبي مسلم وما وقع من أمرهما، تحول مروان من حرّان فنزل بمكان يقال له الزاب الأكبر.

وفيها قصد قحطبة في جيش كثيف نائب العراق يزيد بن عمر بن هبيرة. فلما اقترب

منه تقهقر ابن هبيرة إلى وراء، وما زال يتقهقر إلى أن جاوز الفرات. وجاء قحطبة فجازها وراءه، وكان من أمرهما ما سنذكره في السنة الآتية إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين ومائة.

في المحرم منها جاز قحطبة بن شبيب الفرات ومعه الجنود والفرسان، وابن هبيرة مخيم على فم الفرات مما يلي الفلوجة، في خلق كثير وجم غفير، وقد أمده مروان بجنود كثيرة، وانضاف إليه كل من انهزم من جيش ابن ضبارة. ثم إن قحطبة عدل إلى الكوفة ليأخذها، فاتبعه ابن هبيرة. فلما كانت ليلة الأربعاء لثمان مضين من المحرم اقتتلوا قتالاً شديداً وكثر القتل في الفريقين. ثم ولّى أهل الشام منهزمين واتبعهم أهل خراسان. وفقد قحطبة من الناس فأخبرهم رجل أنه قتل وأوصى أن يكون أمير الناس من بعده ولده الحسن. ولم يكن الحسن حاضراً، فبايعوا حميد بن قحطبة لأخيه الحسن وذهب البريد إلى الحسن ليحضر. وقتل في هذه الليلة جماعة من الأمراء. والذي قتل قحطبة معن بن زائدة، ويحيى بن حصين. وقيل بل قتله رجل ممن كان معه آخذاً بثأر ابني نصر بن سيار، فالله أعلم. ووجد قحطبة في القتلى فدفن هنالك. وجاء الحسن بن قحطبة فسار نحو الكوفة، وقد خرج بها محمد بن خالد بن عبد الله القسري ودعا إلى بني العباس وسوّد، وكان خروجه ليلة عاشوراء المحرم من هذه السنة، وأخرج عاملها من جهة ابن هبيرة، وهو زياد بن صالح بن الحارث الحارثي. وتحول محمد بن خالد إلى قصر الإمارة فقصده حوثرة في عشرين ألفاً من جهة ابن هبيرة. فلما اقترب من الكوفة أصحاب حوثرة يذهبون إلى محمد بن خالد فيبايعونه لبني العباس. فلما رأى حوثرة ذلك ارتحل إلى واسط، ويقال بل دخل الحسن بن قحطبة الكوفة، وكان قحطبة قد جعل في وصيته أن تكون وزارة الخلافة إلى أبي سلمة حفص بن سليمان مولى السبيع الكوفي الخلال، وهو بالكوفة. فلما قدموا عليه أشار أن يذهب الحسن بن قحطبة في جماعة من الأمراء إلى قتال ابن هبيرة بواسط، وأن يذهب أخوه حميد بن قحطبة إلى المدائن، وبعث البعوث إلى كل جانب من تلك النواحي يفتتحونها. وفتحوا البصرة، افتتحها مسلم بن

قتيبة لابن هبيرة. فلما قتل ابن هبيرة جاء أبو مالك عبد الله بن أسيد الخزاعي فأخذ البصرة لأبي مسلم الخراساني».

٦ - مقتل الإمام إبراهيم وخلافة أبي العباس السفاح

كان الخليفة مروان بن محمد قد أمر باعتراض رسول كان قد أرسله أبو مسلم من خراسان إلى إبراهيم بن محمد الإمام يخبره فيه خبره، وما آل إليه أمره. ولما وصل الكتاب إلى الخليفة قام هذا الأخير برشوة الرسول بعشرة آلاف درهم كي يكمل مهمته على أن يسلمه جواب الإمام إبراهيم.

أكمل المسعودي الرواية عن سجن الإمام إبراهيم ومقتله، فكتب:(١)

«ففعل الرسول ذلك. فتأمل جواب إبراهيم إلى أبي مسلم بخطه يأمره فيه بالجد والاجتهاد والحيلة على عدوه وغير ذلك من أمره ونهيه.

فاحتبس مروان الرسول، وكتب إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك. وهو على دمشق يأمره أن يكتب إلى عامل البلقاء فيسير إلى القرية المعروفة بالكرار والحميمة ليأخذ إبراهيم بن محمد فيشده وثاقاً، ويبعث به إليه في خيل كثيفة.

فوجّه الوليد إلى عامل البلقاء فأخذ إبراهيم وهو جالس في مسجد القرية فأخذ وهو ملفّف، وحمل إلى الوليد، فحمله إلى مروان فحبسه في السجن شهرين.

وقد كان جرى بين إبراهيم ومروان خطب طويل حين مثل بين يديه، وأغلظ له إبراهيم، وأنكر كل ما ذكره له مروان من أمر أبي مسلم. فقال له مروان: يا منافق، أليس هذا كتابك إلى أبي مسلم جواباً عن كتابه إليك، وأخرج إليه الرسول، وقال: أتعرف هذا؟

فلما رأى ذلك إبراهيم أمسك، وعلم أنه أتى في مأمنه».

وقتل الإمام إبراهيم في سجنه فتسلم قيادة الحركة أخوه أبو العباس الملقب بالسفاح.

---

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٣، ص٢٩٥-٢٩٦.

جرت هذه الأحداث في السنة الثانية والثلاثين بعد المائة.

ولـما بلغ أهل الكوفة مقتل الإمام إبراهيم، أراد أبو سلمة الخلال أن يحوّل الخلافة إلى آل علي بن أبي طالب، فغلبه بقية النقباء والأمراء، وأحضروا أبا العباس وسلموا عليه بالخلافة في الكوفة.(١)

نقل ابن الأثير تفاصيل بيعة أبي العباس فكتب:(٢)

«وأتى القوم أبا العباس فقال: وأيكم عبد الله بن محمد بن الحارثية؟ فقالوا: هذا، فسلموا عليه بالخلافة وعزوه في إبراهيم...

وأصبح الناس يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خَلَت من شهر ربيع الأول فلبسوا السلاح واصطفوا لخروج أبي العباس وأتوا بالدواب فركب برذوناً أبلق وركب من معه من أهل بيته فدخلوا دار الإمارة. ثم خرج إلى المسجد وصلّى بالناس ثم صعد المنبر حين بويع له بالخلافة فقام في أعلاه وصعد عمه داود بن علي. فقام دونه فتكلم أبو العباس فقال: الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه وكرمه وشرفه وعظمه واختاره لنا فأيّده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام به والذابين عنه والناصرين له فألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها. وخصنا برحم رسول الله صلّى الله عليه وسلم وقرابته، وأنشأنا من آبائِنا وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته. جعله من أنفسنا عزيزاً عليه ما عنتنا حريصاً علينا بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً. ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم. فقال تبارك وتعالى فيما أنزل من محكم كتابه: ﴿إنما يريد الله ليُذهِبَ عنكمُ الرِّجَس أهلَ البيتِ ويُطهّركُم تطهيراً﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿قُل لا أسألكُم عليه أجراً إلاّ المودَّةَ في

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٤٢.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٦٥-٦٦.
(٣) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

القُربى﴾[١] وقال: ﴿وأَنْذِرْ عشيرَتَك الأقربين﴾[٢] وقال: ﴿وما أفاءَ الله على رسولِه من أهلِ القُرى فللّهِ وللرَّسُول ولذِي القُربى واليتامى﴾[٣] وقال: ﴿واعلَموا أَنما غَنِمتُم من شيءٍ فإنّ للّه خُمسَهُ وللرَّسول ولذي القُربى واليَتَامى﴾».[٤]

٧ - الدروس والعبر والنتائج

أ - منذ انطلاق الدعوة العباسية، وفي أول مواجهة بين أنصار أبي مسلم الخراساني وجيش والي خراسان نصر بن سيار سجل انتصار للثوار، الأمر الذي أعطى حركة الثورة العباسية دفعاً قوياً ورفع من معنويات أنصارها.

ب - من جهة أخرى شجّع أبو مسلم عدوَّين له على الصراع فيما بينهما، هما نصر بن سيار والكرماني اللذين عمل على التفريق بينهما واعداً الكرماني بمساعدته ضد الوالي الأموي. وهكذا بقيت قواته جاهزة للتدخّل عند الحاجة، محققاً بذلك حرية عمله والحصيل الأقصى لوسائله.

وبعد هزيمة الكرماني عززه أبو مسلم بمفرزة من جنده بهدف متابعة القتال ضمن استراتيجية «فرِّق تسد». لقد ترك أبو مسلم عدويه يقتتلان حتى أنهك جندهما القتال، فدخل مرو منتصراً وسيطر عليها ففرّ منها الوالي الأموي.

ج - نبّه والي خراسان نصر بن سيار الخليفة الأموي إلى خطر الثورة الداهم في خراسان متسائلاً:

«أأيقاظٌ أمية أمن نيام؟»

وكان السؤال في مكانه إذ إن القيادة الأموية أهملت وضع خراسان وأساءت تقدير حجم الثورة المعلنة انطلاقاً منها وأبعادها.

ونحن نرى أن القادة الذين استهانوا بأعدائهم عبر التاريخ العسكري وأساؤوا

---

(١) سورة الشورى: الآية ٢٣.
(٢) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.
(٣) سورة الحشر: الآية ٧.
(٤) سورة الأنفال: الآية ٤١.

تقدير قوتهم ومدى خطورة تحركاتهم، خسروا معاركهم ضدهم. وهذا ما حصل مع الدولة الأموية رغم ما كان يتمتع به الخليفة مروان بن محمد من جدارة عسكرية استراتيجية ومن تصميم وعزم على استعادة المبادرة العسكرية لمصلحة الدولة الأموية.

د - إدارياً، أحسن أبو مسلم تنظيم حركته وتوزيع المهام على دعاته وتعيين عماله وقادة وحداته والمسؤولين عن الحرس وديوان الجند والرسائل، وغيرها. فحسن التنظيم ووضوح الرؤيا والأوامر وقوة الشخصية هي صفات تؤهّل القائد العسكري لقيادة الوحدات الكبرى والنجاح في المهمات التي يُكلّف بتنفيذها.

هـ - انتصرت جيوش أبي مسلم الخراساني بقيادة القائد قحطبة بن شبيب في غالبية المعارك التي خاضتها ضد الجيوش الأموية، رغم أن مبدأ الحرب الأول أي نسبية الأهداف للوسائل كان يميل إلى جانب أخصامها، وذلك لأسباب أبرزها:

* حسن تنظيم أبي مسلم لحركته وجيوشه.

* وضوح الأوامر المعطاة للوحدات المقاتلة.

* ارتفاع معنويات الجنود وشدّة حوافزهم بعد الانتصارات المتتالية لهم وثقتهم بقيادتهم المتمثلة بأبي مسلم داعي الدعاة.

* تضعضع مفارز الجيوش الأموية في خراسان وما وراء النهر بعد تعرضها لسلسلة من الهزائم، ودأبها على التراجع أمام زحف الوحدات المؤيّدة للثورة.

* تدني معنويات قادة الوحدات الموالية للأمويين أمام المدّ العباسي الجارف.

* السرعة في إملاء الفراغ في القيادات العسكرية عند مقتل أحد قادة الجيوش، الأمر الذي جنّبها الهزيمة كما كان يحصل عادة في حالات مماثلة.

لقد سبق وأوردنا أمثلة عن جيوش هزمت أثناء مقتل قائدها في المعركة التي تخوضها. هذا الأمر لم يحصل داخل الجيوش التي كانت تأتمر بأوامر أبي مسلم. فعندما قتل القائد الكبير قحطبة، اجتمع أمراء جيشه وبايعوا ابنه الحسن فور تبلغهم خبر وفاته.

و- أحسن الخليفة الأموي الأخير مروان بن محمد برصد تحركات الرسل بين الإمام إبراهيم وأبي مسلم، الأمر الذي مكّنه من اعتراض أحد هؤلاء الذي، وبعد رشوته، سلّم الخليفة الكتاب المرسل من الإمام إلى أبي مسلم، الأمر الذي سمح للخليفة بالقبض على الإمام إبراهيم وسجنه وقتله.

فأعمال التجسس تساعد القيادة العسكرية في جمع المعلومات عن عدوّها بشكل تسهل معه محاربته، تمشياً مع المثل العسكري الفرنسي القائل: «عدو معروف، هو عدو نصف مغلوب».

"Un ennemi connu, à moitié vaincu".



الفصل السابع
انتقال الخلافة إلى العباسيين

بعد مبايعة أبي العباس السفاح، ابتدأ العد العكسي لسقوط الخلافة الأموية لا سيما بعد سقوط خراسان والعراق وما وراء النهر في يد العباسيين الذين سيطروا على تلك المناطق. وهكذا وجد الخليفة الأموي الأخير مروان بن محمد نفسه ملزماً بالتصدي للحركة العباسية كونها راحت تفتح المنطقة تلو الأخرى.

وتحول الخلافة من بني أمية إلى بني العباس مأخوذ من قوله تعالى: ﴿والله يُؤتِي مُلكَهُ مَن يَشاء﴾،[١] ومن قوله تعالى: ﴿قل اللّهم مَلِكَ المُلك تُؤتي المُلكَ من تشاءُ وتنزعُ المُلك مِمَّن تشاء﴾.[٢]

وكان الخليفة مروان بن محمد قد أمضى أعوام خلافته في معارك ووقائع طويلة بعد أن كادت الخلافة تنهار أمام الطامعين فيها. وقد كان مروان قائداً فذّاً ربح غالبية المعارك التي خاضها ضد الثائرين على خلافته. إلاّ أنه، عندما تسلم الخلافة، لم يعد من الممكن إعادة الزمن إلى الوراء، وتخليص الخلافة مما كان قد قدّر لها من الزوال. وقيل إنه، لو تسلّم الخلافة قبل عشرين سنة، لكان من الممكن أن يجنبها المصير المحتوم.

١ - معركة الزاب الأعلى

كان قحطبة قد وجّه أبا عون عبد الملك بن يزيد الأزدي من نهاوند إلى شهرزور حيث قتل عثمان بن سفيان وأقام

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٧.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٢٦.

بناحية الموصل. وبلغ الخليفة مروان أن عثمان قد قتل، فسار من حران إلى رأس العين، ثم إلى الموصل ونزل على دجلة وحفر خندقاً، وكان في مائة وعشرين ألف مقاتل.

وسار أبو عون إلى الزاب، فوجه إليه أبو سلمة عيينة بن موسى والمنهال بن قتان وإسحاق بن طلحة، كل واحد في ثلاثة آلاف. وأرسل أبو العباس إلى أبي عون سلمة بن محمد في ألفين، وعبد الله الطائي في ألفين، ووداس بن نضلة في خمسمائة.

فلما أصبحوا عبر مروان الجسر، وأمر ابنه عبد الله بأن يحفر خندقاً في أسفل معسكر عبد الله بن علي. فبعث عبد الله أحد قادته، المخارق بن غفار، في أربعة آلاف، فعسكروا على خمسة أميال من جيش عبد الله بن مروان. فوجّه إليهم حملة بقيادة الوليد بن معاوية، فهزمتهم وأخذت منهم عدداً من الأسرى.

زحف عند ذلك عبد الله بن علي بقوة من جيشه، وعلى ميسرته أبو عون. وتقدم مروان ومعه ثلاثة آلاف، لينجد الوليد بن معاوية. وكانت الشمس قد آذنت المغيب، فطلب مروان الموادعة، فأباها عليه عبد الله بن علي.

كتب ابن كثير عن معركة الزاب ما يأتي:[1]

«إنّ مروان لما بلغه خبر أبي مسلم وأتباعه وما جرى بأرض خراسان، تحوّل من حران فنزل على نهر قريب من الموصل، يقال له الزاب من أرض الجزيرة. ثم لما بلغه أن السفاح قد بويع له بالكوفة والتفّت عليه الجنود، واجتمع له امره، شق عليه جداً. وجمع جنوده فتقدم إليه أبو عون بن أبي يزيد في جيش كثيف وهو أحد أمراء السفاح، فنازله على الزاب وجاءته الأمداد من جهة السفاح. ثم ندب السفاح الناس ممن يلي القتال من أهل بيته، فانتدب له عبد الله بن علي فقال سر على بركة الله، فسار في جنود كثيرة فقدم على أبي عون فتحول له أبو عون عن سرداقه وخلاه له وما فيه. وجعل عبد الله بن علي على شرطته

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٤٥-٤٦.

حياش بن حبيب الطائي، ونصير بن المحتفز. ووجه أبو العباس موسى بن كعب في ثلاثين رجلاً على البريد إلى عبد الله بن علي يحثه على مناجزة مروان، والمبادرة إلى قتاله ونزاله قبل أن تحدث أمور، وتبرد نيران الحرب. فتقدم عبد الله بن علي بمن معه حتى واجه جيش مروان، ونهض مروان في جنوده وتصاف الفريقان في أول النهار، ويقال إنه كان مع مروان يومئذ مائة ألف وخمسون ألفاً، ويقال مائة وعشرون ألفاً، وكان عبد الله بن علي في عشرين ألفاً. فقال مروان لعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز: إن زالت الشمس يومئذ ولم يقاتلونا كنا نحن الذين ندفعها إلى عيسى بن مريم عليه السلام، وإن قاتلونا قبل الزوال فإنا لله وإنا إليه راجعون. ثم أرسل مروان إلى عبد الله بن علي يسأله الموادعة، فقال عبد الله: كذب ابن زريق، لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء الله تعالى، وكان ذلك يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خَلَتْ من جمادى الآخرة من هذه السنة. فقال مروان لأهل الشام: قفوا لا تبدؤوهم بقتال. وجعل ينظر إلى الشمس، فخالفه الوليد بن معاوية بن مروان - وهو ختن مروان على ابنته - فحمل. فغضب مروان فشتمه فقاتل أهل الميمنة فانحاز أبو عون إلى عبد الله بن علي، فقاتل موسى بن كعب لعبد الله بن علي، فأمر الناس فنزلوا ونودي الأرض الأرض، فنزل الناس وأشرعوا الرماح وجثوا على الركب وقاتلوهم. وجعل أهل الشام يتأخرون كأنما يُدفعون، وجعل عبد الله يمشي قُدُماً، وجعل يقول: يا رب حتى متى نقتل فيك، ونادى: يا أهل خراسان، بإشارات إبراهيم الإمام، يا محمد يا منصور. واشتد القتال جداً بين الناس، فلا تسمع إلاّ وقعاً كالمزراب على النحاس. فأرسل مروان إلى قضاعة يأمرهم بالنزول فقالوا: قل لبني سليم فلينزلوا. وأرسل إلى السكاسك أن احملوا فقالوا: قل لبني عامر أن يحملوا. فأرسل إلى السكون أن احملوا فقالوا: قل إلى غطفان فليحملوا. فقال لصاحب شرطته: انزل فقال له: والله لا أجعل نفسي غرضاً. قال: أما والله لأسوءنك. قال: وددت والله لو قدرت على ذلك.

ويقال: إنه قال ذلك لابن هبيرة. قالوا: ثم انهزم أهل الشام واتبعتهم أهل خراسان

في أدبارهم يقتلوه ويأسرون. وكان من غرق من أهل الشام أكثر ممن قتل وكان في جملة من غرق إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك المخلوع. وقد أمر عبد الله بن علي بعقد الجسر، واستخراج من هلك من الغرق».

أما ابن الأثير، فكتب عن نهاية معركة الزاب الأعلى ما يلي:[1]

«وكان مروان ذلك اليوم لا يدبر شيئاً إلاّ كان فيه الخلل، فأمر بالأموال فأخرجت وقال للناس: اصبروا وقاتلوا فهذه الأموال لكم فجعل ناس من الناس يصيبون من ذلك. فقيل له: إن الناس قد مالوا على هذا المال ولا نأمنهم أن يذهبوا به. فأرسل إلى ابنه عبد الله أن سِرْ في أصحابك إلى قوم عسكرك فاقتل من أخذ من المال فامنعهم. فمال عبد الله برايته وأصحابه فقال الناس: الهزيمة الهزيمة فانهزم مروان وانهزموا وقطع الجسر وكان من غرق يومئذ أكثر ممن قتل.

فكان ممن غرق يومئذ إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن المخلوع فاستخرجوه في الغرقى. وقيل: بل قتله عبد الله بن علي بالشام. وقتل في هذه الوقعة سعيد بن هشام بن عبد الملك. وأقام عبد الله بن علي في عسكره سبعة أيام.

وكتب يومئذٍ عبد الله بن علي إلى السفاح بالفتح وحوى عسكر مروان بما فيه فوجد سلاحاً كثيراً وأموالاً ولم يجد فيه امرأة إلاّ جارية كانت لعبد الله بن مروان. فلما أتى الكتاب السفاح صلّى ركعتين وأمر لمن شهد الوقعة بخمسمائة دينار ورفع أرزاقهم إلى ثمانين. وكانت هزيمة مروان بالزاب يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خَلَت من جُمادى الآخرة. وكان فيمن قتل معه يحيى بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، وهو أخو عبد الرحمن صاحب الأندلس. فلما تقدم إلى القتال رأى عبدالله بن علي فتى عليه أبهة الشرف يقاتل مستقتلاً، فناداه: يا فتى لك الأمان

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٧١-٧٢.

ولو كنت مروان بن محمد. فقال: إن لم أكنه، فلست بدونه. قال: فلك الأمان ولو كنت من كنت. فأطرق ثم قال:

أَذلّ الحَياةِ وكُرهُ المَماتِ
وكلاً أراهُ طعاماً وبيلا
فإن لمْ يَكُن غير إحداهما
فَسيرٌ إلى الموتِ سيراً جميلا.

ثم قاتل حتى قتل فإذا هو مسلمة بن عبد الملك.

هكذا قتل القائد الكبير مسلمة بن عبد الملك في قتال داخلي بين المسلمين، وهو الذي قاد المعارك الكبرى ضد أعداء الإسلام.

٢ – مقتل الخليفة مروان بن محمد

بعد هزيمته في موقعة الزاب الأعلى، فرّ الخليفة مروان من مكان المعركة إلى مدينة الموصل، ومنها إلى حران حيث أقام نيفاً وعشرين يوماً. ثم مضى الخليفة إلى حمص حيث لقيه أهلها بالطاعة فأقام فيها بضعة أيام. ثم تركها منهزماً فلحقه أهل حمص وقاتلوه فانهزموا وقتل عدد كبير منهم.[١]

وأتى مروان دمشق ومنها إلى فلسطين حيث نزل على نهر أبي فطرس فأجاره عبد الله بن يزيد بن روح بن زنباع الجذامي.

وكان أبو العباس السفاح قد أمر عبد الله بن علي بملاحقة مروان، فسار حتى أتى الموصل ومنها إلى حران حيث هدم الدار التي سجن فيها الإمام إبراهيم وأقرّ إبان بن يزيد عليها. ثم انتقل إلى منبج فبعث إليه أهل قنسرين ببيعتهم، وأرسل إليه السفاح مدداً في أربعة آلاف، انتقل بعدها إلى حمص حيث بايعه أهلها فبقي فيها أياماً.

انتقل عبد الله بن علي بعدها إلى بعلبك، ومنها على دمشق حيث نزل في قرية من قرى الغوطة فعزّزه أخوه صالح بثمانية آلاف مقاتل[٢].

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٧٤.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٥٤.

أ - فتح دمشق والتنكيل بجثث الخلفاء:

نقل ابن كثير رواية محاصرة دمشق من قِبَل عبد الله بن علي وفتحها وهدم سورها وإباحتها لجنده ثلاث ساعات، فكتب:[1]

«ثم سار عبد الله حتى أتى حمص، ثم سار منها إلى بعلبك، ثم منها حتى أتى دمشق من ناحية المزة فنزل بها يومين أو ثلاثة. ثم وصل إليه أخوه صالح بن علي في ثمانية آلاف مدداً من السفاح، فنزل صالح بمرج عذراء. ولما جاء عبد الله بن علي دمشق نزل على الباب الشرقي، ونزل صالح أخوه على باب الجابية، ونزل أبو عون على باب كيسان، ونزل بسام على الباب الصغير، وحميد بن قحطبة على باب توما، وعبد الصمد ويحيى بن صفوان والعباس بن يزيد على باب الفراديس. فحاصرها أياماً ثم افتتحها يوم الأربعاء لعشر خَلَوْن من رمضان هذه السنة[2]، فقتل من أهلها خلقاً كثيراً وأباحها ثلاث ساعات، وهدم سورها. ويقال إن أهل دمشق، لما حاصرهم عبد الله، اختلفوا فيما بينهم، ما بين عباسي وأموي، فاقتتلوا فقتل بعضهم بعضاً، وقتلوا نائبهم ثم سلّموا البلد. وكان أول من صعد السور من ناحية الباب الشرقي رجل يقال له عبد الله الطائي، ومن ناحية الباب الصغير بسام بن إبراهيم. ثم أبيحت دمشق ثلاث ساعات حتى قيل إنه قتل بها في هذه المدة نحواً من خمسين ألفاً.

وذكر ابن عساكر في ترجمة عبيد بن الحسن الأعرج من ولد جعفر بن أبي طالب، وكان أميراً على خمسة آلاف مع عبد الله بن علي في حصار دمشق، أنهم أقاموا محاصريها خمسة أشهر، وقيل مائة يوم، وقيل شهراً ونصفاً. وأن البلد كان قد حصّنه نائب مروان تحصيناً عظيماً، ولكن اختلف أهلها فيما بينهم بسبب اليمانية والمضرية. وكان ذلك سبب الفتح، حتى أنهم جعلوا في كل مسجد محرابين للقبلتين حتى في

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٤٦-٤٧.
(٢) سنة ١٣٢ هـ.

المسجد الجامع منبرين، وإمامين يخطبان يوم الجمعة على المنبرين، وهذا من عجيب ما وقع، وغريب ما اتفق، وفظيع ما أحدث بسبب الفتنة والهوى والعصبية، نسأل الله السلامة والعافية. وقد بسط ذلك ابن عساكر في هذه الترجمة المذكورة، وذكر في ترجمة محمد بن سليمان بن عبد الله النوفلي قال: كنت مع عبد الله بن علي أول ما دخل دمشق، دخلها بالسيف، وأباح القتل فيها ثلاث ساعات، وجعل جامعها سبعين يوماً إسطبلاً لدوابه وجماله. ثم نبش قبور بني أمية فلم يجد في قبر معاوية إلاّ خيطاً أسود مثل الهباء. ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجد جمجمة، وكان يجد في القبر العضو بعد العضو، إلاّ هشام بن عبد الملك فإنه وجده صحيحاً لم يبل منه غير أرنبة أنفه. فضربه بالسياط وهو ميت وصلبه أياماً ثم أحرقه بالنار ودق رماده ثم ذره في الريح. وذلك أن هشاماً كان قد ضرب أخاه محمد بن علي، حين كان قد اتهم بقتل ولد له صغير، سبعمائة سوط، ثم نفاه إلى الحميمة بالبلقاء».

ب - متابعة ملاحقة الخليفة مروان بن محمد ومقتله:

بعد دمشق، سار عبد الله بن علي إلى فلسطين حيث جاءه كتاب أبي العباس السفاح يأمره فيه بإرسال صالح بن علي في طلب مروان، فسار صالح في ذي القعدة السنة اثنتين وثلاثين بعد المائة حتى بلغ العريش في مصر.

عندما شعر مروان بملاحقيه، أحرق ما كان حوله من علف وطعام، فسار صالح فنزل النيل. ثم سار منه إلى الصعيد حيث بلغه أن فرساناً لمروان يحرقون الأعلاف، فقدّم أبا عون عامر بن إسماعيل الحدثي وشعبة بن كثير المازني في فرسان أهل الموصل فاصطدموا بفرسان لمروان حيث جرى قتال سريع هزم فيه فرسان مروان وأسروا بعضهم وقتلوا بعضاً آخر منهم.

ثم سار صالح في ملاحقة مروان فوجده في كنيسة في بوصير، فوافاه ليلاً وحمل على أصحابه الذين انهزموا. وحمل رجل على مروان فطعنه، وهو لا يعرفه، فقتله.

وصاح صائح «صرع أمير المؤمنين». واحتز أحدهم رأسه وأُرسل إلى أبي العباس السفاح الذي سجد لما رأى الرأس، وقال:[١]

«الحمد لله الذي أظهرني عليك وأظفرني بك، ولم يبقِ ثأري قبلك وقبل رهطك أعداء الدين».

هكذا قتل آخر خليفة أموي مروان بن محمد، الملقب بـ «الحمار» لصبره على المكاره، فانتقلت الخلافة بموته إلى العباسيين.

٣ – مأدبة أبي فطرس

نزل عبد الله بن علي بعد فتح دمشق على نهر أبي فطرس[٢] حيث دعا أمراء بني أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم إلى الطعام بعد أن أمّنهم.

وبعد أن حضروا قتلهم جميعهم ثم مدّ على جثثهم الأسمطة فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم. وقيل إن عددهم كان نحواً من تسعين رجلاً وفق ابن الأثير،[٣] وقيل اثنين وتسعين، وفق ابن كثير.[٤]

أما الطبري، فنقل أن الذين قتلوا على نهر أبي فطرس كانوا اثنين وسبعين رجلاً.[٥] ونقل المسعودي إن الذين قتلوا بلغ عددهم «بضعاً وثمانين رجلاً».[٦]

وتتبّع عبد الله بن علي بني أمية فأخذهم ولم يفلت منهم سوى القليل، وأبرزهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي تمكن من الفرار إلى مصر فالمغرب فالأندلس حيث أقام الإمارة الأموية

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٥٥-٣٥٦.
ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٧٦.
(٢) نهر بالرملة.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٧٧.
(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٤٧.
(٥) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٥٦.
(٦) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٣، ص٢٩٨.

فيها، ولقب بـ «صقر قريش» وبـ«الداخل».[١]

وكان فيمن قتل من الأمويين في أبي فطرس محمد بن عبد الملك بن مروان والغمر بن يزيد بن عبد الملك، وعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وسعيد بن عبد الملك، وأبو عبيدة بن الوليد بن عبد الملك[٢]. ولاحق سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس جماعة أخرى من بني أمية، فأمر بهم فجرّوا بأرجلهم وأُلقوا على الطريق للكلاب. وخلص منهم عمرو بن معاوية بن عمرو بن سفيان بن عتبة بن أبي سفيان الذي نقل عنه ابن الأثير رواية نوردها كما هي:[٣]

«وكان ممن اختفى منهم عمرو بن معاوية بن عمرو بن سفيان بن عتبة بن أبي سفيان قال: وكنت لا آتي مكاناً إلاّ عرفت فيه فضاقت عليّ الأرض فقدمت على سليمان بن علي، - وهو لا يعرفني - فقلت: لفظتني البلاد إليك ودلّني فضلك عليك، فإما قتلتني فاسترحت وإما رددتني سالماً فأمنت. فقال: ومن أنت؟ فعرفته نفسي فقال: مرحباً بك ما حاجتك؟ فقلت: إن الحرم اللواتي أنت أولى الناس بهنّ وأقربهم إليهنّ قد خِفْنَ لخوفنا ومن خاف خيف عليه. قال: فبكى كثيراً، ثم قال: يحقن الله دمك ويوفر مالك ويحفظ حرمك. ثم كتب إلى السفاح: «يا أمير المؤمنين إنه قد وفد وافد من بني أمية علينا وإنّا إنما قتلناهم على عقوقهم لا على أرحامهم، فإننا يجمعنا وإياهم عبد مناف والرحم تبل ولا تقتل وترفع ولا توضع. فإن رأى أمير المؤمنين أن يهبهم لي فليفعل، وإن فعل فيجعل كتاباً عاماً إلى البلدان. نشكر الله تعالى على نِعَمِه عندنا وإحسانه إلينا». فأجابه إلى ما سأل فكان هذا أول أمان بني أمية».

---

(١) انظر رواية فرار عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس في الجزء السابع من هذه الموسوعة.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٧٨.

(٣) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص٧٨-٧٩.

٤ – خلاصة

كما سبق القول اعتبرت معركة الزاب من المعارك الكبرى التي غيرت مجرى تاريخ الشرق الأدنى والعالم الإسلامي، إذ أنها نقلت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين، ومن السيطرة العربية الكاملة على العالم الإسلامي، إلى سيطرة العنصر الغريب عن العرب، بدءاً بالفرس ووصولاً إلى الترك.

وتأتي أهمية المعركة أنها أنهت الصراع الطويل في الإسلام الذي بدأ قبل ظهور الدين الحنيف بين حزبين هما الحزب الهاشمي والحزب السفياني.

وتعود أسباب هزيمة الخليفة مروان بن محمد في هذه المعركة إلى أسباب عديدة، منها:

- ضعف الدولة الأموية الذي أدى إلى انهيارها.
- إعطاء ولاية العهد لأكثر من أمير مع ما ترتّب على ذلك من إثارة البغضاء وانقسام الآراء بين أفراد الأسرة الحاكمة.
- عودة بروز روح العصبية القبلية وتدخل الخلفاء أنفسهم في الصراعات بين القبائل لاسيما في الصراع بين اليمنية والقيسية.
- تعصب الأمويين للعنصر العربي واضطهاد الموالي سياسياً واجتماعياً ومالياً. وهذا ما عمل على بث روح التفرقة داخل جسم الدولة الإسلامية التي قامت أصلاً على المساواة بين جميع الطبقات وعلى العدل والتفاهم.

فالموالي الذين ساءهم ذلك خرجوا مع كل خارج على الحكم الأموي إلى أن انضووا تحت لواء الثورة العباسية التي تمكنت من إنهاء هذا الحكم.

- ظهور الأحزاب الدينية والسياسية التي قاومت الأمويين ونفذت ثورات عديدة ضدهم لا سيما الشيعة والخوارج.
- اعتماد بعض الخلفاء حياة اللهو والمجون والخلاعة وعدم احترام مظاهر الدين في وقت كان الشعب يضع الدين في أولويات احتراماته.

وهذا ما جعل الناس يتذمرون من تصرفات الحكام وينتقدونهم ويتقبّلون بالتالي كل تحرك أو ثورة ضدهم.

– عدم استقرار النظام المالي في الدولة الأموية.

– استئثار فئة قليلة بخيرات الحكم وغنائم الفتوح.

– حماس الجند العباسي الذي كان يحارب تحت شعار: يا لثارات إبراهيم الإمام، فيما أن الجند الأموي الذي كان يحارب تحت لواء مروان كانت تعوزه اللحمة والاندفاع في سبيل قضية سامية.

لقد كان جيش مروان خليطاً من أهل الجزيرة وأهل الشام وبني أمية. وهذا ما أدى إلى ظهور حركة تمرد في جيش مروان في آخر لحظة عندما راح يدعو القبائل للهجوم فلا ينفذون أوامره، وهذا ما ذكرناه سابقاً في هذا الفصل.

لذلك، ورغم أن مروان بن محمد لم يكن قد هُزم سابقاً في أي معركة، ورغم عدد جيشه الضخم، فإن معنويات جنده لم تكن بقدر معنويات جند خصمه. لذلك خسر المعركة وخسر الحرب وخسرت أمية الخلافة وخسر العرب سيطرتهم على باقي الشعوب الإسلامية.

يرى بعض المؤرخين أنه بمجيء العباسيين، انتهت سيادة العرب التي كان يمثّلها الحكم الأموي. ويرى ولهاوزن أنه بانتصار العباسيين، انتصرت الفارسية على العربية تحت شعار الأممية الإسلامية. ويرى بعض المؤرخين أن الثورة العباسية التي استغلت نفوذ أهل البيت، وقلبت المفاهيم الاجتماعية والسياسية في الإسلام، يمكن تصنيفها في خانة الثورات العالمية التي غيّرت مجرى تاريخ الشعوب.

ملحق رقم ٦
سيرة أبي مسلم الخراساني

كتب ابن كثير:[١]

«هو عبد الرحمن بن مسلم أبو مسلم صاحب دولة بني العباس، ويقال له أمير آل بيت رسول الله ﷺ، وقال الخطيب البغدادي: يقال له عبد الرحمن بن مسلم بن شيرون بن اسفنديار أبو مسلم المروزي، صاحب الدولة العباسية.

قال الخطيب: وكان أبو مسلم فاتكاً ذا رأي وعقل وتدبير وحزم، قتله أبو جعفر المنصور بالمدائن. وقال أبو نعيم الأصبهاني في تاريخ أصبهان: كان اسمه عبد الرحمن بن عثمان بن يسار، قيل إنه ولد بأصبهان، وروى عن السّدي وغيره. وقيل كان اسمه إبراهيم بن عثمان بن يسار بن سندوس بن حوذون، من ولد بزرجمهر، وكان يكنّى أبا إسحاق، ولد بأصبهان ونشأ بالكوفة وكان أبوه أوصى به إلى عيسى بن موسى السراج، فحمله إلى الكوفة وهو ابن سبع سنين. فلما بعثه إبراهيم بن محمد الإمام إلى خراسان قال له: غيّر اسمك وكنيتك. فتسمى عبد الرحمن بن مسلم، واكتنى بأبي مسلم، فسار إلى خراسان وهو ابن سبع عشرة سنة راكباً على حمار بإكاف. وأعطاه إبراهيم بن محمد نفقة من عنده، فدخل خراسان وهو كذلك، ثم آل به الحال حتى صارت له خراسان بأزمتها وحذافيرها. وذكر أنه في ذهابه إليها عدا رجل من بعض الحانات فقطع ذنب حماره، فلما

---
(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٦٩-٧٦.

تمكن أبو مسلم جعل ذلك المكان دكاً فكان بعد ذلك خراباً. وذكر بعضهم أنه أصاب سبي في صغره وأنه اشتراه بعض دعاة بني العباس بأربعمائة درهم، ثم إن إبراهيم بن محمد الإمام استوهبه واشتراه فانتمى إليه وزوجه إبراهيم بنت أبي النجم إسماعيل الطائي، أحد دعاتهم، لمّا بعثه إلى خراسان، وأصدقها عنه أربعمائة درهم فولد لأبي مسلم بنتان إحداهما أسماء أعقبت، وفاطمة لم تعقب.

وقد تقدم ذكر كيفية استقلال أبي مسلم بأمور خراسان في سنة تسع وعشرين ومائة، وكيف نشر دعوة بني العباس، وقد كان ذا هيبة وصرامة وإقدام وتسرع في الأمور. وقد روى ابن عساكر بإسناده أن رجلاً قام إلى أبي مسلم وهو يخطب فقال: ما هذا السواد الذي أرى عليك؟ فقال: حدثني أبو الزبير عن جابر بن عبد الله «إن رسول الله ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء». وهذه ثياب الهيئة وثياب الدولة. يا غلام اضرب عنقه. وروى من حديث عبد الله بن منيب عنه عن محمد بن علي عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس. قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد هوان قريش أهانه الله».

وقد كان إبراهيم بن ميمون الصائغ من أصحابه وجلسائه في زمن الدعوة، وكان يعده إذا ظهر أن يقيم الحدود. فلما تمكن أبو مسلم ألح عليه إبراهيم بن ميمون في القيام بما وعده به حتى أحرجه، فأمر بضرب عنقه، وقال له: لم لا كنت تنكر على نصر بن سيار وهو يعمل أواني الخمر من الذهب فيبعثها إلى بني أمية؟ فقال له: إن أولئك لم يقربوني من أنفسهم ويعدوني منها ما وعدتني أنت. وقد رأى بعضهم في المنام لإبراهيم بن ميمون هذا منازل عالية في الجنة بصبره على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه كان آمراً ناهياً قائماً في ذلك، فقتله أبو مسلم رحمه الله.

وقد ذكرنا طاعة أبي مسلم للسفاح واعتنائه بأمره وامتثال مراسيمه. فلما صار الأمر إلى المنصور استخف به واحتقره، ومع هذا بعثه المنصور إلى عمه عبد الله إلى الشام فكسره واستنقذ منه الشام وردها إلى حكم المنصور. ثم شمخت نفسه على المنصور وهمّ بقتله، ففطن لذلك المنصور

مع ما كان مبطناً له من البغضة، وقد سأل أخاه السفاح غير مرة أن يقتله كما تقدم ذلك فأبى عليه. فلما تولى المنصور ما زال يماكره ويخادعه حتى قدم عليه فقتله. قال بعضهم: كتب المنصور إلى أبي مسلم: أما بعد فإنه يرين[١] على القلوب ويطبع عليها المعاصي، فع أيها الطائش، وأفق أيها السكران، وانتبه أيها النائم، فإنك مغرور بأضغاث[٢] أحلام كاذبة، في برزح دنيا قد غرت من كان قبلك وسم بها سوالف القرون. وإن الله لا يعجزه من هرب، ولا يفوته من طلب. فلا تغتر بمن معك من شيعتي وأهل دعوتي، فكأنهم قد صالوا عليك بعد أن صالوا معك، إن أنت خلعت الطاعة وفارقت الجماعة وبدا لك من الله ما لم تكن تحتسب، مهلاً مهلاً، احذر البغي أبا مسلم فإنه من بغى واعتدى تخلى الله عنه، ونصر عليه من يصرعه لليدين والفم. واحذر أن تكون سنّة في الذين قد خلوا من قبلك، ومثلة لمن يأتي بعدك، فقد قامت الحجة وأعذرت إليك، وإلى أهل طاعتي فيك.

فأجابه أبو مسلم: أما بعد فقد قرأت كتابك فرأيتك فيه للصواب مجانباً، وعن الحق حائداً ...

فكتب إليه المنصور: أما بعد أيها المجرم العاصي، فإن أخي كان إمام هدى يدعو إلى الله على بينة من ربه، فأوضح لك السبيل، وحملك على المنهج السديد. فلو بأخي اقتديت لما كنت عن الحق حائداً، وعن الشيطان وأوامره صادراً. ولكنه لم يسنح لك أمران إلاّ كنت لأرشدهما تاركاً، ولأغواهما راكباً، تقتل قتل الفراعنة، وتبطش بطش الجبابرة، وتحكم بالجور حكم المفسدين، وتبذر المال وتضعه في غير مواضعه فعل المسرفين. ثم من خبري أيا الفاسق أني قد وليت موسى بن كعب خراسان، وأمرته أن يقيم بنيسابور، فإن أردت خراسان لقيك بمن معه من قوادي وشيعتي. وأنا موجه للقائك أقرانك، فاجمع

---

(١) يرين: يسيطر.

(٢) أضغاث الأحلام: أحلام مختلطة ملتبسة لا يصح تأويلها لاختلاطها.

كيدك وأمرك غير مسدّد ولا موفق. وحسب أمير المؤمنين ومن اتبعه الله ونعم الوكيل.

ولم يزل المنصور يراسله تارة بالرغبة وتارة بالرهبة، ويستخف أحلام[١] من حوله من الأمراء والرسل الذين يبعثهم أبو مسلم إلى المنصور ويعدهم، حتى حسّنوا لأبي مسلم في رأيه القدوم عليه سوى أمير معه يقال له نيزك، فإنه لم يوافق على ذلك.

وأشار عليه بأن يقتل المنصور ويستخلف بدله فلم يمكنه ذلك. فإنه لما قدم المدائن تلقاه الأمراء عن أمر الخليفة، فلما وصل إلاّ آخر النهار، وقد أشار أبو أيوب كاتب الرسائل على الخليفة أن لا يقتله يومه هذا كما تقدم. فلما وقف بين يدي الخليفة أكرمه وعظّمه وأظهر احترامه، وقال: اذهب الليلة فأذهب عنك وعثاء[٢] السفر ثم ائتني من الغد. فلما كان الغد أرصد له من الأمراء من يقتله، منهم عثمان بن نهيك، وشبيب بن واج، فقتلوه. ويقال بل أقام أياماً يظهر له المنصور الإكرام والاحترام، ثم نشق منه الوحشة فخاف أبو مسلم واستشفع بعيسى بن موسى واستجار به، وقال: إني أخافه على نفسي. فقال لا بأس عليك فإني آت وراءك، أنت في ذمتي حتى آتيك. ولم يكن مع عيسى خبر بما يريد به الخليفة، فجاء أبو مسلم يستأذن على المنصور فقالوا له: اجلس ههنا فإن أمير المؤمنين يتوضأ.

فجلس وهو يودّ أن يطول مجلسه ليجيء عيسى بن موسى فأبطأ. وأذن له الخليفة فدخل عليه فجعل يعاتبه في أشياء صدرت منه فيعتذر عنها جيداً، حتى قال له: فلم قتلت سليمان بن كثير، وإبراهيم بن ميمون، وفلاناً وفلاناً؟ قال: لأنهم عصوني وخالفوا أمري. فغضب عند ذلك المنصور وقال: ويحك! أنت تقتل إذا عصيت، وأنا لا أقتلك وقد عصيتني؟ وصفق بيديه وكانت الإشارة بينه وبين المرصدين لقتله، فتبادروا إليه ليقتلوه فضربه أحدهم فقطع حمائل سيفه. فقال: يا أمير المؤمنين استبقني لأعدائك، فقال: وأي عدو لي أعدى منك. ثم زجرهم المنصور فقطعوه قطعاً ولفّوه في عباءة، ودخل عيسى بن موسى على إثر

(١) الأحلام: العقول.

(٢) وعثاء: مشقة وتعب.

ذلك فقال: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذا أبو مسلم، فقال: إنا للّه وإنا إليه راجعون، فقال له المنصور: أحمد الله الذي هجمت عليّ نعمته، ولم تهجم عليّ نقمته.

وقد كان قتل أبي مسلم بالمدائن يوم الأربعاء لسبع خلون، وقيل لخمس بقين، وقيل لأربع، وقيل لليلتين بقيتا من شعبان من هذه السنة - أعني سنة سبع وثلاثين ومائة. قال بعضهم: كان ابتداء ظهوره في رمضان من سنة تسع وعشرين ومائة، وقيل في شعبان سنة سبع وعشرين ومائة، وزعم بعضهم أنه قتل ببغداد في سنة أربعين، وهذا غلط من قائله، فإن بغداد لم تكن بنيت بعد كما ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد والله أعلم ورد هذا القول.

ثم كتب الخليفة إلى نائب أبي مسلم على أمواله وحواصله بكتاب على لسان أبي مسلم أن يقدم بجميع ما عنده من الحواصل والذخائر والأموال والجواهر. وختم الكتاب بخاتم أبي مسلم بكماله، مطبوعاً بكل فص الخاتم فلما رآه الخازن استراب[١] في الأمر، وقد كان أبو مسلم تقدم إلى خازنه أنه إذا جاءك كتابي، فإن رأيته مختوماً بنصف الفص فامض لما فيه، فإني إنما أختم بنصف فصه على كتبي. وإذا جاءك الكتاب مختوماً عليه بكامله فلا تقبل ولا تمض ما فيه. فامتنع عند ذلك خازنه أن يقبل ما بعث به المنصور، فأرسل المنصور بعد ذلك إليه من أخذ جميع ذلك وقتل ذلك الرجل الخازن. وكتب المنصور إلى أبي داود إبراهيم بن خالد بإمرة خراسان كما وعده قبل ذلك عوضاً عن أبي مسلم ولله الأمر».

(١) استراب: داخلته الريبة والشك.

ملحق رقم ٧
سيرة الخليفة مروان بن محمد[1]

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، القرشي الأموي، أبو عبد الملك أمير المؤمنين آخر خلفاء بني أمية. وأمه أمة كردية يقال لها لبابة، وكانت لإبراهيم بن الأشتر النخعي، أخذها محمد بن مروان يوم قتله فاستولدها مروان، ويقال إنها كانت أولاً لمصعب بن الزبير. وقد كانت دار مروان في سوق الأكافين.

بويع له بالخلافة بعد قتل الوليد بن يزيد، وبعد موت يزيد بن الوليد، ثم قدم دمشق وخلع إبراهيم بن الوليد، واستمر له الأمر في نصف صفر سنة سبع وعشرين ومائة. وقال أبو معشر: بويع له بالخلافة في ربيع الأول سنة تسع وعشرين ومائة، وكان يقال له مروان الجعدي، نسبة إلى رأي الجعد بن درهم، وتلقب بالحمار. وهو آخر من مَلَك من بني أمية، وكانت خلافته خمس سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام، وقيل خمس سنين وشهراً. وبقي مروان بعد أن بويع للسفاح تسعة أشهر. وكان أبيض مشرباً حمرة، أزرق العينين، كبير اللحية، ضخم الهامة، ربعة، ولم يكن يخضب. ولاّه هشام نيابة أذربيجان وأرمينيا والجزيرة، في سنة أربع عشرة ومائة، ففتح بلاداً كثيرة وحصوناً متعددة في سنين كثيرة. وكان لا يفارق الغزو في سبيل الله، وقاتل طوائف من الناس الكفار ومن الترك والخزر واللان وغيرهم، فكسرهم وقهرهم. وقد كان شجاعاً بطلاً مقداماً حازم الرأي، لولا أن جنده خذلوه.

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٤٨-٥٠.

وقال بعضهم: اجتاز مروان وهو هارب براهب فاطلع عليه الراهب فسلم عليه فقال له: يا راهب هل عندك علم بالزمان؟ قال: نعم! عندي من تلونه ألوان، قال: هل تبلغ الدنيا من الإنسان أن تجعله مملوكاً بعد أن كان مالكاً. قال: نعم! قال: فكيف؟ قال: بحبه لها وحرصه على نيل شهواتها وتضييع الحزم وترك انتهاز الفرص. فإن كنت تحبها فإن عبدها من أحبها. قال: فما السبيل إلى العتق؟ قال: ببغضها والتجافي[1] عنها. قال: هذا ما لا يكون. قال الراهب: أما إنه سيكون، فبادر بالهرب منها قبل أن تسلبها. قال: هل تعرفني؟ قال: نعم! أنت ملك العرب مروان، تقتل في بلاد السودان، وتدفن بلا أكفان، فلولا أن الموت في طلبك لدللتك على موضع هربك.

قال بعض الناس: كان يقال في ذلك الزمان يقتل عبد الله بن علي بن عباس مروان بن محمد بن مروان.

وقال بعضهم: جلس مروان يوماً وقد أحيط به وعلى رأسه خادم له قائم، فقال مروان لبعض من يخاطبه: ألا ترى ما نحن فيه؟ لهفي على أيدٍ ما ذُكرت، ونعم ما شكرت، ودولة ما نصرت. فقال له الخادم: «يا أمير المؤمنين من ترك القليل حتى يكثر، والصغير حتى يكبر، والخفي حتى يظهر، وأخّر فعل اليوم لغد، حلّ به أكثر من هذا». فقال مروان: «هذا القول أشدّ علي من فقد الخلافة». وقد قيل إن مروان قتل يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وقد جاوز الستين وبلغ الثمانين.

---

(١) التجافي: التباعد والكراهية.

ملحق رقم ٨

لائحة الخلفاء الأمويين مع مدة حكم كل منهم.

معاوية بن أبي سفيان	(٤٠ - ٦٠ هـ)	(٦٦١ - ٦٨٠ م).
يزيد بن معاوية	(٦٠ - ٦٤ هـ)	(٦٨٠ - ٦٨٣ م).
معاوية الثاني بن يزيد	(٦٤ - ٦٤ هـ)	(٦٨٣ - ٦٨٤ م).
مروان بن الحكم	(٦٤ - ٦٥ هـ)	(٦٨٤ - ٦٨٥ م).
عبد الملك بن مروان	(٦٥ - ٨٦ هـ)	(٦٨٥ - ٧٠٥ م).
الوليد بن عبد الملك	(٨٦ - ٩٦ هـ)	(٧٠٥ - ٧١٥ م).
سليمان بن عبد الملك	(٩٦ - ٩٩ هـ)	(٧١٥ - ٧١٧ م).
عمر بن عبد العزيز	(٩٩ - ١٠١ هـ)	(٧١٧ - ٧٢٠ م).
يزيد بن عبد الملك	(١٠١ - ١٠٥ هـ)	(٧٢٠ - ٧٢٤ م).
هشام بن عبد الملك	(١٠٥ - ١٢٥ هـ)	(٧٢٤ - ٧٤٣ م).
الوليد بن يزيد بن عبد الملك	(١٢٥ - ١٢٦ هـ)	(٧٤٣ - ٧٤٤ م).
يزيد الثالث الناقص بن الوليد	(١٢٦ - ١٢٦ هـ)	(٧٤٤ - ٧٤٤ م).
إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك	(١٢٦ - ١٢٧ هـ)	(٧٤٤ - ٧٤٤ م).
مروان بن محمد	(١٢٧ - ١٣٢ هـ)	(٧٤٤ - ٧٥٠ م).

ملحق رقم ٩

الموضوع:

تفاصيل مأدبة أبي فطرس[١]

قدم عبد الله بن علي إلى فلسطين واستقرّ في الرملة على نهر أبي فطرس، وسأل عن بقايا الأمويين، فقيل له إنهم لا يزالون كثرة وفيهم حنين إلى المسالمة والتكفير، فهتف صارخاً:

«ليأتوا. من مدّ يده للاسترحام نعم بالصفح والحلم. ومن استسلم فهو آمن، ومن أبى فله النار».

فأقبل منهم ثلاثة وثمانون هم بقايا قريش وأبناء أعمام عبد الله بن علي الناظر إليهم ببسمة تصارع الريبة وتجاهد في التماسك لستر النيات.

صافحهم فرداً فرداً مبدياً لهم سخي المودة ومرحباً بكرام الأنسباء.

وأقلقه أن لا يرى فيهم عبد الرحمن بن معاوية، فقال لهم:

«مرحباً بأبناء عمي. ما كنت أريدها فينا ناراً آكلة، إلاّ أن الشهوات دفعت جهّالنا، سامحهم الله، إلى تحطيم راسخ اللحمة بيننا. وإنكم لأبرياء من الفعلة وقد لبستم ما خيط لكم. فارتعوا في أمني وعفوي. ولكنني لا أهتدي إلى عبد الرحمن بن معاوية. فأين هو، وأنا منه بمنزلة الأب الرؤوف»؟

فلم يجبه أحد بشيء.

---

(١) كرم ملحم كرم، صقر قريش، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦١، ص١١٧.
سيمون الحايك، عبد الرحمن الداخل.

سكت على مضض، وأمر بأن تنصب الموائد على ضفاف النهر تكريماً للأنسباء المهتدين، فأهلاً ومرحباً بأبناء الأعمام. ودعاهم إلى الطعام في حلقات منظمة، وتصنّع البشر ولاطفهم وسايرهم حتى اطمأنوا وأكلوا وهم لا يكادون يصدقون ما يجري.

وفجأة، إذا بجند عبد الله بن علي يضرب عليهم نطاقاً من الشفار المسنونة والسيوف المشهورة، فارتاعوا وجمدت أيديهم على الصحاف. وملك بعضهم القدرة على الصياح: «أمانك يا عبد الله».

أجاب عبد الله: «وماذا ترتجون ممن طوى السنوات يرقب أن يمتّعه الله بيوم يبيدكم فيه على بكرة أبيكم؟ ألا ودّعوا دنياكم وتوبوا إلى ربكم ...».

فارتفعت صيحات الذعر: «أخدعةً يا عبد الله؟ أين برّك بيمينك؟».

فصاح بجنده: «اقتلوهم ... هؤلاء هم أعداء الله».

وقتل الجند الجميع.

ولما سقط آخر أموي هتف عبد الله برجاله: مدّوا لي على هذه الجثث بسطاً أجلس عليه وازدرد طعامي.

ومدّ البساط على الجثث ولم تكن الروح قد طارت من معظمها. وجيء للقائد الهاشمي بالطعام، فجلس يلتهم الزاد على ركام الجثث المصطرعة.

وكتب عبد الله إلى أبي العباس يبلغه بما أصاب الأمراء الأمويين، وذلك قبل أن يلحق بالخليفة الفار مروان بن محمد.

هكذا قتل أولاد الخلفاء الأمويين إبان الثورة العباسية.

الفصل الثامن
إكمال تثبيت الحكم العباسي

تمكّن العباسيون من الانتصار عسكرياً على الأمويين، وأصبح عليهم تثبيت دعائم حكمهم وإعادة الأمن إلى مختلف أرجاء الخلافة الإسلامية والعودة بالممارسات الدينية إلى الأصول التي وضعها النبي ﷺ وخلفاؤه.

وكان أبو العباس السفاح، عندما بويع بالخلافة، السنة ١٣٢ هـ، قد أوضح في الخطبة الأولى التي ألقاها في مسجد الكوفة الهدف من قيام الثورة العباسية، وهو تطبيق مبادئ الإسلام التي انحرف عنها الأمويون، مذكّراً أهل الكوفة بأنه «السفّاح المبيح والثائر المبير».

وكانت مهمة أبي العباس صعبة وعسيرة، فكان عليه أن يثبّت أقدام العباسيين في الخلافة ويوطّد أركانهم، وذلك بعد أن قضت جيوشه بقيادة عمه عبد الله بن علي على آخر الأمراء الأمويين الطامحين إلى إعادة الخلافة إلى الأمويين.

وكان على خلفاء بني العباس الأوائل التصدي لمشكلات عسكرية خاصة، لا سيما أن الجيش العباسي اختلف في تكوينه وسماته عنه خلال الخلافة الأموية. ففيما كان في العصر الأموي عربياً مدعوماً من أهل الشام الذين ساهموا في قمع الثورات المتعددة التي قامت بوجه الخلفاء الأمويين، غلب عليه، خلال العصر العباسي، الطابع الفارسي خاصة.

لقد برز الخراسانيون في مطلع العصر العباسي كقوة لا يستهان بها، وعلى رأسهم أقوى شخصية من شخصيات الدولة بعد الخليفة، أبو مسلم الخراساني. أما العرب فكان

أبرز قادتهم عبد الله بن علي بطل معركة الزاب والطامح إلى الخلافة. لقد ظل الجيش يفتقر إلى الانسجام والتلاحم بين فئاته المختلفة طيلة العصر العباسي الأول.

من جهة أخرى ظهرت خلال العصر العباسي الوزارة لأول مرة في التاريخ الإسلامي، واعتبرت المركز الثاني بعد الخلافة. وقد تميزت في العصر العباسي الأول أُسَر فارسية تسلم أفرادها منصب الوزارة وأبرزهم البرامكة.

سنحاول في هذا الفصل الأخير، ذكر الجهود التي قام بها الخلفاء الأوائل في سبيل تثبيت دعائم الحكم العباسي بعد الثورة الجارفة التي وضعتهم على هذا المستوى المرتفع من المسؤولية تجاه العالم الإسلامي.

١ - إخضاع بعض الخارجين على السلطة

كان على عبد الله بن علي إعادة بعض الخارجين على السلطة إلى الطاعة، وأولهم حبيب بن مرة المرّي ومن معه من أهل الثنية. ففي السنة الثانية والثلاثين بعد المائة شق حبيب ومن معه من أهل الثنية عصا الطاعة. وكان حبيب من قادة مروان بن محمد، فخاف على نفسه وقومه فبايعته قيس، فثار على الخلافة العباسية.

فلما بلغ عبد الله بن علي خروجه دعاه إلى الصلح فصالحه وأمنّه لا سيما بعد ظهور خطر أكبر بخروج أبي الورد وأهل دمشق عن الطاعة.

نقل الطبري تفاصيل قتال عبد الله بن علي لأبي الورد وأهل دمشق وقنسرين الذي انتصر فيه عبد الله، فكتب:[١]

«كان أبو الوَرْد - واسمه مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي، من أصحاب مروان وقواده وفرسانه. فلما هُزِم مروان، وأبو الورد بقنَّسرين، قدِمها عبد الله بن عليّ فبايعه ودخل فيما دخل فيه جنده من الطاعة. وكان ولد مسلمة بن عبد الملك مجاورين له ببالِس والناعورة، فقدِم بالس

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٥٦-٣٥٧.

قائد من قواد عبد الله بن علي من الأزارمردين في مائة وخمسين فارساً، فبعث بولد مسلمة بن عبد الملك ونسائهم. فشكا بعضهم ذلك إلى أبي الورد، فخرج من مزرعة يقال لها زرّاعة بني زفر - ويقال لها خُساف - في عدّة من أهل بيته؛ حتى هجم على ذلك القائد وهو نازل في حصن مسلمة؛ فقاتله حتى قتله ومَن معه. وأظهر التبييض والخَلْع لعبد الله بن علي. ودعا أهل قنّسرين إلى ذلك، فبيّضوا بأجمعهم، وأبو العباس يومئذ بالحيرة وعبد الله بن عليّ يومئذٍ مشتغل بحرب حبيب بن مرّة المرّيّ، فقاتله بأرض البلْقاء والبثنيّة وحوران. وكان قد لقيه عبد الله بن علي في جموعه فقاتلهم وكان بينه وبينهم وقعات؛ وكان من قواد مروان وفرسانه. وكان سبب تبييضه الخوف على نفسه وعلى قومه، فبايعته قيس وغيرهم ممن يليهم من أهل تلك الكور؛ البثنية وحوران.

فلما بلغ عبدالله بن علي تبييضهم، دعا حبيب بن مرة إلى الصلح فصالحه وآمنه ومن معه، وخرج متوجهاً نحو قنّسرين للقاء أبي الورد. فمر بدمشق، فخلف فيها أبا غانم عبد الحميد بن ربعيّ الطائيّ في أربعة آلاف رجل من جنده. وكان يومئذٍ بدمشق امرأة عبد الله بن علي أم البنين بنت محمد بن عبد المطلب النوفلية أخت عمرو بن محمد، وأمهات أولاد لعبد الله وثَقَل له. فلما قدِم حمص في وجهه انتفض عليه بعده أهل دمشق فبيّضوا، ونهضوا مع عثمان بن عبد الأعلى بن سرادقة الأزديّ. قال: فلقُوا أبا غانم ومَنْ معه، فهزموه وقتلوا من أصحابه مقتلة عظيمة، وانتهبوا ما كان عبد الله بن علي خلّف من ثقله ومتاعه؛ ولم يعرِضوا لأهله. وبيّض أهل دمشق واستجمعوا على الخلاف.

ومضى عبد الله بن علي، وقد كان تجمّع مع أبي الورد جماعة أهل قنّسرين، وكاتبوا مَنْ يليهم من أهل حمص وتدمر، وقدمهم ألوف، عليهم أبو محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان. فرأسوا عليهم أبا محمد، ودعوا إليه وقالوا: هو السفياني الذي كان يذكر وهو نحو من أربعين ألفاً. فلما دنا منهم عبد الله بن علي وأبو محمد معسكر في جماعته بمرج يقال له مرج الأخرم - وأبو الورد المتولي لأمر العسكر والمدبر له

وصاحب القتال والوقائع - وجّه عبد الله أخاه عبد الصمد بن علي في عشرة آلاف من فرسان من معه؛ فناهضهم أبو الورد، ولقيَهم فيما بين العسكرين. واشتجر القتل فيما بين الفريقين وثبت القوم، وانكشف عبد الصمد ومَن معه، وقتِل منهم يومئذ ألوف. وأقبل عبد الله حيث أتاه عبد الصمد ومعه حُميد بن قحطبة وجماعة من معه من القواد، فالتقوا ثانية بمرج الأخرم، فاقتتلوا قتالاً شديداً. وانكشف جماعة ممّن كان مع عبد الله، ثم ثابوا، وثبت لهم عبد الله وحميد بن قحطبة فهزموهم. وثبت أبو الورد في نحو من خمسمائة من أهل بيته وقومه، فقتلوا جميعاً. وهرب أبو محمد ومن معه من الكلبيّة حتى لحقوا بتدمر. وآمن عبد الله أهل قنّسرين، وسوّدوا وبايعوه، ودخلوا في طاعته؛ ثم انصرف راجعاً إلى أهل دمشق، لما كان من تبييضهم عليه، وهزيمتهم أبا غانم. فلما دنا من دمشق هرب الناس وتفرقوا، ولم يكن بينهم وقعة، وآمن عبد الله أهلها، وبايعوه ولم يأخذهم بما كان منهم».

٢ - إخضاع أهل الجزيرة

حين بلغ أهل الجزيرة خروج أبي الورد وانتفاض أهل قنسرين، انتفضوا وساروا إلى حرّان وفيها موسى بن كعب في ثلاثة آلاف من الجند. جرت معارك طويلة معهم رواها ابن الأثير إذ كتب:[١]

«في السنة الثانية والثلاثين بعد المائة، بيّض أهل الجزيرة وخلعوا أبا العباس السفاح وساروا إلى حران وبها موسى بن كعب في ثلاثة آلاف من جند السفاح فحاصروه بها، وليس على أهل الجزيرة رأس يجمعهم. فقدم عليهم إسحاق بن مسلم العقيلي من أرمينية - وكان سار عنها حين بلغه هزيمة مروان - فاجتمع عليه أهل الجزيرة، وحاصر موسى بن كعب نحواً من الشهرين، ووجه أبو العباس السفاح أخاه أبا جعفر فيمن كان معه من الجنود بواسط محاصرين ابن هبيرة. فسار بقرقيسيا، والرقة وأهلهما قد بيضوا وسار نحو حران فرحل

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٨٠-٨١.

إسحاق بن مسلم إلى الرهاء وذلك سنة ثلاث وثلاثين ومائة. وخرج موسى بن كعب من حران فلقي أبا جعفر. ووجه إسحاق بن مسلم أخاه بكار بن مسلم إلى ربيعة بدارا، وماردين - ورئيس ربيعة يومئذ رجل من الحرورية يقال له بريكة، فعمد إليهم أبو جعفر فقاتلوه قتالاً شديداً وقتل برمكة في المعركة. وانصرف بكار إلى أخيه إسحاق بالرها فخلفه إسحاق بها وسار إلى سميساط في عظم عسكره. وأقبل أبو جعفر إلى الرها وكان بينهم وبين بكار وقعات. وكتب السفاح إلى عبد الله بن علي يأمره أن يسير في جنوده إلى سميساط فسار حتى نزل بإزاء إسحاق بسميساط - وإسحاق في ستين ألفاً وبينهم الفرات. وأقبل أبو جعفر من الرها وحاصر إسحاق بسميساط سبعة أشهر - وكان إسحق يقول: في عنقي بيعة فأنا لا أدعها حتى أعلم أن صاحبها مات أو قتل. فأرسل إليه أبو جعفر أن مروان قد قتل، فقال: حتى أتيقن. فلما تيقن قتله طلب الصلح والأمان فكتبوا إلى السفاح بذلك وأمرهم أن يؤمّنوه ومن معه فكتبوا بينهم كتاباً بذلك. وخرج إسحاق إلى أبي جعفر وكان عنده من آثر صحابته، واستقام أهل الجزيرة، والشام. وولى أبو العباس أخاه أبا جعفر الجزيرة، وأرمينيا، وأذربيجان فلم يزل عليها حتى استخلف».

٣ - مقتل أبي سلمة الخلال

كان أبو سلمة قد أراد تحويل الخلافة إلى آل علي بن أبي طالب بعدما بلغ أهل الكوفة مقتل الإمام إبراهيم، لكن باقي نقباء الحركة العباسية أصرّوا على استخلاف أبي العباس وسلموا عليه بالخلافة.[١]

لذلك أصبح أبو سلمة متهماً من قبل بني هاشم، ولا سيما من أبي العباس منذ كان في معسكره بحمام أعين. وكتب أبو العباس إلى أبي مسلم يعلمه رأيه بأبي سلمة، فأجابه أبو مسلم: «إن كان أمير المؤمنين اطلع على ذلك فليقتله».[٢]

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص٤٢.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٨١.

لكن داود بن علي قال للسفاح: «لا تفعل يا أمير المؤمنين، فيحتج بها أبو مسلم عليك. كما أن أهل خراسان الذين معك أصحابه. ولكن اكتب إلى أبي مسلم فليبعث إليه من يقتله».

وبالفعل أرسل أبو مسلم مراراً أنس الضبي إلى أبي سلمة فقتله، وأشيع أن الخوارج هم الذين قتلوه.

٤ - محاصرة ابن هبيرة بواسط ومقتله

كان يزيد بن هبيرة قد قاتل قحطبة بن شبيب في جيش كبير أمده مروان بن محمد بقسم منه بقيادة حوثرة الباهلي.

وكان يزيد قد عبر دجلة من المدائن يريد الكوفة، واستعمل على مقدمته حوثرة وأمره بالمسير إلى الكوفة، والفريقان يسيران على جانبي الفرات.

عبر قحطبة النهر على مخاضة في السنة الثانية والثلاثين بعد المائة، حيث دار قتال بينه وبين حوثرة انهزم فيه أهل الشام مع حوثرة وقتل فيه قحطبة فبايع الناس الحسن بن قحطبة.[١]

ولما انهزم حوثرة لحق بابن هبيرة فانهزم هذا الأخير بهزيمتهم فسار إلى واسط وترك عسكره بما فيه من الأموال والسلاح وغير ذلك، فقام الحسن بن قحطبة بإحصاء ما في المعسكر.

وقدم ابن هبيرة إلى واسط فتحصن بها، فلحقه الحسن بن قحطبة مرسلاً من أبي سلمة فحاصره في واسط،[٢] فخرج ابن هبيرة من واسط وعلى ميمنته ابنه داود وعلى ميسرته الحسن خازم بن خزيمة، فاقتتلوا طويلاً فهزم جيش ابن هبيرة، فلحقهم الحسن واضطرهم إلى عبور الفرات حيث غرق عدد كبير من جند الشام.

ثم خرج ابن هبيرة بجيش الشام فاقتتل مع جيش الحسن بن قحطبة فانهزم جيش الشام مجدداً، فعاد ودخل المدينة حيث حوصر مجدداً وأصبح الجيشان لا يقاتلان إلاً رمياً بالأقواس.

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٣٩.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٨٣.

في هذه الأثناء كان أبو مسلم قد بدأ حربه ضد الأمويين. لذلك أرسل الحسن بن قحطبة رسولاً إلى أبي العباس السفاح طالباً منه إرسال أحد قادته لقيادة الجند الذي يحاصر ابن هبيرة وجيش الشام في واسط، فبعث أخاه أبا جعفر لقتال ابن هبيرة.(١)

ولما قدم أبو جعفر المنصور تحوّل الحسن عن خيمته وأنزله فيها واعترف به أميراً على الجيش الذي قاتل أهل الشام فانهزموا إلى خنادقهم. ثم اقتتلوا طيلة الليل بعد أن انضم إلى جيش الحسن مالك بن الهيثم قادماً من ناحية سجستان.(٢)

ودار قتال بين الجانبين، وصفه ابن الأثير الذي كتب:(٣)

«وخرج أهل واسط أيضاً مع معن، ومحمد بن نباتة فقاتلهم أصحاب الحسن فهزموهم إلى دجلة حتى تساقطوا فيها ورجعوا وقد قتل ولد مالك بن الهيثم. فلما رآه أبوه قتيلاً قال: لعن الله الحياة بعدك. ثم حملوا على أهل واسط فقاتلوهم حتى أدخلوهم المدينة. وكان مالك يملأ السفن حطباً ثم يضرمها ناراً لتحرق ما مرت به فكان ابن هبيرة يجر تلك السفن بكلاليب، فمكثوا كذلك أحد عشر شهراً. فلما طال عليهم الحصار طلبوا الصلح، ولم يطلبوا حتى جاءهم خبر قتل مروان أتاهم به إسماعيل بن عبد الله القسري، وقال لهم: علام تقتلون أنفسكم وقد قتل مروان؟ وتجنى أصحاب ابن هبيرة عليه فقالت اليمانية: لا نعين مروان وآثاره فينا آثاره. وقالت النزارية: لا نقاتل حتى تقاتل معنا اليمانية. وكان يقاتل معه صعاليك الناس وفتيانهم، وهمّ ابن هبيرة بأن يدعو إلى محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي فكتب إليه فأبطأ جوابه. وكاتب السفاح اليمانية من أصحاب ابن هبيرة وأطمعهم فخرج إليه زياد بن صالح، وزياد بن عبيد الله الحارثيان ووعدا ابن هبيرة أن يصلحا له ناحية ابن العباس فلم يفعلا. وجرت السفراء بين أبي جعفر، وابن هبيرة حتى جعل له أماناً وكتب

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٤، ص٣٦٠.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٨٣.
(٣) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص٨٣-٨٤.

به كتاباً مكث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء أربعين يوماً حتى رضيه فأنفذه إلى أبي جعفر فأنفذه أبو جعفر إلى أخيه السفاح فأمره بإمضائه. وكان رأي أبي جعفر الوفاء له بما أعطاه، وكان السفاح لا يقطع أمراً دون أبي مسلم وكان أبو الجهم عيناً لأبي مسلم على السفاح. فكتب السفاح إلى أبي مسلم يخبره أمر ابن هبيرة فكتب أبو مسلم إليه أن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسُدَ، لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة. ولما تم الكتاب خرج ابن هبيرة إلى أبي جعفر في ألف وثلاثمائة من البخارية وأراد أن يدخل الحجرة على دابته فقام إليه الحاجب سلام بن سليم فقال: مرحباً بك أبا خالد انزل راشداً، وقد أطاف بحجرة المنصور عشرة آلاف من أهل خراسان. فنزل ودعا له بوسادة ليجلس عليها وأدخل القواد. ثم أذن لابن هبيرة وحده فدخل وحادثه ساعة ثم قام. ثم مكث يأتيه يوماً ويتركه فكان يأتيه في خمسمائة فارس وثلاثمائة راجل، فقيل لأبي جعفر: إن ابن هبيرة ليأتي فيتضعضع له العسكر وما نقص من سلطانه شيء. فأمر أبو جعفر أن لا يأتي إلاّ في حاشيته فكان يأتي في ثلاثين ثم صار يأتي في ثلاثة أو أربعة. وكلّم ابن هبيرة المنصور يوماً فقال له ابن هبيرة: يا هناه أو يا أيها المرء، ثم رجع فقال: أيها الأمير إن عهدي بكلام الناس بمثل ما خاطبتك به لقريب فسبقني لساني إلى ما لم أرده. فألح السفاح على أبي جعفر يأمره بقتل ابن هبيرة وهو يراجعه حتى كتب إليه والله لتقتلنه أو لأرسلن إليه من يخرجه من حجرتك ثم أتولى قتله فعزم على قتله».

وقد قتل ابن هبيرة وانتهت ثورته واستولى أبو جعفر المنصور على أمواله وخزائنه.

٥ - قتل عمال أبي سلمة بفارس

وفي السنة الثانية والثلاثين بعد المائة وجه أبو مسلم الخراساني محمداً بن الأشعث على فارس وأمره بأن يقتل عمال أبي سلمة، ففعل ذلك.

٦ - ولاية يحيى بن محمد الموصل

في السنة نفسها امتنع أهل الموصل عن طاعة واليها محمد بن صول وأخرجوه

عنهم، فكتب إلى أبي العباس السفاح بذلك. قام السفاح باستعمال أخيه يحيى بن محمد على الموصل وسيّره إليها في اثني عشر ألف رجل، فنزل .قصر الإمارة بجانب مسجد الجامع، فلم يعترضه أحد من أهل الموصل.

ثم دعاهم يحيى إليه فقتل منهم اثني عشر رجلاً فانتفض أهل الموصل وحملوا السلاح ضده. كتب ابن الأثير واصفاً انتقام يحيى من أهل الموصل:[1]

«ثم دعاهم فقتل منهم اثني عشر رجلاً فنفر أهل البلد وحملوا السلاح فأعطاهم الأمان وأمر فنودي: من دخل الجامع فهو آمن. فأتاه الناس يهرعون إليه فأقام يحيى الرجال على أبواب الجامع فقتلوا الناس قتلاً ذريعاً أسرفوا فيه، فقيل: إنه قتل فيه أحد عشر ألفاً ممن له خاتم، وممن ليس له خاتم خلقاً كثيراً. فلما كان الليل سمع يحيى صراخ النساء اللاتي قتل رجالهن فسأل عن ذلك الصوت فأخبره به فقال: إذا كان الغد فاقتلوا النساء، والصبيان، ففعلوا ذلك وقتل منهم ثلاثة أيام. وكان في عسكره قائد معه أربعة آلاف زنجي فأخذوا النساء قهراً. فلما فرغ يحيى من قتل أهل الموصل في اليوم الثالث ركب اليوم الرابع، وبين يديه الحراب والسيوف المسلولة، فاعترضته امرأة وأخذت بعنان دابته فأراد أصحابه قتلها فنهاهم عن ذلك فقالت له: ألست من بني هاشم؟ ألست ابن عم رسول الله ﷺ؟ أما تأنف للعربيات المسلمات أن ينكحن الزنج. فأمسك عن جوابها وسيّر معها من يبلغها مأمنها، وقد عمل كلامها فيه. فلما كان الغد جمع الزنج للعطاء فاجتمعوا فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم. وقيل: كان السبب في قتل أهل الموصل ما ظهر منهم من محبة بني أمية وكراهة بني العباس، وإن امرأة غسلت رأسها وألقت الخطمي من السطح فوقع على رأس بعض الخراسانية فظنها ذلك تعمداً فهجم الدار وقتل أهلها فثار أهل البلد وقتلوه وثارت الفتنة».

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص٨٦-٨٧.

الخلاصة العامة

رأى بول كنيدي في كتابه «صعود الأمم وهبوطها» أن كل دولة تمر بمراحل ثلاث خلال تاريخها، هي: مرحلة التطور، مرحلة المراوحة ومرحلة التراجع.

هذه المراحل مرت فيها مختلف الإمبراطوريات التي عرفها التاريخ، من السومريين إلى البابليين والأكاديين والأَشوريين والفينيقيين واليونان والرومان وسواهم من الأمم القديمة أو الحديثة.

ولم يشذّ العرب المسلمون عن هذه القاعدة، إذ إن التاريخ الإسلامي عرف دولاً وخلافات متعددة، بدءاً بمرحلة النبوة فالخلافة الراشدية فالدولة الأموية، فالعباسية بمراحلها المتعددة والتي سنتحدث عنها لاحقاً. وخلال كل هذه المراحل تمكننا الملاحظة أن قاعدة بول كنيدي كانت حاضرة.

فالدولة الأموية، التي خصص لها القسم الأول من هذا الكتاب، مرت بمراحل متنوعة من السيطرة أو التراجع في الأهمية. فالمعروف أن هذه الدولة بدأت السنة ٤٠ هـ مع معاوية بن أبي سفيان الذي أنهى عصر الخلافة الراشدية وأقام الخلافة الأموية التي مرت بمراحل ثلاث خلال تاريخها:

أولاً: مرحلة تثبيت الدولة التي بدأت بعد معركة صفين ضد جيش الخليفة الراشدي الرابع الإمام علي بن أبي

طالب، ونشطت بعد استشهاده، وتلتها سلسلة ثورات سبق الحديث عنها في الجزء السابق من هذه الموسوعة.

ثانياً: مرحلة القوة والفتوحات التي بدأت مع عبد الملك بن مروان، إذ جرى في عهده غزو السند والقسطنطينية وشمال أفريقيا وجبال الغور وبلاد الترك وما وراء النهر وسجستان وقزوين وغيرها. كما افتتحت مناطق جديدة وواسعة ضمن إطار الفتوحات الإسلامية الكبرى.

وخلال المرحلة نفسها تجسدت القوة والفتوحات، خاصة في عهد الوليد بن عبد الملك الذي تسلّم حكماً مستتباً، فانطلق في سياسة الفتوحات في بلاد خراسان وبلاد الروم وبيكند وبخارى والطالقان والصغد والسند وما وراء النهر وشومان وسمرقند والشاش حتى بلغ المسلمون حدود الهند والصين.

برز خلال هذه المرحلة قادة عرب مسلمون كبار أمثال قتيبة بن مسلم الباهلي ومسلمة بن عبد الملك والحجاج بن يوسف الثقفي وغيرهم. كما تميزت هذه المرحلة بثبات غزوات الصوائف والشواتي إلى بلاد الروم.

وفي عهد سليمان ويزيد بن عبد الملك توالت سياسة القوة والفتوحات وذلك بفضل ثبات الحكم واستقراره، فجرى حصار القسطنطينية وفتح جرجان وطبرستان وبلاد الترك وغيرها. لكن نهاية عهد سليمان وبداية عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز عرفتا انطلاق الدعوة العباسية التي أسقطت، في ما بعد، الخلافة الأموية نهائياً.

ثالثاً: المرحلة الثالثة أي مرحلة التراجع والسقوط والتي بدأت في عهد هشام بن عبد الملك رغم النشاط العسكري اللافت الذي عرفه هذا العهد، إذ نفذت غزوات عديدة إلى بلاد الصغد والترك وبخارى وخراسان والخزر.

أما الانهيار النهائي للدولة الأموية وسقوطها، فإنه بدأ مع خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك، إذ اضطربت الأمور داخلياً وخارجياً وشهدت الدولة حروباً أهلية وثورات في عقر دار الخلافة الأموية، أي في

حمص وفلسطين والأردن. كما عرف هذا العهد تغيير الخلفاء بالقوة العسكرية عندما قـام مـروان بـن مـحـمـد بـخلـع الخليفـة إبراهيم.

أما الخطر الأكبر، الذي رافق حقبة الانهيارات الداخلية، فقد تجسد في خراسان بالثورة العباسية التي قدر لها أن يقود ألويتها هناك قائد فذ هو أبو مسلم الخراساني، الذي تمكن خلال مدة قصيرة من السيطرة على خراسان والانتصار على واليها الأموي نصر بن سيار.

لكن المعركة النهائية التي أسقطت النظام الأموي وأقامت مكانه النظام العباسي والخلافة العباسية، فقد نفذها عبد الله بن علي عم الخليفة أبي العباس السفاح. لقد انتصر عبد الله في موقعة الزاب الأعلى وهزم الخليفة الأموي مروان بن محمد الذي كان يقود جيشه بنفسه والذي قتل بعد ذلك في مصر على يد صالح بن علي.

وبوفاة الخليفة مروان انتهى العصر الأموي ليبدأ العصر العباسي.

إلاّ أن وقعة الزاب الأعلى لم تكن المعركة الأخيرة التي خاضتها جيوش الثورة العباسية في سبيل تثبيت الحكم العباسي بصورة نهائية. فقد خطط عبد الله ابن علي ونفذ مجزرة بحق أمراء بني أمية من أبناء الخلفاء خلال مأدبة دعاهم إليها في أبي فطرس. ولم ينجُ من المجزرة سوى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي فرّ إلى مصر ومنها إلى المغرب فالأندلس، حيث أحيا الإمارة الأموية فيها التي أصبحت الخلافة الأموية في عهد الخليفة الأول عبد الرحمن الناصر.

وخاضت الجيوش العباسية أيضاً صراعاً طويلاً بهدف تثبيت الخلافة في بني العباس، فقامت بإخضاع العديد من الخارجين على السلطة، وأخضعت أهل الجزيرة المنتفضين عليها، وقتلت بعض الولاة الذين لم يعترفوا بالسيادة العباسية على مناطقهم.

وهكذا نجحت الثورة العباسية، وأقام بنو العباس خلافتهم على أنقاض الخلافة الأموية من دون أن يعني ذلك نهاية متاعبهم وانتهاء قتالهم إن داخلياً أو خارجياً.

ونتج عن انتقال الخلافة إلى العباسيين نتائج عديدة أهمها:

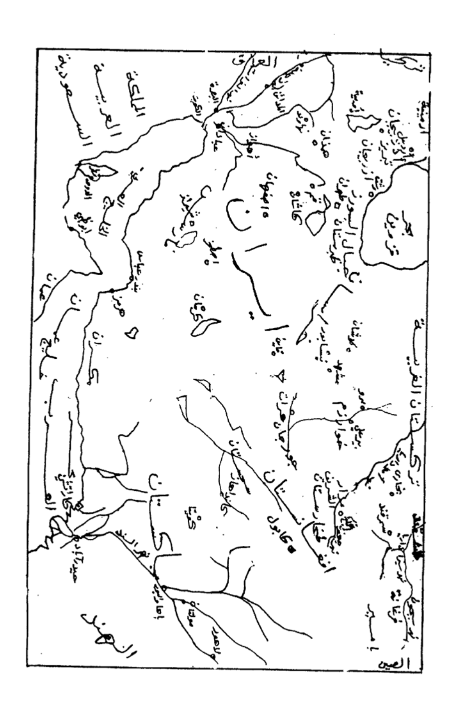
- انتقال السيادة في الدولة الإسلامية من العرب إلى شعوب أخرى أولها الفرس.

- انتقال مركز الخلافة من الشام إلى العراق، الذي بدأ يتألق حضارياً حتى ارتدت عاصمة الخلافة بغداد أبهى حُلَل مجدها خلال خلافة هارون الرشيد.

- انتصار الهاشميين على السفيانيين في الحرب التي بدأت قبل الإسلام بين المبادئ السامية والرأسمالية وسلطة المال.

كل هذا سنفصِّله في الأجزاء اللاحقة من هذه الموسوعة.

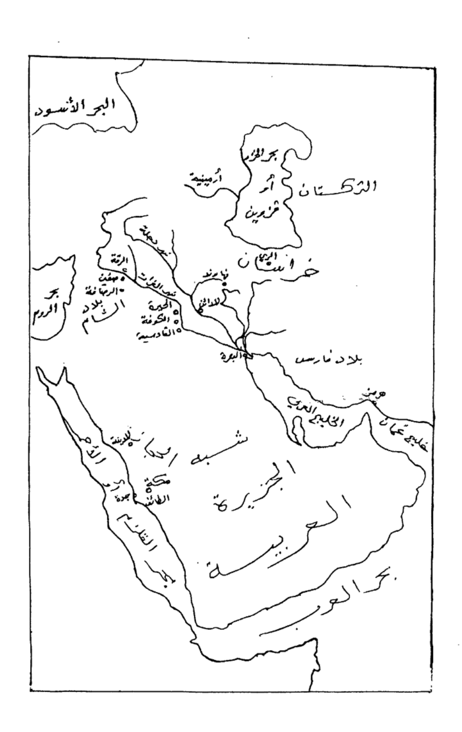
دولة الفرس

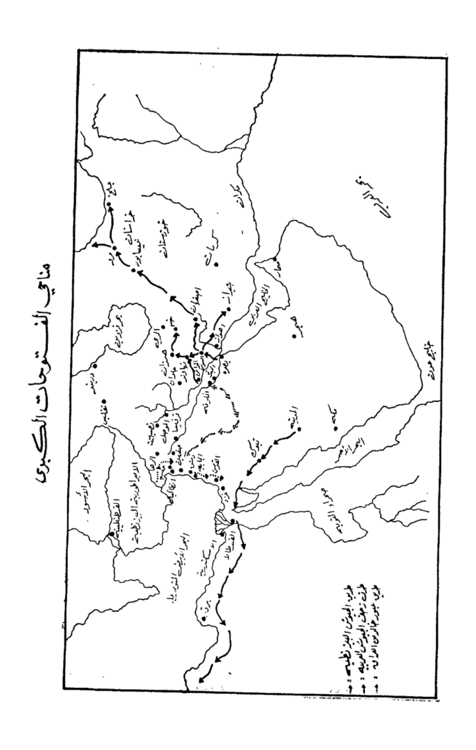


بلاد الشام والعراق



فتح بلاد فارس



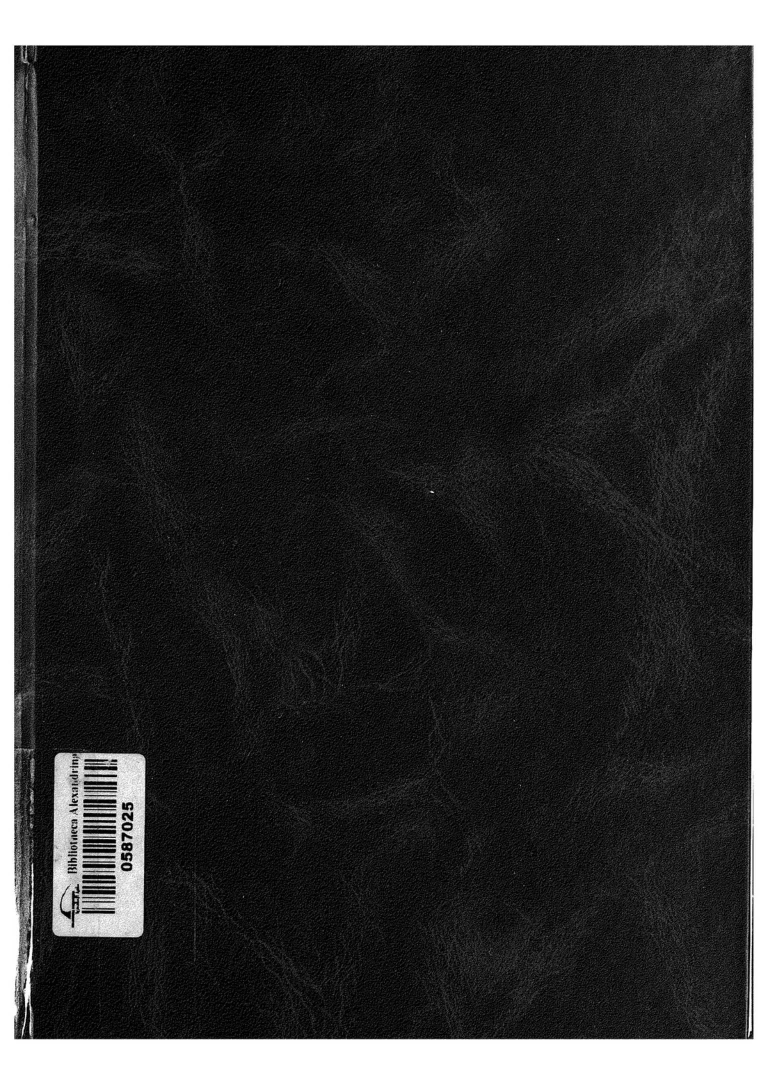

مناحي الفتوحات الكبرى

فهرس الجزء (٩)

الخرائط:






Bibliotheca Alexandrina
0587025